ابتداء دولة العبيديين من الشيعة بأفريقية

نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد اللّه المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، فكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

ألبس الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النا ... س جميعاً محمد وعلي

وأما المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم، وشد فيه أعلام الأئمة مثل القدوري والصهيري وأبي العباس الأيبوردي وأبي حامد الأسفرايني وأبي الفضل النسوي وأبي جعفر النسفي. ومن العلوية المرتضى وابن البطحاوي، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبو عبد اللّه بن النعمان، فهي شهادة على السماع. وكان ذلك متصلا في دولة العباسية منذ مائتين من السنين فاشياً في أمصارهم وأعصارهم. والشهادة على السماع في مثله جائزة على أنها شهادة نفي. ولا تعارض ما ثبت في كتاب المعتضد مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدلُّ شيء على صدق نسبهم.

وأما من جعل نسبهم في اليهودية أو النصرانية كميمون القداح وغيره فكفاه إثماً تعرضه لذلك. وأما دعوتهم التي كانوا يدعون لها فقد تقدم ذكرها في مذاهب الشيعة من مقدمة الكتاب، وانقسمت مذاهب الشيعة مع اتفاقهم على تفضيل علي على جميع الصحابة إلى الزيدية القائلين بصحة إمامة الشيخين مع فضل علي، ويجوزون إمامة المفضول وهو مذهب زيد الشهيد وأتباعه، والرافضة ويدعون بالإمامية المتبرئين من الشيخين بإمامهما وصية النبي ﷺ بخلافة علي. مع أن هذه الوصية لم تنقل من طريق صحيح قال بها أحد من السلف الذين يُقتدى بهم، وإنما هي من أوضاع الرافضة.

وانقسم الرافضة بعد ذلك إلى اثني عشرية نقلوا الخلافة من جعفر بعد الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم وولده على سلسلة واحدة إلى تمام الاثني عشر، وهو محمد المهدي وزعموا أنه دخل سرداباً وهم في انتظاره إلى الآن. وإلى الإسماعيلية نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم ساقوها في عقبه فمنهم من انتهى بها إلى عبيد اللّه هذا المهدي، وهم العبيديون، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبيد اللّه بن محمد المكتوم. وهؤلاء طائفة من القرامطة وهي من كذباتهم، ولايعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبيد اللّه. وكان شيعة هؤلاء العبيدين بالمشرق واليمن وأفريقية. وسار بها إلى أفريقية رجلان يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بالسفياني أنفذهما الشيعة إلى هنالك وقالوا لهما: إن العرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يحيا صاحب البذر، وسارا لذلك ونزلا أرض كتامة، أحدهما ببلد يسمى سوق حمار.

وفشت هذه الدعوة منهما في أهل تلك النواحي من البربر وخصوصاً في كتامة، وكانوا يزعمون أن النبي ﷺ أوصى إلى علي بالخلافة بالنصوص الجلية وعدل عنها الصحابة إلى غيره فوجب البراءة ممن عدل عنها. ثم أوصى علي إلى ابنه الحسن ثم الحسن إلى أخيه الحسين، ثم الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، ثم زين العابدين إلى ابنه محمد الباقر، ثم محمد الباقر إلى ابنه جعفر الصادق، ثم جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل الإمام، ومنه إلى ابنه محمد، ويسمونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون اسمه حذراً عليه. ثم أوصى محمد المكتوم إلى ابنه جعفر المصدق، وجعفر المصدق إلى ابنه محمد الحبيب، ومحمد الحبيب إلى ابنه عبيد اللّه المهدي الذي دعا له أبو عبد اللّه الشيعي. وكانت شيعهم منتشرين في الأرض من اليمن إلى الحجاز والبحرين والطرق وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان. وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص، وكان عادتهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم. وكان الشيعة من النواحي يعلمون مكيهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين، ثم يعرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل -وكان باليمن من شيعتهم-. ثم بعده لأئمة قوم يعرفون ببني موسى ورجل آخر يعرف بمحمد بن الفضل أصله من جند. وجاء محمد إلى زيارة الإمام محمد الحبيب. فبعث معه أصحابه رستم بن الحسين بن حوشب بن داود النجار، وهو كوفي الأصل وأمره باقامة الدعوة، وأن المهدي خارج في هذا الوقت، فسار إلى اليمن ونزل على بني موسى وأظهر الدعوة هنالك للمهدي من آل محمد الذي ينعتونه بالنعوت المعروفة عندهم، فاتبعه واستولى على كثير من نواحي اليمن.

وكان أبو عبد اللّه الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، وكان محتسباً بالبصرة. وقيل: إنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد اللّه يعرف بالعلم. لأنه كان يعرف مذهب الإمامية الباطنية، قد اتصل بالإمام محمد الحبيب وخبر

أهليته، فأرسله إلى أبي حوشب، ولزم مجالسته وأفاد علمه. ثم بعثه مع الحاج اليمني إلى مكة، وبعث معه عبد اللّه بن أبي ملا، فأتى الموسم ولقي به رجالات كتامة مثل حريث الحميلي وموسى بن مكاد، فاختلط بهم وعكفوا عليه لما رأوا عنده من العبادة والزهد، ووجه إليهم بدراً من ذلك المذهب، فاغتبط واغتبطوا وارتحل معهم إلى بلدهم ونزل بها منتصف ربيع سنة ثمان وثلاثين، وعين لهم مكان منزله بفتح الأحار وأن النص عنده من المهدي بذلك ولجهره بالمهدي وأن أنصاره الأخيار من أهل زمانه، وأن اسم أنصاره مشتق من الكتمان ولم يعينه، واجتمع لمناظرته كثير من أهل كتامة فأبى، ثم أطاعوه بعد فتن وحروب. واجتمعوا على دعوته وكانوا يسمونه أبا عبد اللّه المشرقي والشيعي.

ولما اختلف كتامة عليه واجتمع كثير منهم على قتله قام بنصرته الحسن بن هارون، وسار به إلى جبل إيكجان وأنزله مدينة تاصروت من بلد زرارة، وقاتل من لم يتبعه بمن تبعه حتى استقاموا جميعاً على طاعته. وبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عامل أفريقية بالقيروان، فأرسل إلى عامل ميلة يسأله عن أمره فحقره وذكر أنه رجل يلبس الخشن، ويأمر بالعبادة والخير فأعرض عنه حتى إذا اجتمع لأبي عبد اللّه أمرُه، زحَف في قبائل كتامة إلى بلد ميلة فملكها على الأمان بعد الحصار، فبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ابنه الأحول في عسكرهم يجاوز عشرين ألفاً، فهزم كتامة وامتنع أبو عبد اللّه بجبل إيكجان، وأحرق الأحول مدينة تاصروت ومدينة ميلة، وعاد إلى أفريقية، وبنى أبو عبد اللّه بجبل إيكجان مدينة سماها دار الهجرة. ثم توفي إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية وولى ابنه أبو العباس، وقتل واستقر الأمر لزيادة اللّه، وكان الأحول حمل العساكر لحضوره فاستقدمه زيادة اللّه وقتله.

وفاة الحبيب وإيصاؤه لابنه عبيد اللّه

ولما توفي محمد الحبيب وأوصى لابنه عبيد اللّه، وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وترى محناً شديدة. فقام عبيد اللّه بالأمر وانتشرت دعوته وأرسل إليه أبو عبد اللّه الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح اللّه عليهم، وأنهم في انتظاره. وشاع خبره وطلبه المكتفي فهرب هو وولده نزار الذي ولي بعده وتلقب بالقائم. وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب. وانتهى إلى مصر وعليها يومئذ عيسى النوشري، فلبس عبيد اللّه زي التجار يتستر به. وجاء كتاب المكتفي للنوشري بالقبض عليه، وفيه صفته وحليته، فبعث العيون في طلبه. ونمي الخبر بذلك إلى عبيد اللّه من بعض خواص النوشري فخرج في رفقة، ورآه النوشري وأحضره ودعاه للمؤاكلة فاعتذر بالصوم، ثم امتحنه فلم تشهد له أحواله بشيء مما ذكر له عنه.

وقارن ذلك رجوع ابنه أبي القاسم يسأل عن كلب للصيد ضاع له، فلما رآه النوشري وأخبر أنه ولد عبد اللّه علم أن هذه الدالة في طلب الضائع منافيه للرقبة والخوف، فخلى سبيله. وجدَّ المهدي في السير وكان له كتب من الملاحم ورثها منقولة عن أبيه سرقت من رحله في تلك الطريق، ويقال: إن ابنه أبا القاسم لما زحف إلى مصر أخذها من بلاد برقة. ولما انتهى المهدي وابنه إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرفقة، قدم أبا العباس أخا أبي عبيد اللّه الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومر بالقيروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة اللّه وهو يسأل عنهم، فقبض على أبي العباس وسأله فأنكر فحبسه، وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته، وسار إلى قسنطينة فعدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقيروان، وذهب إلى سجلماسة وبها إليشع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاءه كتاب زيادة اللّه ويقال: كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه، وبعث زيادة اللّه العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حيش وكانوا أربعين ألفاً، فانتهى إلى قسنطينة فأقام بها وهم متحصنون بخيلهم ستة أشهر. ثم زحف إليهم ودافعهم عند مدينة بلزمة فانهزم إلى القيروان. وكتب أبو عبد اللّه بالفتح إلى المهدي وهو في محبسه. ثم زحف إلى مدينة طبنة فحاصرها وملكها بالأمان، ثم إلى مدينة بلزمة فملكها عنوة، فبعث زيادة اللّه العساكر مع هارون الطبني فانتهوا إلى مدينة دار ملوك، وكانوا قد أطاعوا الشيعي فهدمها هارون، وقتل أهلها، وسار إلى الشيعي فانهزم من غير قتال وقتل.

وفتح الشيعي مدينة عيسى فزحف زيادة اللّه في العساكر سنة خمس وتسعين ونزل الأربس ثم أشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردءاً للعساكر، فبعث الجيوش مع إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته ورجع، وزحف أبو عبد اللّه إلى باغاية فهرب عاملها وملكها. ثم إلى مدينة مرماجنة فافتتحها عنوة وقتل عاملها ثم إلى مدينة تيفاش فملكها على الأمان، واستأمن إليه القبائل من كل جهة فأمنهم وسار بنفسه إلى مسلبابة ثم إلى تبسة ثم إلى مجانة ففتحها على الأمان، ثم سار إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها وسار يريد قاده وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب وهو بالأربس أميراً على الجيش، فخشي على زيادة اللّه برقادة

لقلة عسكره، وارتحل ذاهباً إليه، وسار أبو عبد الله إلى قسنطينة فحاصرها وافتتحها على الأمان ورجع إلى باغاية فأنزل بها عسكراً وعاد إلى ايكجان فسار إبراهيم بن أبي الأغلب إلى باغاية وحاصر أصحاب أبي عبد الله بها، فبعث أبو عبد الله عساكره إلى مرج العرعار فألفوا إبراهيم قد عاد عنها إلى الأربس. ثم زحف أبو عبد الله إلى إبراهيم سنة ست وتسعين في مائة ألف مقاتل وبعث من عسكره من يأتي إبراهيم من خلفه، وسار إليه فانهزم وأثخن فيهم أبو عبد الله بالقتل والأسر، وغنم أموالهم وخيلهم وظهرهم. ودخل الأربس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة، وبلغ الخبر إلى زيادة الله فهرب إلى مصر.

وافترق أهل مدينة رقادة إلى القيروان وسوسة ونهب قصور بني الأغلب ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، فنزل قصر الإمارة وجمع الناس ووعدهم الحماية، وطلب المساعدة بطاعتهم وأموالهم، فاعتذروا وخرجوا إلى الناس فأخبروهم، فثاروا به وأخرجوه. وبلغ أبا عبد الله الشيعي هرب زيادة الله وهو يشبه فدخل إلى رقادة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا وأمنوا الناس. وخرج أهل القيروان للقاء أبي عبد الله فأكرمهم وأمنهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصورها وفرق دورها على كتامة ونادى بالأمان. وتراجع الناس فأخرج العمال وطلب أهل الشر فهربوا، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وأمر بحفظها وبحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين لهم أحداً. ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، ووسم أفخاذ الخيل بالملك لله.

بيعة المهدي بسجلماسة

ولما ملك أبو عبد الله أفريقية لقيه أخوه العباس منطلقاً من اعتقاله، فاستخلفه عليها وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك من قواد كتامة. وسار إلى المغرب ففرق القبائل من طريقه، وخافته زناتة فدخلوا في طاعته، ولما قرب من سجلماسة إلى المهدي بمحبسه يسأله عن حاله فأنكر، ثم سأل ولده كذلك فأنكر، وضرب رجاله فأنكروا، ونمي الخبر إلى أبي عبد الله فخشي عليهم وأرسل إلى اليسع يتلطفه فقتل الرسل فأغذ أبو عبد الله السير وحاصره يوماً وهرب اليسع من الليل هو وأصحابه وبنو عمه. وخرج أهل البلد إلى أبي عبد الله فجاء إلى مجلس المهدي فأخرجه هو وابنه أبا القاسم، وأركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديها وهو يقول: هذا مولاكم ويبكي من شدة الفرح، ثم أنزله بالمخيم وبعث في أثر اليسع فجيء به فجلد، ثم قتل، وأقام بسجلماسة أربعين يوماً ورجع إلى أفريقية، ووصل إلى رقادة في ربيع من سنة ست وتسعين وجدد البيعة للمهدي واستولى على ملك بني الأغلب بأفريقية. وملك مدرارسجلماسة ونزل برقادة وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وبعث دعاته في الناس فحملوهم على مذهبهم فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامة، وأقطعهم الأموال والأعمال، ودوّن الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد. فبعث على صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير فوصل إلى مازر في عيد الأضحى من سنة تسع وتسعين، فاستقضى بها إسحاق بن المنهال، وأجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى بسط قلورية فأثخن فيها وعاد وثار به أهل صقلية سنة تسع وتسعين فحبسوه واعتذروا إلى المهدي لسوء سيرته، فعذرهم وولى عليهم علي بن عمر البلوي فوصل إليهم خاتمة السنة المذكورة.

أخبار ابن الليث بفارس

قد ذكرنا من قبل استيلاء الليث بن علي بن الليث وسيكرى مولى عمر بن الليث على فارس من يد طاهر بن محمد. ثم أخرج سيكرى بعد ذلك الليث وانفرد بها، وسار إليه طاهر بن محمد بن عمرو، فواقعه وانهزم طاهر وأسر سيكرى وأسر أخاه يعقوب، وبعث بهما إلى المقتدر مع كاتبه عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي، وقد أمره على ما يحمله وذلك سنة ست وتسعين، ثم سار إليه الليث بن علي من سجستان سنة سبع وتسعين، فغلبه وملك فارس، وهرب سيكرى إلى أرجان وأمده المقتدر بمؤنس الخادم في العساكر، فجاء إلى أرجان وجاء الحسين بن حمدان من قم إلى البيضاء في إعانته، فسار لملاقاته وأضل الطريق إلى مسالك صعبة أشرف على عسكر مؤنس. وكان سيكرى قد بعث أخاه إلى شيراز ليحفظها، فلما أشرف على العسكر ظنه عسكر أخيه فثاروا إليه واقتتلوا وانهزم عسكر الليث وأخذ أسيراً. وأشار عليه أصحابه أن يقبض على سيكرى ويطلب من المقتدر ولاية فارس مكانه فوافقهم طاهر ودس إليه، فلحق بشيراز وعاد مؤنس إلى بغداد بالليث أسيراً، والحسين بن حمدان إلى عمله بقم.

ثم إن عبد الرحمن بن جعفر كاتب سيكري استولى على أمره، وحسده أصحابه وأكثروا السعاية فيه عند سيكرى فحبسه، واستكتب مكانه إسماعيل بن إبراهيم اليمن، فحمله على العصيان

ومنع الحمل ودس عبد الرحمن بن جعفر من محبسه إلى الوزير ابن الفرات بذلك، فكتب إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس، فسار وأرسله سيكري أنسه وسأل منه الوساطة في أمره، وشعر ابن الفرات بميل مؤنس إلى بغداد، وسار محمد بن جعفر فهزم سيكرى على شيراز فخلص إلى قم وتحصن بها، وحاصره محمد بن جعفر ثم خرج إليه فهزمه ثانية، ودخل مغارة خراسان فلقيته عساكر إسماعيل إلى بغداد، فحبسا هنالك واستولى محمد بن جعفر من القواد على فارس وولى عليها قبيحاً خادم الأفشين، ثم صارت ولايتها لبدر ابن عبد الله الحمامي.

وفي آخر سنة تسع وتسعين ومائتين قبض حرمه وقامت الهيعة ببغداد ثلاثة أيام، ثم سكنت وذلك لثلاث سنين وثلاثة أشهر من وزارته. فاستوزر مكانه أبا علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى، فرتب الأمور وولي على الدواوين. ثم زاد قرفه لضيق صدره وطيشه وعدوله عن مذاهب الرياسة إلى الوضاعة ومراجعة أصحاب الحاجات والحقوق إلى ما يريد قضاءه منها، وكثرة التولية والعزل وتبجح أصحابه عليه في إطلاق الأموال وانبساط الجاه بإفساد الأحوال. واعتزم المقتدر على عزله بأبي الحسين بن أبي الفضل، فاستدعاه من أصبهان، ثم قبض عليه وعلى أبي الحسن ببغداد، وأهمل رأي الوزراء وصار يرجع إلى قول النساء والخدم، فطمع العمال في الأطراف، ثم أخرج ابن الفرات من محبسه وجعله في بعض الحجر، وأحسن إليه وصار يعرض عليه مطالعات العمال، وأراد أن يستوزره ثم بدا له واستدعى علي بن عيسى من مكة فاستوزره لأول سنة إحدى وثلثمائة، وقبض على الخاقاني وحبسه وعين حرسياً عليه. وقام علي بن عيسى بالوزارة وأصلح ما أفسده الخاقاني واستقامت الأمور.

قيام أهل صقلية بدعوة المقتدر ثم رجوعهم إلى طاعة المهدي

قد ذكرنا ولاية علي بن عمر على صقلية من عبد الله المهدي سنة تسع وتسعين. ثم إن أهل صقلية انتقضوا عليه وولوا عليهم أحمد بن موهب ثم انتقضوا عليه وأرادوا قتله فدعا إلى طاعة المقتدر وخطب له بصقلية، وقطع خطبة المهدي وبعث أسطولاً إلى ناحية ساحل أفريقية، فلقوا أسطول المهدي، وعليه الحسن بن أبي خنزير، فأحرقوه وقتلوا الحسن ووصلت خلع السواد وألويته لابن وهب من بغداد ثم جاءت أساطيل المهدي في البحر وفسد أمر ابن وهب ثم ثارت أهل صقلية به سنة ثلاثمائة وأسروه وبعثوا به إلى المهدي مع جماعة من أصحابه فأمرهم بقتلهم على قبر ابن أبي خنزير.

ولاية العهد

وفي سنة إحدى وثلثمائة ولي المقتدر ابنه أبا العباس العهد وهو الذي ولي الخلافة بعد القاهر وسمي بالرافضي فولاه أبوه المقتدر العهد وهو ابن سنين وقلده مصر والمغرب، واستخف له عليها مؤنساً الخادم وولى ابنه الآخر علياً على الري ودنباوند وقزوين وأذربيجان وأبهر.

ظهور الأطروش وملكه خراسان

كان هذا الأطروش من ولد عمر بن علي زين العابدين وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكان قد دخل إلى الديلم بعد قتل محمد بن زيد، ولبث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم على يديه منهم خلق كثير وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى ثغور المسلمين، وقراهم مثل قزوين وسالوس فأطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان، وكان إسماعيل بن أحمد لما انتقض بها محمد بن هارون، وقبض عليه إسماعيل ولى عليها أبا العباس عبد الله بن محمد بن نوح، فأحسن السيرة وأظهر العدل، وبالغ في الإحسان إلى العلوية الذين بها، واستمال الديلم بالمهاداة والإحسان، فاشتمل الناس عليه.

فلما دعاهم الحسن إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل ابن نوح. ثم إن أحمد بن إسماعيل عزل ابن نوح عنها، وولى عليها سلاماً فأساء السيرة ولم يحسن سياسة الديلم. فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم، واستعفى من ولايتها فعاد إليها ابن نوح وصلحت الحال كما كانت إلى أن مات، فولى عليها محمد بن إبراهيم بن صعلوك، فأساء السيرة وتنكر للديلم فصادف الحسن منها الغِرّة ودعاهم إلى غزو طبرستان فأجابوه، وسار إليه ابن صعلوك على من يرحّله من سالوس بشاطئ البحر، فانهزم وقتل من أصحابه أربعة آلاف، ولجأ الباقون إلى سالوس، فحاصرهم الأطروش حتى استأمنوا، ورجع عنهم إلى آمد.

ثم جاء الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش

إلى أولئك المستأمنين فقتلهم، واستولى الأطروش على طبرستان، ولحق ابن صعلوك بالري سنة إحدى وثلثمائة، وسار منها إلى بغداد وكان الأطروش زيدي المذهب، وجميع الذين أسلموا على يده فيما وراء اسعيد ولى إلى آمد كلهم على مذهب الشيعة. ثم إن الأطروش العلوي تنحى عن آمد إلى سالوس بعد أن غلب عليها، فبعث إليه صعلوك الري من قبل ابن سامان جيشاً فهزمهم وعاد إلى آمد. ثم زحفت إليه عساكر السعيد صاحب خراسان سنة أربع وثلثمائة فقتلوه.

وكان هذا الأطروش عادلاً حسن السيرة لم ير مثله في أيامه وأصابه الصمم من ضربة في رأسه بالسيف في الحرب. وقال ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم ويقال فيه الحسن بن علي الدعي وليس به، وإنما الداعي الحسن بن القاسم صهره، وسنذكره فيما بعد. وكان له من الولد أبو الحسن، وكان قواده من الديلم جماعة منهم ابن النعمان وكانت له ولاية جرجان، وما كان ابن كالي وكان على استراباذ ومعرا. ثم كان من قواد ولده من الديلم جماعة آخرون منهم أسفار بن شيروية من أصحاب ما كان ابن كالي ومرداويج بن زياد من أصحاب أسفار، وأسكرى من أصحابه أيضاً، وبنو بوية من أصحاب مرداويج، وسيأتي الخبر عن جميعهم إن شاء الله تعالى.

غلب المهدي على الإسكندرية ومسير مؤنس إلى مصر

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة بعث عبيد الله المهدي عساكره من أفريقية إلى الإسكندرية مع قائده خفاشة الكتابي فغلب عليها وسار إلى مصر، وبلغ المقتدر فبعث مؤنساً الخادم في العساكر لمحاربته، وأمده بالأموال والسلاح، وسار إليهم وقاتلهم فهزمهم بعد وقائع متعددة، قتل فيها من الفريقين، وبلغ القتل والأسر من المغاربة سبعة آلاف ورجعوا إلى المغرب.

انتقاض الحسين على ابن حمدان بديار ربيعة وأسره

كان الحسين بن حمدان والياً على ديار ربيعة وطالبه الوزير علي بن عيسى بالمال، فدافعه وأمره بتسليم البلاد إلى عمال السلطان فامتنع، وكان مؤنس الخادم بمصر في محاربة عساكر المهدي صاحب إفريقية، فجهز الوزير إلى ابن حمدان رائقاً الكبير في عسكر سنة ثلاث وثلاثمائة، وكتب إلى مؤنس أن يسير إلى الجزيرة لقتاله بعد فراغه من أصحاب العلوي بمصر، فسار رائق أولاً وهزمه الحسين، ولحق بمؤنس فأمره بالمقام بالموصل. وسار نحو الحسين وتبعه أحمد بن كيغلغ، وانتهى إلى جزيرة ابن عمر والحسين بأرمينية. ورجع الكثير من عسكره إلى مؤنس. ثم بعث مؤنس عسكراً في أثره عليهم بليق ومعه سيما الجزري. وجاء الصفواني واتبعوه فادركوه، وقاتلوه فهزموه، وجاؤوا به أسيراً ومعه ابنه عبد الوهاب وأهله وكثير من أصحابه. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل، فحبسه المقتدر وأغار على أبي الهيجاء بن حمدان وجميع إخوته وحبسهم. ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وقتل الحسين سنة ست تقريباً كما نذكر إن شاء الله تعالى.

وزارة ابن الفرات الثانية

كان الوزير أبو الحسن بن الفرات محبوساً كما ذكرنا وكان المقتدر يشاوره ويرجع إلى رأيه، ويبغي بعض أصحاب المقتدر إعادته. وبلغ ذلك الوزير علي بن عيسى فاستعفى ومنعه المقتدر. ثم جاءت في بعض الأيام قهرمانة القصر تناظره في نفقات الحرم والحاشية وكسوتهم، فألقته نائماً فلم يوقظه لها أحد. فرجعت وشكت إلى المقتدر وأمه فقبض عليه في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثمائة، وأعاد ابن الفرات على أن يحمل إلى بيت المال ألف دينار وخمسمائة دينار في كل يوم. وقبض على الوزير من قبله علي بن عيسى والخاقاني وأصحابهما، وصادرهم أبو علي بن مقلة وكان مختفياً منذ قبض على ابن الفرات فقدمه الآن واستخلصه.

خبر ابن أبي الساج بأذربيجان

قد ذكرنا استقرار يوسف بن أبي الساج على أرمينية وأذربيجان منذ مهلك أخيه محمد سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان على الحرب والصلاة والأحكام، وكان عليه مال يؤديه. فلما ولي الخاقان وعلي بن عيسى الوزارة، والتأمت أمور يوسف في الاستبداد، وأخر بعض المال واجتمع له ما يريده لذلك، وبلغته نكبة الوزير علي بن عيسى، فأظهر أن العهد وصل إليه بولاية الري على يد علي بن عيسى. وكان حميد بن صعلوك من قواد ابن سامان قد بعث على الري وما يليها، وقاطع عليها بمال يحمله فسار إليه يوسف سنة أربع وثلاثمائة فهرب إلى خراسان واستولى يوسف على الري وقزوين وزنجان، وكتب إلى الوزير ابن الفرات بالفتح ويعتذر بأنه طرد المتغلبين، ويذكر كثرة ما أنفق من ذلك،

وأنه كان بأمر الوزير علي بن عيسى وعهده إليه بذلك فاستعظم المقتدر ذلك، وسئل علي بن عيسى فأنكر وقال: سلموا الكتاب والحاشية والعهد واللواء اللذين كان يسير بهما مع بعض القواد والخدام.

فكتب ابن الفرات بالنكير على يوسف، وجهز العساكر لحربه مع خاقان المفلحي، ومعه أحمد بن مسرور البلخي، وسيما الخزري، ونحرير الصغير، وساروا سنة خمس وثلاثمائة فهزمهم يوسف وأسر منهم جماعة فبعث المقتدر مؤنساً الخادم في جيش كثيف لمحاربته وعزل خاقان المفلحي عن أعمال الجبل، وولاها نحريراً الصغير. وسار مؤنس واستأمن له أحمد بن علي أخو صعلوك فأمنه وأكرمه، وبعث ابن أبي الساج في المقاطعة على أعمال الري بسبعمائة ألف دينار سوى أرزاق الجند والخدم، فأبى له المقتدر من ذلك عقوبة على ما أقدم عليه، وولى على ذلك العمل وصيفاً البكتمري، وطلب ابن أبي الساج أن يقاطعه على ما كان بيده قبل الري من أذربيجان وأرمينية، فأبى المقتدر إلا أن يحضر في خدمته.

فلما يئس ابن أبي الساج إلى مؤنس وقاتله، فانهزم مؤنس إلى زنجان وقتل من قواده جماعة، وأسر هلال بن بدر وغيره فحبسهم يوسف في أردبيل، وأقام مؤنس بزنجان بجميع العساكر يستمد من المقتدر وابن أبي الساج يراسله في الصلح، والمقتدر لا يجيب إلى ذلك. ثم قاتله مؤنس في فاتح سنة سبع وثلاثمائة عند أردبيل فهزمه وأسره وعاد به إلى بغداد أسيراً، فحبسه المقتدر وولى مؤنس على الري ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان وجعل أموالها لرجاله، وولى مؤنس على أصبهان وقم وقاشان أحمد بن علي بن صعلوك، وسار عن أذربيجان فوثب سبك مولى يوسف بن أبي الساج فملكها واجتمع عليه عسكر فولى مؤنس بن محمد بن عبيد الفارقي وسار بمحاربة سبك فانهزم وعاد إلى بغداد.

وتمكن سبك في أذربيجان وسأل المقاطعة على مائتي ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة. فأجيب وعقد له عليها، وكان مقيماً بقزوين فقتله على مراسة ولحق ببلده، فولى المقتدر وصيفاً البكتمري مكانه على أعمال الري، وولى محمد بن سليمان صاحب الجيش على الخوارج بها، ثم وثب أحمد بن علي بن صعلوك صاحب أصبهان وقم على الري، فملكها وكتب إليه المقتدر بالنكير، وأن يعود إلى قم، فعاد ثم أظهر الخلاف وأجمع المسير إلى الري، وسار وصيف البكتمري لحربه. وأمر نحرير الصغير أن يسير مدداً لبكتمري، فسبقهم أحمد بن صعلوك إلى الري وملكها، وقتل محمد بن سليمان صاحب الخوارج، وبعث إلى نصر الحاجب ليصلح أمره بالمقاطعة على أعمال الري بمائة وستين ألف دينار، وينزل عن قم فكتب له بذلك وولى غيره على قم.

خبر سجستان وكرمان

وكانت سجستان قد صارت لابن سامان منذ سنة ثمان وتسعين ومائتين، ثم تغلب عليها كثير بن أحمد بن صهفود من يده، فكتب المقتدر إلى عامل فارس وهو بدر بن عبد الله الحمامي أن يرسل العساكر لمحاربته، ويؤمر عليهم دركاً، ويجعل على الخراج بها زيد بن إبراهيم. فسارت العساكر وحاربوا أهل سجستان فهزموهم وأسروا زيد بن إبراهيم، وكتب كثير إلى المقتدر بالبراءة من ذلك، وطوية أهل سجستان. وأرسل المقتدر أن يسير لقتاله بنفسه، فخاف كثير وطلب المقاطعة على خمسمائة ألف دينار في كل سنة، فأجيب وقررت البلاد عليه، وذلك سنة أربع وثلاثمائة. وانتقض في هذه السنة بكرمان صاحب الخوارج بها أبو زيد خالد بن محمد المارداني، وسار منها إلى شيراز يروم التغلب على فارس فسار إليه بدر الحمامي العامل، وحاربه فقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وزارة حامد بن العباس

وفي سنة ست وثلثمائة قبض المقتدر على وزيره أبي الحسن بن الفرات بسبب شكوى الجند بمطله أرزاقهم، واعتذر بضيق الأموال للنفقة في حروب ابن أبي الساج، ونقص الارتياع بخروج الري عن ملكه. فشغب الجند وركبوا، وطلب ابن الفرات من الخليفة إطلاق مائتي ألف دينار من خاصته يستعين بها، فنكر ذلك عليه لأنه كان ضمن القيام بأرزاق الأحشاد وجميع النفقات المرتبة، فاحتج بنقص الارتياع وبالنفقة في الحرب كما تقدم، فلم يقبل. ويقال: سعى فيه عند المقتدر بأنه يروم إرسال الحسين بن حمدان إلى أبي الساج فيحاربه، وإذا سار عنده اتفقا على المقتدر، فقتل المقتدر ابن حمدان وقبض على ابن الفرات في جمادى الآخرة، وكان حامد بن العباس على الأعمال بواسط، وكان منافراً لابن الفرات، وسعى به عنده بزيادة ارتياعه على ضمانه، فخشيه حامد على نفسه.

وكتب إلى نصر الحاجب والي والده المقتدر سعة نفسه وكثرة أتباعه، وذلك عند استيحاشه من ابن الفرات، فاستقدمه من واسط، وقبض على ابن الفرات وابنه المحسن وأتباعهما، واستوزر

حامداً فلم يوف حقوق الوزارة ولا سياستها، وتحاشى عليه الدواوين فأطلق المقتدر علي بن عيسى وأقامه على الدواوين كالنائب عن حامد. فكان يزاحمه واستبد بالأمور دونه ولم يبق لحامد أمر عليه فأجابه ابن الفرات بأسفه منه وقال لشفيع اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين حامد إنما حمله على طلب الوزارة، أني طالبته بأكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه، فاستشاط حامد وزاد في السفه، فأنفذ المقتدر من رد ابن الفرات إلى محبسه، ثم صودر وضرب ابنه المحسن وأصحابه وأخذت منهم الأموال. ثم إن حامداً لما رأى استطالة علي بن عيسى عليه وكثرة تصرفه في الوزارة دونه، ضمن للمقتدر أعمال الخوارج والضياع الخاصة والمستحدثة والقرارية، بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان، واستأذنه في الانحدار إلى واسط لاستخراج ذلك فانحدر واسم الوزارة له وأقام علي بن عيسى يدبر الأمور، فأظهر حامد سوء تصرف في الأموال، وبسط المقتدر يده حتى خافه علي بن عيسى. ثم تحرك السعر ببغداد فشغبت العامة ونهبوا الغلال، لأن حامداً وغيره من القواد كانوا يخزنون الغلال. وأحضر حامد لمنعهم فحضر فقاتلوه، وفتقوا السجون ونهبوا دار الشرطة. وأنفذ المقتدر غريب الحال في العسكر، فسكّن الفتنة وعاقب المتصدين للشر، وأمر بفتح المخازن التي للحنطة وبيعها، فرخص السعر وسكن إلى منع الناس من بيع الغلال في البيادر وخزنها فرفع الضمان عن حامد، وصرف عماله عن السواد ورد ذلك لعلي بن عيسى وسكن الناس.

وصول ابن المهدي وهو أبو القاسم إلى ابنه

وفي سنة سبع وثلاثمائة بعث المهدي صاحب أفريقية أبا القاسم في العساكر إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية في ربيع الآخر وملكها، ثم سار إلى مصر ونزل بالجيزة واستولى على الصعيد، وكتب إلى أهل مكة في طاعته فلم يجيبوا. وبعث المقتدر مؤنساً والخادم إلى مصر لمدافعته، فكانت بينهم حروب كثر فيها القتلى من الجانبين، وكان الظهور لمؤنس ولقّب يومئذ بالمظفر. ووصل من أفريقية أسطول من ثمانين مركباً مدداً للقائهم، وعليهم سليمان الخادم ويقعوب الكتامي، وأمر المقتدر بأن يسير إليهم أسطول طرسوس فسار في خمسة وعشرين مركباً وعليهم أبو اليمن، ومعهم العدد والأنفاط، فغلبوا أسطول أفريقية وأحرقوا أكثر مراكبه. وأسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي في جماعة قتل أكثرهم، وحبس سليمان بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد. ثم هرب وعاد إلى أفريقية وانقطع المدد عن عسكر المغاربة، فوقع الغلاء عندهم وكثر الموتان في الناس والخيل فارتحلوا راجعين إلى بلادهم وسار عساكر مصر في أثرهم حتى أبعدوا.

بقية خبر ابن أبي الساج

قد تقدم لنا أن مؤنساً حارب يوسف بن أبي الساج عامل أذربيجان فأسره وحمله إلى بغداد فحبس بها، واستقر بعده في عمله سبك مولاه. ثم إن مؤنساً شفع فيه سنة عشر. فأطلقه المقتدر وخلع عليه ثم عقد له على أذربيجان وعلى الري وقزوين وأبهر وزنجان وعلى خمسمائة ألف دينار في كل سنة سوى أرزاق العساكر. وسار يوسف إلى أذربيجان ومعه وصيف البكتمري في العساكر، ومر بالموصل فنظر في أعمالها وأعمال ديار ربيعة. وقد كان المقتدر تقدم إليه بذلك. ثم سار إلى أذربيجان وقد مات مولاه سبك، فاستولى عليها وسار سنة إحدى عشرة إلى الري وكان عليها أحمد بن علي أخو صعلوك، وقد اقتطعها كما قدمنا، ثم انتقض على المقتدر وهادن ما كان ابن كالي من قواد الديلم القائم بدعوة أولاد الأطروش في طبرستان وجرجان.

فلما جاء يوسف إلى الري حاربه أحمد فقتله يوسف وأنفذ رأسه إلى بغداد واستولى على الري في ذي الحجة وأقام بها مدة، ثم سار عنها إلى همذان فاتح ثلاث عشرة، واستخلف بها مولاه مفلحاً وأخرجه أهل الري عنهم، فعاد يوسف إليهم في جمادى من سنته، واستولى عليها ثانية. ثم قلده المقتدر سنة أربع عشرة نواحي المشرق وأذن له في صرف أموالها في قواده وأجناده وأمره بالمسير إلى واسط، ثم منها إلى هجر لمحاربة أبي طاهر القرمطي، فسار يوسف إلى أبي طاهر وكان بها مؤنس المظفر، فرجع إلى بغداد وجعل له أموال الخراج بنواحي همذان وساوة وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان لينفقها في عسكره، ويستعين بها على حرب القرامطة.

ولما سار من الري كتب المقتدر إلى السعيد نصر بن سامان بولاية الري وأمره بالمسير إليها وأخذها من فاتك مولى يوسف، فسار إليها فاتح أربع عشرة، فلما انتهى إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من العبور، وبذل له ثلاثين ألف دينار فترك سبيله وسار إلى الري فملكها من يد فاتك وأقام بها شهرين، وولى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بخارى. ثم استعمل على الري محمد بن أبي صعلوك فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة وأصابه مرض، وكاتب الحسن بن القاسم الداعي وماكان ابن كالي أميري الديلم في تسليم الري إليهما، فقدما وسار عنها ومات في طريقه،

واستولى الداعي والديلم عليها.

بقية الخبر عن وزراء المقتدر

قد تقدم الكلام في وزارة حامد بن العباس وأن علي بن عيسى كان مستبداً عليه في وزارته، وكان كثيراً ما يطرح جانبه ويسيء في توقعاته على عماله. وإذا اشتكى إليه أحد من نوابه يوقع على القصة إنما عقد الضمان على الحقوق الواجبة فليكف الظالم عن الرعية. فأنف حامد من ذلك واستأذن في المسير إلى واسط للنظر في ضمانه، فأذن له ثم كثرت استغاثة الخدم والحاشية من تأخر أرزاقهم وفسادها، فإن علي بن عيسى كان يؤخرها وإذا اجتمعت عدة شهور أسقطوا بعضها، وكثرت السعاية واستغاث العمال وجميع أصحاب الأرزاق بأنه حط من أرزاقهم شهرين من كل سنة، فكثرت الفتنة على حامد، وكان الحسن ابن الوزير ابن الفرات متعلقاً بمفلح الأسود خالصة الخليفة المقتدر وكان شقيقه لأبيه، وجرى بينه وبين حامد يوماً كلام، فأساء عليه حامد وحقد له.

وكتب ابن الفرات إلى المقتدر وضمن له أموالاً فأطلقه واستوزره، وقبض على علي بن عيسى وحبسه في مكانه، وذلك سنة إحدى عشرة، وجاء حامد من واسط فبعث ابن الفرات من يقبض عليه، فهرب من طريقه واختفى ببغداد. ثم مضى إلى نصر بن الحاجب سراً وسأل إيصاله إلى المقتدر، وأن يحبسه بدار الخلافة، ولا يمكن ابن الفرات منه. فاستدعى نصر الحاجب مفلحاً الخادم حتى وقفه على أمره وشفع له في رفع المؤاخذة بما كان منه، فمضى إلى المقتدر وفاوضه بما أحب، وأمر المقتدر بإسلامه لابن الفرات فحبسه مدة ثم أحضره وأحضر له القضاة والعمال، وناظره فيما وصل إليه من الجهات فأقر بنحو ألف ألف دينار. وضمنه المحسن بن الفرات بخمسمائة ألف دينار فسلم إليه وعذبه أنواعاً من العذاب، وبعثه إلى واسط ليبيع أمواله هناك فهلك في طريقه بإسهال أصابه.

ثم صودر علي بن عيسى على ثلثمائة ألف دينار وعذبه المحسن بعد ذلك عليها فلم يستخرج منه شيئاً وسيره ابن الفرات أيام عطلته وحبسه بعد أن كان رباه وأحسن إليه، فقبض عليه مدة ثم أطلقه، وقبض على ابن الجوزي وسلمه إلى ابنه المحسن، فعذبه ثم بعثه إلى الأهواز لاستخراج الأموال، فضربه الموكل به حتى مات. وقبض أيضاً على الحسين بن أحمد -وكان تولى مصر والشام- وعلى محمد بن علي الماراني وصادرهما على ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وصادر جماعة من الكتاب سواهم ونكبهم. وجاء مؤنس من غزاته فأنهى إليه أفعال ابن الفرات وما يعتمده من المصادرات والنكايات وتعذيب ابنه للناس، فخافه ابن الفرات وخوف المقتدر منه. وأشار بسيره إلى الشام ليقيم هنالك بالثغر، فبعثه المقتدر وأبعده.

ثم سعى ابن الفرات بنصر الحاجب وأغراه به وأطمعه في ماله وكان مكثراً واستجار نصر بأم المقتدر. ثم كثر الإرجاف بابن الفرات، فخاف وأنهى إلى المقتدر بأن الناس عادوه لنصحه للسلطان واستيفاء حقوقه، وركب هو وابنه المحسن إلى المقتدر فأوصلهما إليه وأسهمهما، وخرجا من عنده فمنعهما نصر الحاجب، ودخل مفلح على المقتدر وأشار إليه بعزله، فأسرّ إليه وفاقه على ذلك، وأمر بتخلية سبيلهما. واختفى المحسن من يومه. وجاء نازوك وبليق من الغد في جماعة من الجند إلى دار ابن الفرات فأخرجوه حافياً حاسراً، وحمل إلى مؤنس المظفر ومعه هلال بن بدر، ثم سلم إلى شفيع اللؤلؤي فحبس عنده وصودر على ألف ألف دينار، وذلك سنة اثنتي عشرة. وكان عبد الله أبو القاسم بن علي بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما تغير حال ابن الفرات سعى في الوزارة، وضمن في ابن الفرات وأصحابه ألفي ألف دينار على يد مؤنس الخادم وهارون بن غريب الحال ونصر الحاجب، فاستوزره المقتدر على كراهية فيه، ومات أبوه علي على وزارته. وشفع إليه مؤنس الخادم في إعادة علي بن عيسى من صنعاء، فكتب له في العود وبمشارفة أعمال مصر والشام،و أقام المحسن بن الفرات مختفياً مدة. ثم جاءت امرأة إلى دار المقتدر تنادي بالنصيحة، فأحضرها نصر الحاجب فدلت على المحسن، فأحضره نازوك صاحب الشرطة، فسلم للوزير وعذب بأنواع العذاب، فلم يستخرج منه شيء فأمر المقتدر بحمله إلى أبيه بدار الخلافة، وجاء الوزير أبو القاسم الخاقاني إلى مؤنس وهارون ونصر فحذرهم شأن ابن الفرات وغائلته بدار الخلافة، وأغراهم به، فوضعوا القواد والجند وقالوا: لابد من قتل ابن الفرات وولده، ووافق هؤلاء على ذلك فأمر نازوك بقتلهما فذبحهما.

وجاء هارون إلى الوزير الخاقاني يهنئه بذلك فأغمي عليه، ثم أفاق وأخذ منه ألفي دينار وشفع مؤنس المظفر في ابنيه عبد الله وأبي نصر فأطلقهما ووصلهما بعشرين ألف دينار. ثم عزل الخاقاني سنة ثلاث عشرة لأنه أصابه المرض وطال به، وشغب الجند في طلب أرزاقهم فوقفت به الأحوال، وعزله المقتدر وولى مكانه أبا العباس الخصي وكان كاتباً لأمه فقام بالأمر، وأقر علي عيسى على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما من مكة، ثم

إن الخصي اضطربت أموره وضاقت الجباية، وكان مدمناً للسكر مهملاً للأمور، ووكل من يقوم عنه فأثروا مصالحهم وأضاعوا مصلحته. وأشار مؤنس المظفر بعزله وولاية ابن عيسى، فعزل لسنة وشهرين.

واستقدم علي بن عيسى من دمشق وأبو القاسم عبد اللّه بن محمد الكلواذي بالنيابة عنه إلى أن يحضر، فحضر أول سنة خمس عشرة واستقل بأمر الوزارة، وطلب كفالات المصادرين والعمال، وما ضمن من الأموال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب، فاستحضرها شيئاً بعد شيء وأدر الأرزاق وبسط العطاء وأسقط أرزاق المغنين والمسامرة والندمان والصفاعنة وأسقط من الجند أصاغر الأولاد ومن ليس له سلاح والهرمى والزمنى، وباشر الأمور بنفسه واستعمل الكفاة وطلب أبا العباس الخصي في المناظرة، وأحضر له الفقهاء والقضاة والكتاب، وسأله عن أمواله الخوارج والنواحي والمصادرات وكفالاتها، وما حصل من ذلك وما الواصل والبواقي؟ فقال: لا أعلم. فسأله عن المال الذي سلمه لابن أبي الساج كيف سلمه بلا مصرف ولا منفق، وكيف سلم إليه أعمال المشرق، وكيف بعثه لبلاد الصحراء بهجرهو وأصحابه من أهل الغلول والخصب؟ فقال: ظننت منهم القدرة على ذلك.

وامتنع ابن أبي الساج من المنفق فقال: وكيف استجزت ضرب حرم المصادرين؟ فسكت، ثم سئل عن الخراج فخلط فقال: أنت غررت أمير المؤمنين من نفسك فهلا استعذرت بعدم المعرفة. ثم أعيد إلى محبسه واستمر علي بن عيسى في ولايته. ثم اضطربت عليه الأحوال واختلفت الأعمال، ونقص الارتياع نقصاً فاحشاً، وزادت النفقات، وزاد المقتدر تلك الأيام في نفقات الخدم والحرم ما لا يحصى، وعاد الجند من الأنبار فزادهم في أرزاقهم مائتين وأربعين ألف دينار. فلما رأى ذلك علي بن عيسى ويئس من انقطاعه أو توقفه، وخشي من نصر الحاجب، فقد كان انحرف عنه لميل مؤنس إليه وما بينهما من المنافرة في الدولة، فاستعفى من الوزارة وألح في ذلك وسكنه مؤنس فقال له: أنت سائر إلى الرقة، وأخشى على نفسي بعدك.

ثم فاوض المقتدر نصر الحاجب بعد مسير مؤنس فأشار بوزارة أبي علي ابن مقلة، فاستوزره المقتدر سنة ست عشرة وقبض على علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن، وأقام ابن مقلة بالوزارة وأعانه فيها أبو عبد اللّه البريدي لمودة كانت بينهما واستمرت حاله على ذلك. ثم عزله المقتدر ونكبه بعد سنتين وأربعة أشهر حين استوحش من مؤنس كما نذكره. وكان ابن مقلة متهماً بالميل إليه فأتفق مغيبه في بعض الوجوه فقبض عليه المقتدر. فلما جاء مؤنس سأل في إعادته فلم يجبه المقتدر أراد قتله فمنعه، واستوزر المقتدر سليمان بن الحسن وأمر علي بن عيسى بمشاركته في الاطلاع على الدواوين، وصودر ابن مقلة على مائتي ألف دينار، وأقام سليمان في وزارته سنة وشهرين وعلي بن عيسى يشاركه في الدواوين، وضاقت عليه الأحوال إضاقة شديدة، وكثرت المطالبات ووقفت وظائف السلطان.

ثم أفرد السواد بالولاية فانقطعت مواد الوزير لأنه كان يقيم من قبله من يشتري توقعات الأرزاق ممن لا يقدر على السعي في تحصيلها من العمال والفقهاء وأرباب البيوت، فيشتريها بنصف المبلغ فيتعرض بعض من كان يتمى لمفلح الخادم لتحصيل ذلك للخليفة، وتوسط له مفلح فدافع لذلك وجاهر في تحصيله من العمال، فاختلت الأحوال بذلك وفضح الديوان ودفعت الأحوال لقطع منافع الوزراء والعمال التي كانوا يرتفقون بها، وإهمالهم أمور الناس بسبب ذلك. وعاد الخلل على الدولة وتحرك المرشحون للوزارة في السعاية وضمان القيام بالوظائف وأرزاق الجند. وأشار مؤنس بوزارة أبي القاسم الكلواذي فاستوزره المقتدر في رجب من سنة تسع عشرة وأقام في وزارته شهرين.

وكان ببغداد رجل من المخرفين يسمى الدانيالي، وكان وراقاً ذكياً محتالاً يكتب الخطوط في الورق ويداويها حتى تتم بالبلى. وقد أودعها ذكر من يراه من أهل الدوله برموز وإشارات، ويقسم له فيها من حظوظ الملك والجاه والتمكين قسمة من عالم الغيب، يوهم أنها من الحدثان القديم المأثور عن دانيال وغيره، وأنها من الملاحم المتوارثة عن آبائه، ففعل مثل ذلك بمفلح. وكتب له في الأوراق م م م بأن يكون له كذا وكذا، وسأله مفلح عن الميم فقال: هو كناية عنك لأنك مفلح مولى المقتدر. وناسب بينه وبين علامات مذكورة في تلك الأوراق حتى طبقها عليه، فشغف به مؤنس وأغناه. وكان يداخل الحسين بن القاسم بن عبد اللّه بن وهب، فرمز اسمه في كتاب وذكر بعض علاماته المنطبقة عليه، وذكر أنه يستوزره الخليفة الثامن عشر من بني العباس، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعادي وتعمر الدنيا في أيامه وخلط ذلك في الكتاب بحدثان كثير وقع بعضه ولم يقع الآخر.

وقرأ الكتاب على مفلح فأعجبه، وجاء بالكتاب إلى المقتدر فأعجب به الآخر، وقال لمفلح: من تعلم بهذه القصة؟ فقال: لا أراه إلا الحسين بن القاسم. قال: صدقت وإني لأميل إليه، وقد كان المقتدر أراد ولايته قبل ابن مقلة وقبل الكلواذي، فامتنع مؤنس. ثم قال المقتدر لمفلح: إن جاءتك رقعة منه بالسعي في

الوزارة فأعرضها علي. ثم سأل مفلح الدانيالي من أين لك الكتاب؟ قال: وراثة من آبائي وهو من ملاحم دانيال. فأنهى ذلك إلى المقتدر واغتبطوا بالحسين وبلغ الخبر إليه، فكتب إلى مفلح بالسعي في الوزارة، فعرض كتابه على المقتدر فأمره بإصلاح مؤنس.

واتفق أن الكلواذي عمل حساباً بما يحتاج إليه من النفقات الزائدة على الحاصل، فكانت سبعمائة ألف دينار وكتب عليه أهل الديوان خطوطهم، وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين. فعظم ذلك على المقتدر، وأمر الحسين بن القاسم أن يضمن جميع النفقات وزيادة ألف ألف دينار لبيت المال. وعرض كتابه على الكلواذي فاستقال، وأذن للكلواذي لشهرين من وزارته، وولى الحسين بن القاسم واشترط أن لا يشاركه علي بن عيسى في شيء من أموره، وإخراجه الصافية. واختص به الحسين بن اليزيدي وابن الفرات. ولما ولي واطلع على نقصان الارتياع وكثرة الإنفاق وضاق عليه الأمر فتعجل الجباية المستقبلة، وصرفها في الماضية. وبلغ ذلك هارون بن غريب الخال فأنهاه إلى المقتدر، فرتب معه الخصي واطلع على حسابه، فألقى له حسبة ليس فيها رمزه. فأظهر ذلك المقتدر وجميع الكتاب واطلعوا عليها وقابلوا الوزير بتصديق الخصي فيما قاله، وقبض على الحسين بن القاسم في شهر ربيع من سنة عشرين لسبعة أشهر من ولايته. واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر وسلم إليه الحسين فلم يؤاخذه بإساءته ولم يزل على وزارته.

أخبار القرامطة في البصرة والكوفة

كان القرامطة قد استبد طائفة منهم بالبحرين وعليهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجناني، ورث ذلك عن أبيه واقتطعوا ذلك العمل بأسره عن الدولة، كما يذكر في أخبار دولتهم عند إفرادها بالذكر، فقد أبو طاهر البصرة سنة إحدى عشرة ومائتين وبها سبط مفلح، فكبسها ليلاً في ألفين وسبعمائة، وتسنموا الأسوار بالحبال، وركب سبك فقتلوه ووضعوا السيف في الناس فأفحشوا في القتل وغرق كثير في الماء، وأقام أبو طاهر بها سبعة عشر يوماً، وحمل ما قدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان وعاد إلى هجر. وولى المقتدر على البصرة محمد بن عبد الله الفارقي فانحدر إليها بعد انصرافهم عنها. ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة اثنتي عشرة معترضاً للحاج في رجوعهم من مكة، فاعترض أوائلهم ونهبهم، وجاء الخبر إلى الحاج وهم بعيد، وقد فنيت أزوادهم وكان معهم أبو الهيجاء بن حمدان صاحب طريق الكوفة. ثم أغار عليهم أبو طاهر فأوقع بهم وأسر أبا الهيجاء أحمد بن بدر من أخوال المقتدر، ونهب الأمتعة وسبى النساء والصبيان، ورجع إلى هجر.

وبقي الحجاج ضاحين في القفر إلى أن هلكوا، ورجع كثير من الحرم إلى بغداد، وأشغبوا واجتمع معهم حرم المنكوبين أيام ابن الفرات، فكان ذلك من أسباب نكبته. ثم أطلق أبو طاهر الأسرى الذي عنده ابن حمدان وأصحابه، وأرسل إلى المقتدر يطلب البصرة والأهواز، فلم يجبه وسار من هجر لاعتراض الحاج، وقد سار بين أيديهم جعفر بن ورقاء الشيباني في ألف رجل من قومه، وكان صاحب أعمال الكوفة وعلى الحاج بمثل صاحب البحر وجنا الصفواني وطريف اليشكري وغيرهم في ستة آلاف رجل، فقاتل جعفر الشيباني أولاً وهزمه. ثم اتبع الحاج إلى الكوفة فهزم عسكرهم وفتك فيهم، وأسرجنا الصفواني، وهرب الباقون. وملك الكوفة، وأقام بظاهرها ستة أيام يقيم في المسجد إلى الليل ويبيت في عسكره وحمل ما قدر عليه من الأموال والمتاع ورجع إلى هجر.

ووصل المنهزمون إلى بغداد فتقدم المقتدر إلى مؤنس بالخروج إلى الكوفة فسار إليها بعد خروجهم عنها، واستخلف عليها ياقوتاً ومضى إلى واسط ليمانع أبا طاهر دونها، ولم يحج أحد هذه السنة وبعث المقتدر سنة أربع عشرة عن يوسف بن أبي الساج من أذربيجان وسيره إلى واسط لحرب أبي طاهر. ورجع مؤنس إلى بغداد وخرج أبو طاهر سنة خمس عشرة وقصد الكوفة، وجاء الخبر إلى ابن أبي الساج فخرج من واسط آخر رمضان يسابق أبا طاهر إليها، فسبقه أبو طاهر وهرب العمال عنها واستولى على الأتراك والعلوفات التي أعدت بها. ووصل ابن أبي الساج ثامن شوال بعد وصول أبي طاهر بيوم وبعث يدعوه إلى الطاعة للمقتدر، فقال: لا طاعة إلا للّه فآذنه بالحرب وتزاحفوا يوماً إلى الليل.

ثم انهزم أصحاب ابن أبي الساج وأسروا ووكل أبو طاهر طبيباً يعالج جراحته، ووصل المنهزمون ببغداد فأرجفوا بالهرب، وبرز مؤنس المظفر لقصد الكوفة. وقد سار القرامطة إلى عين التمر فبعث مؤنس من بغداد خمسمائة سرية ليمنعهم من عبور الفرات. ثم قصد القرامطة الأنبار ونزلوا غربي الفرات، وجاؤوا بالسفن من الحديثة، فأجاز فيها ثلاثمائة منهم، وقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم واستولوا على مدينة الأنبار. وجاء الخبر إلى بغداد فخرج الحاجب في العساكر ولحق بمؤنس المظفر واجتمعوا في نيف

وأربعين ألف مقاتل إلى عسكر القرامطة ليخلصوا ابن أبي الساج فقاتلهم القرامطة وهزموهم. وكان أبو طاهر قد نظر إلى ابن أبي الساج وهو يستشرف إلى الخلاص، وأصحابه يشيرونه، فأحضره وقتله وقتل جميع الأسرى من أصحابه، وكثر الهرج ببغداد واتخذوا السفن بالانحدار إلى واسط ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان. وكان نازوك صاحب الشرطة فأكثر التطواف بالليل والنهار، وقتل بعض الدعار فأقصروا عن....

ثم سار القرامطة عن الأنبار فاتحة سنة ست عشرة ورجع مؤنس إلى بغداد وسار أبو طاهر إلى الرحبة فملكها واستباحها، واستأمن إليه أهل قرقيسيا فأمنهم، وبعث السرايا إلى الأعراب بالجزيرة فنهبوهم وهربوا بين يديه، وقدر إليهم الأتاوة في كل سنة يحملونها إلى هجر. ثم سار أبو طاهر إلى الرقة وقاتلها ثلاثاً، وبعث السرايا إلى رأس عين، وكفر توثا وسنجار فاستأمنوا إليهم، وخرج مؤنس المظفر من بغداد في العسكر وقصد الرقة، فسار أبو طاهر عنها إلى الرحبة ووصلها مؤنس، وسار القرامطة إلى هيت، فامتنعت عليهم فساروا إلى الكوفة. وخرج من بغداد نصر الحاجب وهارون بن غريب وبُني بن قيس في العساكر إليها، ووصلت جند القرامطة إلى قصر ابن هبيرة. ثم مرض نصر الحاجب واستخلف على عسكره أحمد بن كيغلغ، وعاد فمات في طريقه، وولى مكانه على عسكره هارون بن غريب، وولى مكانه في الحجة ابنه أحمد. ثم انصرف القرامطة إلى بلادهم، ورجع هارون إلى بغداد في شوال من السنة. ثم اجتمع بالسواد جماعات من أهل هذا المذهب بواسط وعين التمر، وولى كل جماعة عليهم رجلاً منهم، فولى جماعة واسط حريث بن مسعود، وجماعة عين التمر عيسى بن موسى وسار إلى الكوفة ونزل بظاهرها وصرف العمال عن السواد، وجبى الخراج. وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية. وكان صاحب الحرب بواسط بني بن قيس فهزموه، فبعث إليه المقتدر هارون بن غريب في العساكر، وإلى قرامطة الكوفة صافياً البصري، فهزموهم من كل جانب وجاؤوا بأعلامهم بيضاء عليها مكتوب ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية، وأدخلت إلى بغداد منكوسة، واضمحل أمر القرامطة بالسواد.

استيلاء القرامطة على مكة وقلعهم الحجر الأسود

ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة تسع عشرة إلى مكة وحج بالناس منصور الديلمي، فلما كان يوم التروية، نهب أبو طاهر أموال الحجاج وفتك فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر، وخرج إليه أبو مخلب أمير مكة في جماعة من الأشراف، وسألوه فلم يسعفهم، وقاتلوه فقتلهم وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً يقتلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في زمزم ودفن الباقين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلى عليهم ولا كفنوا. وقسم كسوة البيت على أصحابه ونهب بيوت أهل مكة. وبلغ الخبر إلى المهدي عبيد الله بأفريقية وكانوا يظهارون الدعاء له، فكتب إليه بالنكير واللعن ويتهدده على الحجر الأسود فرده وما أمكنه من أموال الناس واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه في الناس.

خلع المقتدر وعوده

كان من أول الأسباب الداعية لذلك أن فتنةً وقعت بين ماجورية هارون الحال ونازوك صاحب الشرطة في بعض مذاهب الفواحش، فحبس نازوك ماجوريه هارون، وجاء أصحابه إلى محبس الشرطة ووثبوا بنائبه وأخذوا أصحابهم من الحبس. ورفع نازوك الأمر إلى المقتدر فلم يعد أحداً منهما لمكانهما منه، فعاد الأمر بينهما إلى المقاتلة وبعث المقتدر إليهما بالنكير فأقصرا، واستوحش هارون، وخرج بأصحابه ونزل البستان النجمي وبعث إليه المقتدر يسترضيه، فأرجف الناس أن المقتدر جعله أمير الأمراء، فشق ذلك على أصحاب مؤنس، وكان بالرقة فكتبوا إليه فأسرع العود إلى بغداد ونزل بالشماسية مستوحشاً من المقتدر ولم يلقه، وبعث ابنه أبا العباس ووزيره ابن مقلة لتلقيه وإيناسه فلم يقبل، وتمكنت الوحشة وأسكن المقتدر ابن خاله هارون معه في داره فازداد نفور مؤنس.

وجاء أبو العباس بن حمدان من بلاده في عسكر كبير، فنزل عند مؤنس وتردد الأمراء بين المقتدر ومؤنس، وسار إليه نازوك صاحب الشرطة، وجاءه بني بن قيس، وكان المقتدر قد أخذ منه الدينور وأعادها إليه مؤنس، واشتمل عليه. وجمع المقتدر في داره هارون بن غريب وأحمد بن كيغلغ والغلمان الحجرية والرجال المصافية، ثم انتقض أصحاب المقتدر وجاؤوا إلى مؤنس وذلك في فتح سنة سبع عشرة. فكتب مؤنس إلى المقتدر بأن الناس ينكرون سرفه فيما أقطع الحرم والخدم من الأموال والضياع ورجوعه إليهم في تدبير ملكه، ويطالبه بإخراجهم من الدار وإخراج هارون بن غريب معهم، وانتزع ما في أيديهم من الأموال والأملاك.

فأجاب المقتدر إلى ذلك، وكتب يستعطفه ويذكره البيعة ويخوفه عاقبة النكث، وأخرج هارون إلى الثغور الشامية والجزرية، فسكن مؤنس ودخل إلى بغداد ومعه ابن حمدان ونازوك والناس يرجفون بأنه خلع المقتدر.

فلما كان عشر محرم من هذه السنة، ركب مؤنس إلى باب الشماسية وتشاور مع أصحابه قليلاً، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، وكان المقتدر قد صرف أحمد بن نصر القسوري عن الحجابة وقلدها ياقوتاً وكان على حرب فارس، فاستخلف مكانه ابنه أبا الفتح المظفر. فلما جاء مؤنس إلى الدار هرب ابن ياقوت وسائر الحجبة والخدم والوزير وكل من بالدار، ودخل مؤنس فأخرج المقتدر وأمه وولده وخواص جواريه، فنقلهم إلى داره واعتقلهم بها، وبلغ الخبر هارون بن غريب بقطربل فدخل إلى بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه ولقبوه القاهر باللّه. وأحضروا القاضي أبا عمر المالكي عند المقتدر للشهادة عليه بالخلع، وقام ابن حمدان يتأسف له ويبكي ويقول: كنت أخشى عليك مثل هذا ونصحتك فلم تقبل، وآثرت قول الخدم والنساء على قولي، ومع هذا فنحن عبيدك وخدمك، وأودع كتاب الخلع عند القاضي أبي عمر ولم يظهر عليه أحداً حتى سلمه إلى المقتدر بعد عوده، فحسن موقع ذلك منه وولاه القضاء. ولما تم الخلع عمد مؤنس إلى دار الخليفة فنهبها ومضى ابن نفيس إلى تربة أم المقتدر فاستخرج من بعض قبورها ستمائة ألف دينار وحملها إلى القاهر.

وأخرج مؤنس علي بن عيسى الوزير من الحبس وولى علي بن مقلة الوزارة، وأضاف إلى نازوك الحجابة مع الشرطة، وأقطع ابن حمدان حلوان والدينور وهمذان وكرمان والصيمرة ونهاوند وشيراز وماسبذان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، وكان ذلك منتصف المحرم. ولما تقلد نازوك الحجابة أمر الرجالة بتقويض خيامهم من الدار وأدالهم ابن جالة من أصحابه فأسفهم بذلك وتقدموا إلى خلفاء الحجاب بأن يمنعوا الناس من الدخول إلا أصحاب المراتب فاضطربت الحجرية لذلك. فلما كان سابع عشر المحرم وهو يوم الاثنين بكّر الناس إلى الخليفة لحضور الموكب وامتلأت الرحاب وشاطئ دجلة بالناس، وجاء الرجالة المصافية شاكي السلاح يطالبون بحق البيعة ورزق سنة، وقد بلغ منهم الحنق على نازوك مبالغة، وقعد مؤنس عن الحضور ذلك اليوم، وزعق الرجالة المصافية فنهى نازوك أصحابه أن يعرضوا لهم، فزاد شغبهم وهجموا على الصحن المنيعي، ودخل معهم من كان على الشط من العامة بالسلاح، والقاهر جالس وعنده علي بن مقلة الوزير ونازوك، فقال لنازوك: اخرج إليهم فسكنهم فخرج وهو متحامل من الخمار فتقدم إلى الرجالة للشكوى بحالهم ورأى السيوف في أيديهم فهرب، فحدث لهم الطمع فيه وفي الدولة، واتبعوه فقتلوه وخادمه عجيفاً ونادوا بشعار المقتدر.

وهرب كل من في الديار من سائر الطبقات وصلبوا نازوك وعجيفاً على شاطئ دجلة. ثم ساروا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر، وأغلق الخادم أبواب دار الخليفة، وكانوا كلهم صنائع المقتدر، وقصد أبو الهيجاء حمدان الفرات فتعلق به القاهر واستقدم به، فقال له: أخرج معي إلى عشيرتي أقتل دونك فوجد الأبواب مغلقة فقال له ابن حمدان: قف حتى أعود إليك ونزع ثيابه ولبس بعض الخلقان، وجاء إلى الباب فوجده مغلقاً والناس من ورائه، فرجع إلى القاهر وتمالأ بعض الخدام على قتله، فقاتلهم حتى كشفهم، ودخل في بعض مسارب البستان فجاؤوه فخرج إليهم فقتلوه وحملوا رأسه. وانتهى الرجالة إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر فسلمه إليهم وحملوه على رقابهم إلى دار الخلافة، فلما توسط الصحن المنيعي اطمأن وسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان وكتب لهما الأمان بخطه، وبعث فيهما فقيل له: إن ابن حمدان قد قتل، فعظم عليه وقال: واللّه ما كان أحد بسيف في هذه الأيام غيره، وأحضر القاهر فاستدناه وقبل رأسه وقال له: لا ذنب لك ولو لقبوك المقهور لكان أولى من القاهر وهو يبكي ويتطارح عليه حتى حلف له على الأمان، فانبسط وسكن. وطيف برأس نازوك وابن حمدان وخرج أبو نفيس هارباً من مكان استتاره إلى الموصل، ثم إلى أرمينية، ولحق بالقسطنطينية فتنصر، وهرب أبو السرايا أخو أبي الهيجاء إلى الموصل، وأعاد المقتدر أبا علي بن مقلة إلى الوزارة، وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم. وبيع ما في الخزائن بأرخص الأثمان وأذن في بيع الأملاك لتتمة الأعطيات، وأعاد مؤنساً إلى محله من تدبير الدولة والتعويل عليه في أموره. ويقال: إنه كان مقاطعاً للمقتدر وإنه الذي دس إلى المصافية والحجرية بما فعلوه، ولذلك قعد عن الحضور إلى القاهر. ثم إن المقتدر حبس أخاه القاهر عند أمه فبالغت في الإحسان إليه والتوسعة عليه في النفقة والسراري.

أخبار قواد الديلم وتغلبهم على أعمال الخليفة

قد تقدم لنا الخبر عن الديلم في غير موضع من الكتاب، وخبر افتتاح بلادهم بالجبال والأمصار التي تليها، مثل طبرستان

وجرجان وسارية وآمد واستراباذ، وخبر إسلامهم على يد الأطروش، وأنه جمعهم وملك بهم بلاد طبرستان سنة إحدى وثلثمائة، وملك من بعده أولاده والحسن بن القاسم الداعي صهره، واستعمل منهم القواد على ثغورها فكان منهم ليلى بن النعمان، كانت إليه ولاية جرجان عن الحسن ابن القاسم الداعي سنة ثمان وثلاثين. وكانت بين بني سامان وبين بني الأطروش والحسن بن القاسم الداعي وقواد الديلم حروب هلك فيها ليلى بن النعمان سنة تسع وثلاثمائة، لأن أمر الخلفاء كان قد انقطع عن خراسان، وولوها لبني سامان فكانت بسبب ذلك بينهم وبين أهل طبرستان من الحروب ما أشرنا إليه.

ثم كانت بعد ذلك حرب مع بني سامان فولاها من قواد الديلم شرخاب بن بهبودان وهو ابن عم ماكان بن كالي وصاحب جيش أبي الحسن الأطروش، وقاتله سيمجور صاحب جيش بني سامان، فهزمه وهلك شرخاب، وولى ابن الأطروش ماكان ابن كالي على استراباذ، فاجتمع إليه الديلم وقدموه على أنفسهم، واستولى على جرجان كما يذكر ذلك كله في أخبار العلوية. وكان من أصحاب ماكان هذا أسفار ابن شيرويه من قواد الديلم عن ماكان إلى قواد بني سامان. فاتصل بيكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وبعثه في الجنود لافتتاح جرجان، وبها أبو الحسن بن كالي نائباً عن أخيه ماكان وهو بطبرستان. فقتل أبو الحسن وقام بأمر جرجان علي بن خرشيد. ودعا أسفار بن شيرويه إلى حمايتها من ماكان، فزحف إليهم من طبرستان فهزموه وغلبوه عليها ونصبوا أبا الحسن وعلي بن خرشيد. فزحف ماكان إلى أسفار وهزمه وغلبه على طبرستان، ورجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان.

ثم توفي بكر سنة خمس عشرة، فولى نصر بن أحمد بن سامان أسفار بن شيروية مكانه على جرجان،و بعث أسفار عن مرداويج بن زيار الجيلي وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان فملكوها. وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده ماكان بن كالي. فلما غلب أسفار على طبرستان زحف إليه الداعي وقائده ماكان فانهزما وقتل الداعي ورجع ماكان إلى الري، واستولى أسفار ابن شيرويه على طبرستان وجرجان، ودعا لنصر بن أحمد بن سامان، ونزل سارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام. ثم سار أسفار إلى الري، فأخذها من يد ماكان ابن كالي وسار ماكان إلى طبرستان واستولى أسفار على سائر أعمال الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ، وعظمت جيوشه وحدثته نفسه بالملك، فانتقض على نصر بن سامان صاحب خراسان، واعتزم على حربه وحرب الخليفة.

وبعث المقتدر هارون بن غريب الخال في عسكر إلى قزوين، فحاربه أسفار وهزمه وقتل كثيراً من أصحابه. ثم زحف إليه نصر بن سامان من بخارى فراسله في الصلح وضمان أموال الجباية، فأجابه وولاه ورجع إلى بخارى، فعظم أمر أسفار وكثر عيثه وعسف جنده، وكان قائده مرداويج من أكبر قواده قد بعث أسفار إلى سلار صاحب سميرم، والطرم يدعوه إلى طاعته. فاتفق مع سلار على الوثوب بأسفار، وقد باطن في ذلك جماعة من قواد أسفار ووزيره محمد بن مطرف الجرجاني. ونمي الخبر إلى أسفار وثار به الجند فهرب إلى بيهق. وجاء مرداويج من قزوين إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي يستدعيه من طبرستان ليظاهره على أسفار، فقصد ماكان أسفار، فهرب أسفار إلى الري ليتصل بأهله وماله، وقد كان أنزلهم بقلعة المرت. وركب المفازة إليها، ونمي الخبر إلى مرداويج فسار لاعتراضه وقدم بعض قواده أمامه فلحقه القائد وجاء به إلى مرداويج فقتله ورجع إلى الري ثم إلى قزوين، وتمكن في الملك وافتتح البلاد وأخذ همذان والدينور وقم وقاشان وأصبهان، وأساء السيرة في أهل أصبهان وصنع سريراً من ذهب لجلوسه. فلما قوي أمره نازع ماكان في طبرستان فغلبه عليها ثم سار إلى جرجان فملكها وعاد إلى أصبهان ظافراً.

وسار ماكان على الديلم مستنجداً بأبي الفضل الشاثر بها، وسار معه إلى طبرستان فقاتلهم عاملها من قبل مرداويج بالقسم ابن بايجين وهزمهم، ورجع الشاثر إلى الديلم وسار ماكان إلى نيسابور، ثم سار إلى الدامغان فصده عنها القسم فعاد إلى خراسان. وعظم أمر مرداويج واستولى على بلد الري والجبل واجتمع إليه الديلم وكثرت جموعه وعظم خرجه. فلم يكف ما في يده من الأعمال فسما إلى التغلب على النواحي، فبعث إلى همذان الجيوش مع ابن أخته، وكانت بها عساكر الخليفة مع محمد بن خلف، فحاربهم وهزمهم وقتل ابن أخت مرداويج. فسار من الري إلى همذان وهرب عسكر الخليفة عنها وملكها مرداويج عنوة واستباحها. ثم أمن بقيتهم.

وأنفذ المقتدر هارون بن غريب الحال في العساكر فلقيه مرداويج وهزمهم واستولى على بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائده إلى الدينور ففتحها عنوة، وانتهت عساكره إلى حلوان فقتل وسبى. وسار هارون إلى قرقيسيا فأقام بها واستمد المقتدر وكان معه اليشكري من قواد أسفار، وكان قد استأمن بعد أسفار إلى الخليفة وسار في جملته. وجاء مع هارون في هذه الغزاة إلى

نهاوند لحمل المال إليه منها. فلما دخلها استمدت عينه إلى ثروة أهلها، فصادرهم على ثلاثة آلاف ألف دينار، واستخرجها في مدة أسبوع، وجند بها جنداً ومضى إلى أصبهان، وبها يومئذ ابن كيغلغ قبل استيلاء مرداويج عليها، فقاتله أحمد وانهزم وملك اليشكري أصبهان، ودخل إليها أصحابه، وقام بظاهرها.

وسار أحمد بن كيغلغ في ثلاثين فارساً إلى بعض قرى أصبهان وركب اليشكري ليتطوف على السور، فنظر إليهم فسار نحوهم فقاتلوه، وضربه أحمد بن كيغلغ على رأسه بالسيف فقدّ المغفر وتجاوزه إلى دماغه فسقط ميتاً. وقصد أحمد المدينة ففر أصحاب اليشكري، ودخل أحمد إلى أصبهان وذلك قبل استيلاء عسكر مرداويج عليها، فاستولى عليها وجددوا له فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي وبساتينه، وجاء مرداويج في أربعين أو خمسين ألفاً، فنزلها وبعث جمعاً إلى الأهواز فاستولوا عليها، والي خوزستان كذلك، وجبى أموالها وقسم الكثير منها في أصحابه، وادخر الباقي وبعث إلى المقتدر يطلب ولاية هذه الأعمال وإضافة همذان وماه الكوفة إليها على مائتي ألف دينار في كل سنة، فأجابه وقاطعه وولاه وذلك سنة تسع عشرة. ثم دعا مرداويج سنة عشرين أخاه وشكمير من بلاد كيلان، فجاء إليه بدوياً حافياً بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش ينكر كل ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة فرقت حاشيته وعظم ترفه. وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة.

ابتداء حال أبي عبد اللّه البريدي

كان بداية أمره عاملاً على الأهواز وضبط ابن ماكرلان هذا الاسم بالموحدة والراء المهملة نسبة إلى البريد. وضبطه ابن مسكوية بالياء المثناة التحتانية والزاي نسبة إلى يزيد بن عبد اللّه بن المنصور الحميري، كان جده يخدمه ولما ولي علي بن عيسى الوزارة واستعمل العمال، وكان أبو عبد اللّه قد ضمن الخاصة بالأهواز وأخوه أبو يوسف على سوق فائق من الاقتصارية وأخوه على هذا. فلما وزر أبو علي بن مقلة بذل له عشرين ألف دينار على أن يقلده أعمالاً فائقة، فقلده الأهواز جميعها غير السوس وجناسابور وقلد أخاه أبا الحسن القرانية وأخاهما أبا يوسف الخاصة والأسافل، وضمن المال أبا يوسف السمسار، وجعل الحسين بن محمد المارداني مشرفاً على أبي عبد اللّه، فلم يلتفت إليه. وكتب إليه الوزير بن مقلة بالقبض على بعض العمال ومصادرته، فأخذ منه عشرة آلاف دينار واستأثر بها على الوزير، فلما نكب ابن مقلة كتب المقتدر بخطه إلى الحاجب أحمد بن نصر القشوري بالقبض على أولاد البريدي، وأن لا يطلقهم إلا بكتابه، فقبض عليهم وجاء أبو عبد اللّه بكتاب المقتدر بخطه بإطلاقهم وظهر تزويره فأحضرهم إلى بغداد وصودروا على أربعمائة ألف دينار فأعطوها.

الصوائف أيام المقتدر

سار مؤنس المظفر سنة ست وتسعين في العساكر من بغداد إلى الفرات، ودخل من ناحية ملطية ومعه أبو الأغر السلمي، فظفر وغنم وأسر جماعة. وفي سنة سبع وتسعين بعث المقتدر أبا القاسم بن سيما لغزو الصائفة سنة ثمان وتسعين. وفي سنة تسع وتسعين غزا بالصائفة رستم أميرالثغور، ودخل من ناحية طرسوس ومعه دميانة، وحاصر حصن مليح الأرمني ففتحه وأحرقه. وفي سنة ثلاثمائة مات إسكندروس بن لاور ملك الروم، وملك بعده ابنه قسطنطين ابن اثنتي عشرة سنة. وفي سنة اثنتين وثلثمائة سار علي بن عيسى الوزير في ألف فارس لغزو الصائفة مدداً لبسر الخادم عامل طرسوس، ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف، فدخلوا شاتية في كَلَب البرد وشدته، غنموا وسبوا.

وفي سنة اثنتين وثلثمائة غزا بسر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين. وكان السبي نحواً من ألفي رأس. وفي سنة ثلاث وثلثمائة أغارت الروم على ثغور الجزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا أهله بتشاغل عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مؤنس، حتى قبض عليه كما مر. وفي هذه السنة خرج الروم إلى ناحية طرسوس والفرات فقاتلوا وقتلوا نحواً من ستمائة فارس، وجاء مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في نواحيها، ولم يكن للمسلمين في هذه السنة صائفة.

وفي سنة أربع بعدها سار مؤنس المظفر بالصائفة ومر بالموصل فقلد سبكا المفلحي باريدي وقردي من أعمال الفرات، وقلد عثمان العبودي مدينة بلد وسنجار ووصيفاً البكتمري باقي بلاد ربيعة، وسار إلى ملطية فدخل منها وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام أن يدخل من طرسوس في أهلها، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة وغنم وسبى ورجع إلى بغداد فأكرمه المعتضد وخلع عليه. وفي سنة خمس وثلثمائة وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر في المهادنة والفداء، فتلقيا بالإكرام وجلس لهما الوزير في الأبهة، وصف الأجناد بالسلاح العظيم الشأن والزينة

الكاملة، فأديا إليه الرسالة وأدخلهما من الغد على المقتدر وقد احتفل في الأبهة ما شاء، فأجابهما إلى ما طلب ملكهم. وبعث مؤنساً الخادم للفداء، وجعله أميراً على بلد يدخله إلى أن ينصرف. وأطلق الأرزاق الواسعة لمن سار معه من الجنود، وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار للفدية. وفيها غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وغزا وسير نمالي الخادم في الأسطول فغنم. وفي السنة بعدها غزا نمالي في البحر كذلك، وجنا الصفواني فظفر وفتح وعاد وغزا بشر الأفشين بلاد الروم، ففتح عدة حصون وغنم وسبى.

وفي سنة سبع غزا نمالي في البحر فلقي مراكب المهدي صاحب أفريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم، وأسر خادماً للمهدي. وفي سنة عشرة وثلثمائة غزا محمد بن نصر الحاجب من الموصل على قالیقلا، فأصاب من الروم، وسار أهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وعادوا. وفي سنة إحدى عشرة غزا مؤنس المظفر بلاد الروم فغنم وفتح حصوناً، وغزا نمالي في البحر فغنم ألف رأس من السبي وثمانية آلاف من الظهر ومائة ألف من الغنم وشيئاً كثيراً من الذهب والفضة.

وفي سنة اثني عشرة جاء رسول ملك الروم بالهدايا ومعه أبو عمر بن عبد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفداء، فأجيبا إلى ذلك. ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ورجعوا. وفي سنة أربع عشرة خرجت الروم إلى ملطية ونواحيها من الدمستق ومليح الأرمني صاحب الدروب وحاصروا ملطية وهربوا إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا. وغزا أهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا.

وفي سنة خمس عشرة دخلت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فأوقع بهم الروم وقتلوا أربعمائة رجل صبراً، وجاء الدمستق في عساكر من الروم إلى مدينة دبيل، وبها نصر السبكي فحاصرها وضيق مخنقها واشتد في قتالها حتى نقب سورها، ودخل الروم إليها ودفعهم المسلمون فأخرجوهم وقتلوا منهم بعد أن غنموا ما لا يحصى وعاثوا في أنعامهم، فغنموا من الغنم ثلاثمائة ألف رأس فأكلوها. وكان رجل من رؤساء الأكراد يعرف بالضحاك في حصن له يعرف بالجعبري فتنصر وخدم ملك الروم، فلقيه المسلمون في سنة الغزاة فأسروه وقتلوا من معه. وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحاً، وجعل الصليب في جامعها، ورحل إلى تدنيس ففعل بها كذلك، وهرب أهل أردن إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا.

وفيها ظهر أهل ملطية على سبعمائة رجل من الروم والأرمن، دخلوا بلدهم خفية وقدمهم مليح الأرمني ليكونوا لهم عوناً إذا حاصروها، فقاتلهم أهل ملطية عن آخرهم. وفي سنة سبع عشرة بعث أهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وآمد وأرزا يستمدون المقتدر في العساكر وإلا فيعطوا الأتاوة للروم فلم يمدهم، فصالحوا الروم وملكوا البلاد. وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم. وفي سنة عشرين غزا نمالي بلاد الروم من طرسوس ولقي الروم فهزمهم وقتل منهم ثلاثمائة وأسر ثلاثة آلاف، وغنم من الفضة والذهب شيئاً كثيراً وعاد بالصائفة في سنته في حشد كثير، وبلغ عمورية فهرب عنها من كان تجمع إليها من الروم، ودخلها المسلمون فوجدوا من الأمتعة والأطعمة كثيراً، فغنموا وأحرقوا وتوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويكتسحون ويخربون حتى بلغوا انكمورية التي مصرها أهده وعادوا سالمين. وبلغت قيمة السبي مائة ألف وستة وثلاثين ألف دينار.

وفي هذه السنة راسل ابن الريداني وغيره من الأرمن في نواحي أرمينية وحثوا الروم على قصد بلاد الإسلام فساروا وخربوا نواحي خلاط وقتلوا وأسروا فسار إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي الساج من أذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة، فأثخن في بلاد الروم حتى يقال إن القتلى بلغوا مائة ألف، وخرب بلاد ابن الرايدني ومن وافقه، وقتل ونهب. ثم جاءت الروم إلى سميساط فحصروها وأمدهم سعيد بن حمدان، وكان المقتدر ولاه الموصل وديار ربيعة على أن يسترجع ملطية من الروم. فلما جاء رسول أهل سميساط إليهم فأجفل الروم عنها فسار إلى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الأرمني صاحب الثغور الرومية، وبُني ابن قيس صاحب المقتدر الذي تنصر. فلما أحسوا بإقبال سعيد هربوا وتركوها خشية أن يثب بهم أهلها وملكها سعيد فاستخلف عليها وعاد إلى الموصل.

الولايات على النواحي أيام المقتدر

كان بأصبهان عبد الله بن إبراهيم المسمعي عاملاً عليها، خالف لأول ولاية المقتدر وجمع من الأكراد عشرة آلاف، وأمر المقتدر بدراً الحمامي عامل أصبهان بالمسير إليه. فسار إليه في خمسة آلاف من الجند وأرسل من يخوفه عاقبة المعصية، فراجع الطاعة وسار إلى بغداد واستخلف على أصبهان. وكان على اليمن المظفر بن هاج. ففتح ما كان غلب عليه الحارثي باليمن وأخذ الحاتمي من أصحابه. وكان على الموصل أبو الهيجاء بن حمدان، وسار أخوه الحسين بن حمدان وأوقع بأعراب كلب وطيئ، وأسر سنة أربع

وتسعين. ثم سار إلى الأكراد المتغلبين على نواحي الموصل سنة خمس وتسعين فاستباحهم وهربوا إلى رؤوس الجبال. وخرج بالحاج في سنة أربع وتسعين رصيف بن سوارتكين فحصره أعراب وطيئ بالقتال وأوقعهم فهزمهم، ومضى إلى وجهه. ثم أوقع بهم هنالك الحسن بن موسى فأثخن فيهم.

وكان على فارس سنة ست وتسعين اليشكري غلام عمرو بن الليث، فلما تغلب وكان على الثغور الشامية أحمد بن كيغلغ في سنة سبع وتسعين ملك الليث فارس من يد اليشكري، ثم جاءه مؤنس فغلبه وأسره ورجع اليشكري إلى عمله كما مر في خبره. وفي سنة ست وتسعين وصل ناسر موسى بن سامان وقلد ديار ربيعة وقد مر ذكره. وفيها رجع الحسين بن حمدان من الخلاف وعقد له على قم وقاشان، فسار إليها ونزل عنها العباس بن عمر الغنوي.

وفي سنة سبع وتسعين توفي عيسى النوشري عامل مصر وولى المقتدر مكانه تكين الخادم. وفي سنة ثمان وتسعين توفي منيح خادم الأفشين وهو عامل فارس وكان معه محمد بن جعفر الفريابي فمانا معاً. وولى على فارس عبد الله بن إبراهيم المسمعي وأضيفت إليه كرمان وفيها وليت أم موسى الهاشمية قهرمة دار المقتدر وكانت تؤدي الرسائل عن المقتدر وأمه إلى الوزراء وعن الوزراء إليهما.

وفي سنة تسع وتسعين كان على البصرة محمد بن إسحاق بن كنداج وجاء إليه القرامطة فقاتلهم فهربوا. وفي سنة ثلاثمائة عزل إبراهيم بن عبد الله المسمعي عن فارس وكرمان ونقل إليها بدر الحمامي عامل أصبهان، وولى على أصبهان علي بن وهشودان وفيها ولى بشير الأفشين طرسوس وفيها قلد أبو العباس بن المقتدر مصر والمغرب وهو ابن أربع سنين، واستخلف له على مصر مؤنس المظفر وقلد معين الطولوني المعونة بالموصل، ثم عزل واستعمل مكانه نحرير الصغير. وفيها خالف أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بالموصل فسار إليه مؤنس وجاء به على الأمان، ثم قلد الموصل سنة اثنتين وثلثمائة فاستخلف عليها وهو ببغداد. ثم خالف أخوه الحسين سنة ثلاثمائة وسار إليه مؤنس وجاء به أسيراً فحبس وقبض المقتدر على أبي الهيجاء وإخوته جميعاً فحبسوا. وفيها ولى الحسين بن محمد بن عينونة عامل الخراج والضياع بديار ربيعة بعد وفاة أبيه محمد بن أبي بكر. وفي سنة أربع عزل علي بن وهشودان صاحب الحرب بأصبهان بمنافرة وقعت بينه وبين أحمد بن شاه صاحب الخراج، وولى مكانه أحمد بن مسرور البلخي. وأقام ابن وهشودان بنواحي الجبل. ثم تغلب يوسف بن أبي الساج عليها كما مر. وسار إليه مؤنس سنة سبع فهزمه وأسره، وولى على أصبهان وقم وقاشان وساوة أحمد بن علي بن صعلوك، وعلى الري ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان استدعاه من الجبل فولاه، ووثب به عمه أحمد بن مسافر صاحب الكرم فقتله بقزوين. فاستعمل مكانه على الحرب وصيفاً البكتمري، وعلى الخراج محمد بن سليمان.

ثم سار أحمد بن صعلوك إليها فقتل محمد بن سليمان وطرد وصيفاً. ثم قاطع على الأعمال بمال معلوم كما مر. وكان على أعمال سجستان كثير بن أحمد مقهور متغلباً عليها، فسار إليه أبو الحمامي عامل فارس، فخافه كثيراً وقاطع على البلاد وعقد له عليها. وكان على كرمان سنة أربع وثلثمائة أبو زيد خالد بن محمد المارداني، فانتقض وسار إلى شيراز فقاتله بدر الحمامي وقتله. وفي هذه السنة قتل مؤنس المظفر عند مسيره إلى الصائفة وانتهائه إلى الموصل، فولوا على بلد باريدى وقردى سبكاً المفلحي وعلى مدينة بلد وسنجار وباكري عثمان العبودي صاحب الحرب بديار مصر، فولى مكانه وصيف البكتمري فعجز عن القيام بها، فعزل وولى مكانه جنا الصفواني. وكان على البصرة في هذه السنة الحسن بن الخليل، تولاها منذ سنين ووقعت فتن بينه وبين العامة في مضر وربيعة، واتصلت وقتل منهم خلق. ثم اضطروه إلى الالتحاق بواسط فاستعمل عليها أبا دلف هاشم بن محمد الخزاعي، ثم عزل لسنة وولى سبكاً المفلحي نيابة عن شفيع المقتدري.

وفي سنة ست وثلثمائة عزل عن الشرطة نزار وجعل فيها نجيح الطولوني، فأقام في الأرباع فقهاء يعمل أهل الشرطة بفتواهم، فضعفت الهيبة بذلك، وكثر اللصوص والعيارون، وكبست دور التجار واختطفت ثياب الناس. وفي سنة سبع وثلثمائة ولي إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة، وولي بُني بن قيس بلاد شهرزور، واتسعت عليه فاستمد المقتدر وحاصرها. ثم قلد الحرب بالموصل وأعمالها، وكان على الموصل قبله محمد بن إسحاق بن كنداج، وكان قد سار لإصلاح البلاد فوقعت فتنة بالموصل فرجع إليها فمنعوه الدخول فحاصرهم. وعزله المقتدر سنة ثلاث وثلثمائة وولى مكانه عبد الله بن محمد الغساني.

وفي سنة ثمان وثلثمائة ولى المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على طريق خراسان والدينور، وفيها ولى على دقوقا وعكبرا وطريق الموصل بدراً الشرابي. وفي سنة تسع ولى المقتدر على حرب الموصل ومعونتها محمد بن نصر الحاجب، فسار إليها وأوقع بالمخالفين من الأكراد المادرانية. وفيها ولى داود بن حمدان على

ديار ربيعة. وفي سنة عشر عقد ليوسف بن أبي الساج على الري وقزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان على تقدير العلوية كما مر. وفيها قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة لأنها كانت كثيرة المال، وزوجت بنت أختها من بعض وُلْد المتوكل، كان مرشحاً للخلافة، وكان محسناً فلما صاهرته أوسعت في الشوار واليسار والعرس، وسعى بها إلى المقتدر انها استخلصت القواد فقبض عليها وصادرها على أموال عظيمة وجواهر نفيسة. وفيها قتل خليفة نصر بن محمد الحاجب بالموصل، قتله العامة فجهز العساكر من بغداد، وسار إليها.

وفي سنة إحدى عشرة ملك يوسف بن أبي الساج الري من يد أحمد بن علي صعلوك، وقتله المقتدر وقد مر خبره. وفيها ولى المقتدر بُني بن قيس على حرب أصبهان، وولى محمد بن بدر المعتضدي على فارس مكان ابنه بدر عندما هلك. وفي سنة اثنتي عشرة ولى على أصبهان يحيى الطولوني، وعلى المعاون والحرب بنهاوند سعيد بن حمدان. وفيها توفي محمد بن نصر الحاجب صاحب الموصل وتوفي شفيع اللؤلؤي صاحب البريد، فولى مكانه شفيع المقتدري.

وفي سنة ثلاث عشرة فتح إبراهيم المسمعي عامل فارس ناحية القفص من حدود كرمان، وأسر منهم خمسة آلاف، وكان في هذه السنة ولى على الموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وابنه ناصر الدولة خليفة فيها، فأفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان وكانت إليه، فكتب إليه ابنه ناصر الدولة سنة أربع عشرة بالانحدار إلى تكريت للقائه، فجاءه في الحشد وأوقع بالعرب والأكراد الخلالية وحسم علتهم. وفيها قلد المقتدر يوسف بن أبي الساج أعمال الشرق وعزل عن أذربيجان وولاه واسط، وأمده بالسير إليها لحرب القرامطة وأقطعه همذان وساوة وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان للنفقة في الحرب، وجعل على الري من أعماله نصر بن سامان، فوليها وصار من عماله كما مر.

وفيها ولى أعمال الجزيرة والضياع بالموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وأضيف إليه باريدى وقردى وما إليهما. وفيها قتل ابن أبي الساج كما مر. وفي سنة خمس عشرة مات إبراهيم المسمعي بالنوبندجان، وولى المقتدر على مكانه ياقوت، وعلى كرمان أبا طاهر محمد بن عبد الصمد. وفي سنة ست عشرة عزل أحمد بن نصر القسوري عن حجبة الخليفة ووليها ياقوت وهو على الحرب بفارس واستخلف عليها ابنه أبا الفتح المظفر. وفيها ولى على الموصل وأعمالها يونس المؤنسي، وكان على الحرب بالموصل ابن عبد الله بن حمدان، وهو ناصر الدولة فغضب وعاد إلى الخلافة. وقتل في تلك الفتنة نازوك، وأقر على أعمال قردى وباريدى التي كانت بيد أبي الهيجاء ابنه ناصر الدولة الحسن، وعلى أعمال الموصل نحريراً الصغير.

ثم ولى عليها سعيداً ونصراً ابني حمدان، وهما أخوا أبي الهيجاء. وولى ناصر الدولة على ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين وميافارقين من ديار بكر وأرزن على مقاطعة معلومة. وفي سنة ثمان عشرة صرف ابنا رائق عن الشرطة، ووليها أبو بكر محمد بن ياقوت عن الحجبة وقلد أعمال فارس وكرمان. وقلد ابنه المظفر أصبهان وابنه أبا بكر محمداً سجستان وجعل مكان ياقوت وولده في الحجبة والشرطة إبراهيم ومحمد ابنا رائق، فأقام ياقوت بشيراز وكان علي بن خلف بن طيان على الخوارج، فتعاقدا على قطع الحمل عن المقتدر إلى أن ملك علي بن بويه بلاد فارس سنة ثلاث وعشرين. وفي هذه السنة غلب مرداويج على أصبهان وهمذان والري وحلوان، وقاطع عليها بمال معلوم وصارت في ولايته.

استيحاش مؤنس من المقتدر ومسيره إلى الموصل

كان الحسين بن القاسم بن عبد الله بن وهب وزيراً للمقتدر، وكان مؤنس منحرفاً عنه قبل الوزارة حتى أصلح بليق حاله عند مؤنس، فوزر واختص به بنو البريدي وابن الفرات. ثم بلغ مؤنساً أن الحسين قد واطأ جماعة من القواد في التدبير عليه، فتنكر له مؤنس وضاقت الدنيا على الحسين وبلغه أن مؤنساً يكبسه، فانتقل إلى دار الخلافة وكتب الحسين إلى هارون بن غريب الخال يستقدمه، وكان مقيماً بدير العاقول بعد انهزامه من مرداويج، كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه من الأهواز فاستوحش مؤنس. ثم جمع الحسين الرجال والغلمان الحجرية في دار الخلافة، وأنفق فيهم فعظمت نفرة مؤنس، وقدم هارون من الأهواز فخرج مؤنس مغاضباً للمقتدر وقصد الموصل، وكتب الحسين إلى القواد الذين معه بالرجوع فرجع منهم جماعة، وسار مؤنس في أصحابه ومواليه ومعه من الساجية ثمانمائة من رجالهم، وتقدم الوزير بقبض أملاكه وأملاك من معه وأقطاعهم فحصل منه مال كثير، واغتبط المقتدر به لذلك ولقبه عميد الدولة ورسم اسمه في السكة وأطلق يده في الولاية والعزل، فولى على البصرة وأعمالها أبا يوسف يعقوب بن محمد البريدي على مبلغ ضمنه،

وكتب إلى سعيد وداود ابني حمدان وابن أخيهما ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بمحاربة مؤنس، فاجتمعوا على حربه إلا داود فإنه توقف لإحسان مؤنس إليه وتربيته إياه.

ثم غلبوا عليه فوافقهم على حربه، وجمع مؤنس في طريقه رؤوساء العرب وأوهمهم أن الخليفة ولاه الموصل وديار ربيعة، فنفر معه بعضهم واجتمع له من العسكر ثمانمائة وزحف إليه بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فهزمهم وملك مؤنس الموصل في صفر من سنة عشرين، وجاءته العساكر من بغداد والشام ومصر رغبة في إحسانه. وعاد ناصر الدولة بن حمدان إلى خدمته وأقام معه بالموصل ولحق سعد ببغداد.

مقتل المقتدر وبيعة القاهر

ولما ملك مؤنس الموصل أقام بها تسعة واجتمعت العساكر فإنحدر إلى بغداد لقتال المقتدر، وبعث المقتدر الجنود مع أبي محمد بن ياقوت وسعيد بن حمدان، فرجع عنهم العسكر إلى بغداد ورجعوا وجاء مؤنس فنزل بباب الشماسية والقواد قبالته، وندب المقتدر ابن خاله هارون بن غريب إلى الخوارج لقتاله، فاعتذر ثم خرج، وطالبوا المقتدر بالمال لنفقات الجند فاعتذر وأراد أن ينحدر إلى واسط ويستدعي العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان، فرده ابن ياقوت عن ذلك وأخرجه للحرب وبين يديه الفقهاء والقواد والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس يحدقون به، فانهزم أصحابه ولقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس، فعظمه وأشار عليه بالرجوع ولحقه قوم من المغاربة والبربر فقتلوه وحملوا رأسه وتركوه بالعراء، فدفن هنالك. ويقال إن علي بن بليق أشار إليهم بقتله. ولما رأى مؤنس ذلك ندم وسقط في يده وقال: والله لنقتلن جميعاً، وتقدم إلى الشماسية وبعث من يحتاط على دار الخلافة وكان ذلك لخمس وعشرين سنة من خلافة المقتدر.

فاتسع الخرق وطمع أهل القاصية في الاستبداد وكان مهملاً لأمور خلافته محكّماً للنساء والخدم في دولته مبذراً لأمواله. ولما قتل لحق ابنه عبد الواحد بالمدائن ومعه هارون بن غريب الحال ومحمد بن ياقوت وإبراهيم بن رائق. ثم اعتزم مؤنس على البيعة لولده أبي العباس وكان صغيراً، فعزله وزيره أبو يعقوب إسماعيل النوبختي في ولاية صغير في حجر أمه وأشار بأخيه أبي منصور محمد بن المعتضد، فأجاب مؤنس إلى ذلك على كره، وأحضروه وبويع آخر شوال من سنة عشرين، ولقبوه القاهر بالله. واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق وابنه علي، واستقدم أبا علي بن مقلة من فارس فاستوزره، واستحجب علي بن بليق. ثم قبض على أم المقتدر وضربها على الأموال فحلفت فأمرها بحمل أوقافها فامتنعت، فأحضر هو القضاة وأشهد بحمل أوقافها ووكل في بيعها، فاشتراها الجند من أرزاقهم، وصادر جميع حاشية المقتدر، واشتد في البحث عن ولده وكبس عليهم المنازل إلى أن ظفر بأبي العباس الراضي وجماعة من إخوته وصادرهم وسلمهم علي بن بليق إلى كاتبه الحسين بن هارون، فأحسن صحبتهم وقبض الوزير ابن مقلة على البريدي وإخوته وأصحابه وصادرهم على جملة من المال.

خبر ابن المقتدر وأصحابه

قد ذكرنا أن عبد الواحد بن المقتدر لحق بعد مقتل أبيه بالمدائن، ومعه هارون بن غريب الحال ومفلح ومحمد بن ياقوت وابنا رائق. ثم انحدروا منها إلى واسط وأقاموا بها، وخشيهم القاهر على أمره واستأمن هارون بن غريب على أن يبذل ثلاثمائة ألف دينار وتطلق له أملاكه، فأمنه القاهر ومؤنس وكتب له بذلك وعقد له على أعمال ماه الكوفة وماسبذان ومهروبان، وسار إلى بغداد وسار عبد الواحد بن المقتدر فيمن معه من واسط، ثم إلى السوس وسوق الأهواز، وطردوا العمال وجبوا الأموال.

وبعث مؤنس إليهم بليقاً في العساكر وبذل أبو عبد الله البريدي في ولاية الأهواز خمسين ألف دينار فأنفقت في العساكر. وسار معهم وانتهوا إلى واسط ثم إلى السوس، فجاز عبد الواحد ومن معه من الأهواز إلى تستر، ثم فارقه جميع القواد واستأمنوا إلى بليق إلا ابن ياقوت ومفلحاً ومسروراً الخادم، وكان محمد بن ياقوت مستبداً على جميعهم في الأموال والتصرف، فنفروا لذلك واستأمنوا لأنفسهم ولابن المقتدر إلى بليق، فأمنهم بعد أن استأمنوا محمد بن ياقوت وأذن لهم، ثم استأمن هو على بليق إلى أمان القاهر ومؤنس، وساروا إلى بغداد جميعهم فوفى لهم القاهر وأطلق لعبد الواحد أملاكه وترك لأمه المصادرة التي صادرها، واستولى أبو عبد الله البريدي على أعمال فارس وأعاد إخوته إلى أعمالهم.

مقتل مؤنس وبليق وابنه

لما رجع محمد بن ياقوت من الأهواز واستخلصه القاهر واختصه لخلواته وشوراه، وكانت بينه وبين الوزير ابن علي بن مقلة عداوة، فاستوحش لذلك ودس إلى مؤنس أن محمد بن ياقوت يسعى به عند القاهر، وأن عيسى الطبيب سفيره في ذلك،

فبعث مؤنس علي بن بليق لإحضار عيسى، وتقدم علي بن بليق بالاحتياط على القاهر، فوكل به أحمد بن زيرك وضيق على القاهر وكشف وجوه النساء المختلفات إلى القصر خشية إيصالهم الرقاع إلى القاهر حتى كشفت أواني الطعام، ونقل بليق المحابيس من دار الخلافة إلى داره وفيهم أم المقتدر فأكرمها علي بن بليق وأنزلها عند أمه فماتت في جمادى من سنة إحدى وعشرين. وعلم القاهر أن ذلك من مؤنس وابن مقلة فشرع في التدبير عليهم وكان طريف السيكمري ونشرى من خدم مؤنس قد استوحشا مؤنس لتقدم بليق وابنه عليهما. وكان اعتماد مؤنس على الساجية وقد جاؤوا معه من الموصل ولم يوف لهم فاستوحشوا لذلك، فداخلهم القاهر جميعاً وأغراهم بمؤنس وبليق، وبعث إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وكان مختصاً بابن مقلة وصاحب رأيه! فوعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار. وشعر ابن مقلة بذلك فأبلغوا إلى مؤنس وبليق، وأجمعوا على خلع القاهر، واتفق بليق وابنه علي وابن مقلة والحسن بن هارون على البيعة لأبي أحمد بن المكتفي فبايعوه، وحلفوا له وأطلعوا مؤنساً على ذلك، فأشار بالمهل وتأنيس القاهر حتى يعوفوا من واطأه من القواد والساجية والحجرية فأبوا وهونوا عليه الأمر في إستعجال خلعه فأذن لهم، فأشاعوا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة، وندبوا علي بن بليق للمسير إليه ليدخل للوداع ويقبض على القاهر وابن مقلة كان نائماً فلما استيقظ أعاد الكتاب إلى القاهر فاستراب. ثم جاءه طريف السيكري غلام مؤنس في زي امرأة مستنصحاً، فأحضره وأطلعه على تدبيرهم وبيعتهم لأبي أحمد بن المكتفي فأخذ القاهر حذره، وأكمن الساجية في دهاليز القصر وممراته، وجاء علي بن بليق في خف من أصحابه، واستأذن فلم يؤذن له، وكان ذا خمار فغضب وأفحش في القول فأخرج الساجية في السلاح وشتموه وردوه، وفر عنه أصحابه وألقى بنفسه في الطيار وعبر إلى الجانب الغربي.

واختفى الوزير ابن مقلة والحسن بن هارون، وركب طريف إلى دار القاهر، فأنكر بليق ما جرى لابنه وشتم الساجية وقال: لابد أن أستعدي الخليفة عليهم، وجاء إلى القاهر ومعه قواد مؤنس، فلم يأذن له وقبض عليه وحبسه، وعلى أحمد بن زيرك صاحب الشرطة، وجاء العسكر منكرين لذلك فاسترضاهم ووعدهم بالزيارة وبإطلاق هؤلاء المحبوسين فافترقوا، وبعث إلى مؤنس بالحضور عنده ليطالعه برأيه فأبى فعزله، وولى طريف السيكري مكانه وأعطاه خاتمه وقال: قد فوضت إلى ابني عبد الصمد ما كان المقتدر فوضه إلى ابنه محمد، وقلدتك خلافته ورياسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال كما كان مؤنس وأمض إليه وأحمله إلى دار الخلافة مرفهاً عليه لئلا يجتمع إليه أهل الشر ويفسد ما بيننا وبينه، فسار طريف إلى مؤنس وأخبره بأمان القاهر له ولأصحابه، وحمله على الحضور عنده وهون عليه أمره، وأن القاهر لا يقدر على مكروهة.

فركب وحضر فقبض عليه القاهر وحبسه قبل أن يراه، وندم طريف على ما فعل واستوحش. واستوزر القاهر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، ووكل بدور مؤنس وبليق وابنه علي وابن مقلة وابن زيرك وابن هارون ونقل ما فيها، وأحرقت دار ابن مقلة وجاء محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، فتنكر له طريف السيكري والساجية فاختفى ولحق بابنه بفارس، وكتب إليه القاهر بالعتب على ذلك وولاه الأهواز، وكان الذي دعا طريفاً السيكري إلى الانحراف عن مؤنس وبليق أن مؤنساً رفع رتبة بليق وابنه عليه بعد أن كانا يخدمانه، فأهملا جانبه. ثم اعتزم بليق على أن يوليه مصر وفاوض في ذلك الوزير ابن مقلة، فوافق عليه. ثم أراد علي بن بليق عمل مصر لنفسه، ومنع من إرسال طريف فتربص بهم. وأما الساجية فكانوا مع مؤنس بالموصل وكان يعدهم ويمنيهم. ولما ولي القاهر واستبد بأمره لم يف لهم. وكان من أعيانهم الخادم صندل، وكان له بدار القاهر خادم اسمه مؤتمن باعه واتصل بالقاهر قبل الخلافة، فلما شرع في التدبير على مؤنس وبليق بعث مؤنساً هذا إلى صندل يمت إليه تقديمه ويدخله في أمر القاهر وإزالة الحجر عنه. فقصد إلى صندل وزوجته وتلطف ووصف القاهر بما شاء من محاسن الأخلاق، وحمل زوجته على الدخول إلى دار القاهر حتى شافهها بما أراد إبلاغه إلى صندل، وداخل صندل في ذلك سيما من قواد الساجية، واتفقوا على مداخلة طريف السيكرى في ذلك لعلمهم باستيحاشه من مؤنس، فأجابهم على شريطة الإبقاء على مؤنس وبليق وابنه، وأن لا يزال مؤنس من مرتبته وتحالفوا على ذلك من الجانبين.

وطلب طريف عهد القاهر بخطه، فكتب وزاد فيه أنه يصلي بالناس ويخطب لهم ويحج بهم ويغزو معهم ويتتبع لكشف المظالم وغير ذلك من حسن السيرة، وكان جماعة من الحجرية قد أبعدهم ابن بليق وأدال منهم بأصحابه، فداخلهم طريف في أمر القاهر فأجابوه، ونمي الخبر بذلك إلى ابن مقلة وإلى بليق، وأرادوا القبض على قواد الساجية والحجرية. ثم خشوا الفتنة ودبروا على القاهر فلم يصلوا إليه لاحتجابه عنهم بالمرض. فوضعوا أخبار القرامطة كما قدمناه.

ولما قبض القاهر على مؤنس ولى الحجابة سلامة الطولوني.

وعلى الشرطة أحمد بن خاقان، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله مكان ابن مقلة، وأمر بالنداء على المتسترين والوعيد لمن أخفى، وطلب أبا أحمد بن المكتفي فظفر به، وبنى عليه حائطاً فمات. ثم ظفر بعلي فقتله. ثم شغب الجند في شعبان ومعهم أصحاب مؤنس، وثاروا ونادوا بشعاره، وطلبوا إطلاقه وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر. فعمد القاهر إلى بليق في محبسه وأمر به فذبح وحمل الرأسين إلى مؤنس، فلما رآهما مؤنس استرجع ولعن قاتلهما فأمر به فذبح وطيف بالرؤوس. ثم أودعت بالخزانة. وقيل: إن قتل علي بن بليق تأخر عن قتل أبيه ومؤنس لأنه كان مختفياً، فلما ظفر به بعدهما قتله. ثم بعث القاهر إلى أبي يعقوب إسحاق بن إسماعيل اليوصحي فأخذ من محبس الوزير محمد بن القاسم وحبسه، وارتاب الناس من شدة القاهر، وندم الساجية والحجرية على مداخلته في ذلك الأمر. ثم قبض القاهر على وزيره أبي جعفر وأولاده وأخيه عبيد الله وخدمة لثلاثة أشهر ونصف من ولايته، ومات لثمان عشرة ليلة من حبسه، واستوزر مكانه أبا العباس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الحصيبي. ثم استبد القاهر على طريف السيكري واستخف به، فخافه وتنكر. ثم أحضره بعد أن قبض على الوزير أبي جعفر فقبض عليه وأودعه السجن إلى أن خلع القاهر.

ابتداء دولة بني بويه

كان أبوهم أبو شجاع بوية من رجالات الديلم، وكان له أولاد علي والحسن وأحمد، فعلي أبو الحسن عماد الدولة، والحسن أبو علي ركن الدولة، وأحمد أبو الحسن معز الدولة. ونسبهم ابن ماكولا في الساسانية إلى بهرامجور بن يزدجرد، وابن مسكوية إلى يزدجرد بن شهريار، وهو نسب مدخول، لأن الرياسة على قوم لا تكون في غير أهل بلدهم كما ذكرنا في مقدمة الكتاب.

ولما أسلم الديلم على يد الأطروش وملك بهم طبرستان وجرجان، وكان من قواده ماكان بن كالي وليلى بن النعمان وأسفار بن شيروية ومرداويج بن وزيار، وكانوا ملوكاً عظاماً وازدحموا في طبرستان، فساروا لملك الأرض عند اختلاط الدولة العباسية وضعفها، وقصدوا الاستيلاء على الأعمال والأطراف. وكان بنو بويه من جملة قواد ماكان بن كالي فلما وقع بينه وبين مرداويج من الفتنة والخلاف ما تقدم، وغلبه مرداويج على طبرستان وجرجان عادوا إلى مرداويخ لتخف عنه مؤنتهم على أن يرجعوا إليه إذا صلح أمره، فساروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم، واستأمن إليه جماعة ومن قواد ماكان فقتلهم وأولادهم. وولى علي بن بويه على الكرج، وكان أكبر إخوته. وسار جميعهم إلى الري وعليها وشمكير بن وزيار أخو مرداويج ومعه وزيره الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فاتصل به علي بن بويه وأهدى إليه بغلة كانت عنده ومتاعاً، وندم مرداويج على ولاية هؤلاء المستأمنة من قواد ماكان، فكتب إلى أخيه وشمكير بالقبض على الباقين، وأراد أن يبعث في أثر علي بن بويه فخشي الفتنة وتركه.

ولما وصل علي بن بويه إلى الكرج استقام أمره وفتح قلاعاً للخرمية ظفر منها بذخائر كثيرة، واستمال الرجال وعظم أمره، وأحبه الناس، ومرداويج يومئذ بطبرستان. ثم عاد إلى الري وأطلق مالاً لجماعة من القواد على الكرج فوصلوا إلى علي بن بوية فأحسن إليهم واستمالهم، وبعث إليهم مرداويج فدافعه فندم على إطلاقهم، وبعث فيهم مرداويج أمراء الكرج فاستأمن إليه شيرزاد من أعيان قواد الديلم. فقويت نفسه وسار إلى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت على الحرب في عشرة آلاف مقاتل، أبو علي بن رستم على الخوارج، فأرسل علي بن بويه يستعطفهما في الانحياز إلى طاعة الخليفة وخدمته، والمسير إلى الحضرة فلم يجيباه. وكان أبو علي أشد كراهة له فمات تلك الأيام.

وسار ابن ياقوت ثلاثة فراسخ عن أصبهان، وكان في أصحابه حسل وديلم، واستأمنوا إلى ابن بويه، ثم اقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى علي بن بويه على أصبهان، وهو عماد الدولة، وكان عسكره نحواً من تسعمائة، وعسكر ابن ياقوت نحواً من عشرة آلاف. وبلغ ذلك القاهر فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده، وبعث إلى عماد الدولة يخادعه يطلب الطاعة منه ليطمئن للرسالة، ويخالفه أخوه وشمكير في العساكر. وشعر ابن بويه بذلك فرحل عن أصبهان وقصد أرّجان وبها أبو بكر بن ياقوت، فانهزم أبو بكر من غير قتال ولحق برامهرمز. واستولى ابن بويه على أرجان وخالفه وشمكير أخو مرداويج إلى أصبهان فملكها، وأرسل القاهر إلى مرداويج بأن يسلم أصبهان لمحمد بن ياقوت ففعل. وكتب أبو طالب يستدعيه ويهون عليه أمر ابن ياقوت ويغريه به، فخشي ابن بويه من كثرة عساكر ياقوت وأمواله، وأن يحصل بينه وبين ابنه تأهبات فتوقف، فأعدى عليه أبو طالب وأراه أن مرداويج طلب الصلح من ابن ياقوت وخوفه اجتماعهما عليه. فسار ابن بويه إلى أرجان في ربيع سنة إحدى وعشرين ولقيتهم هنالك مقدمة ابن ياقوت فانهزمت، فزحف ابن ياقوت إليهم وبعث عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى

كازرون وغيرها من أعمال فارس، فجبى أموالها ولقي عسكر ابن ياقوت هنالك فهزمهم ورجع إلى أخيه، وخشي عماد الدولة من اتفاق مرداويج مع ابن ياقوت فسار إلى أصطخر، واتبعه ابن ياقوت وشيعه إلى قنطرة بطريق كرمان اضطروا إلى الحرب عليها. فتزاحفوا هنالك واستأمن بعض قواده إلى ابن ياقوت فقتلهم، فاستأمن أصحابه وانهزم ابن ياقوت واتبعه ابن بويه واستباح معسكره، وذلك في جمادى سنة اثنتين وعشرين.

وأبلى أخوه معز الدولة أحمد في ذلك اليوم بلاء حسناً، ولحق ابن ياقوت بواسط، وسار عماد الدولة إلى شيراز فملكها وأمن الناس واستولى على بلاد فارس، وطلب الجند أرزاقهم فعجز عنها وعثر على صناديق من مخلف ابن ياقوت وذخائر بني الصفار فيها خمسمائة ألف دينار فامتلأت خزائنه وثبت ملكه. واستقر ابن ياقوت بواسط وكاتبه أبو عبد الله اليزيدي حتى قتل مرداويج. عاد إلى الأهواز ووصل عسكر مكرم، وكانت عساكر ابن بويه سبقته فالتقوا بنواحي أرجان وانهزم ابن ياقوت فأرسل أبو عبد الله اليزيدي في الصلح فأجابه ابن بويه، واستقر ابن ياقوت بالأهواز ومعه ابن اليزيدي وابن بويه ببلاد فارس. ثم زحف مرداويج إلى الأهواز وملكها من يد ابن ياقوت، ورجع إلى واسط وكتب إلى الراضي. وكان بعد القاهر كما نذكره، وإلى وزيره أبي علي بن مقلة بالطاعة والمقاطعة فيما بيده من البلاد بأعمال فارس على ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك وبعث إليه باللواء والخلع وعظم شأنه في فارس وبلغ مرداويج شأنه فخاف غائلته، وكان أخوه وشمكير قد رجع إلى أصبهان بعد خلع القاهر وصرف محمد بن ياقوت عنها، فسار إليها مرداويج للتدبير على عماد الدولة وبعث أخاه وشمكير على الري وأعمالها.

خلع القاهر وبيعة الراضي

ولما قتل القاهر مؤنساً وأصحابه أقام يتطلب الوزير أبا علي بن مقلة والحسن بن هارون وهما مستتران، وكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويغريانهم بالقاهر، فإنهم غرّوه كما فعل بأصحابه قبلهم. وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ويراسلهم ويجيء إليهم متنكراً ويغريهم، ووضعوا على سيما أن منجماً أخبره أنه ينكب القاهر ويقتله، ودسوا إلى معبر كان عنده أموالاً على أن يحذره من القاهر، فنفر واستوحش، وحفر القاهر مطامير في داره، فقيل لسيما والقواد: إنما صنعت لكم فازدادوا نفرة. وكان سيما رئيس الساجية فارتاب بالقاهر وجمع أصحابه وأعطاهم السلاح، وبعث إلى الحجرية فجمعهم عنده وتحالفوا على خلع القاهر، وزحفوا إلى الدور وهجموا عليه فقام من النوم ووجد الأبواب مشحونة بالرجال فهرب إلى السطح، ودلهم عليه خادم فجاؤوه واستدعوه للنزول فأبى فتهددوه بالرشق بالسهام فنزل وجاؤوا به إلى محبس طريف السيكري فحبسوه مكانه وأطلقوه حتى سمل بعد ذلك، وذلك لسنة ونصف من خلافته.

وهرّب الحصيبي وزيره وسلامة حاجبه. وقد قيل في خلعه غير هذا وهو: أن القاهر لما تمكن من الخلافة اشتد على الساجية والحجرية واستهان بهم، فتشاكوا ثم خافه حاجبه سلامة لأنه كان يطالبه بالأموال ووزيره الحصيبي كذلك، وحفر المطامير في داره فارتابوا به كما ذكرنا. وأسر جماعة من القرامطة فحبسهم بتلك المطامير وأراد أن يستظهر بهم على الحجرية والساجية فتنكروا ذلك وقالوا فيه للوزير وللحاجب، فأخرجهم من الدار وسلمهم لمحمد بن ياقوت صاحب الشرطة وأوصاه إليهم فازداد الساجية والحجرية ريبة. ثم تنكر لهم القاهر وصار يعلن بذمهم وكراهتهم فاجتمعوا لخلعه كما ذكرنا.

ولما قبض القاهر بحثوا عن أبي العباس بن المقتدر وكان محبوساً مع أمه، فأخرجوه وبايعوه في جمادى سنة اثنتين وعشرين، وبايعه القواد والناس، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وصدر عن رأيهما، وأراد علي بن عيسى على الوزارة فامتنع واعتذر بالنكير، وأشار بابن مقلة فأمنه واستوزره. وبعث القضاة إلى القاهر ليخلع نفسه فأبى فسمل وأمن ابن مقلة الحصيبي وولاه وولى الفضل بن جعفر بن الفرات نائباً عنه عن أعمال الموصل وقردى وباريدى وماردين وديار الجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزرية والشامية وأجناد الشام وديار مصر يعزل ويولي من يراه في الخراج والمعادن والنفقات والبريد وغير ذلك.

وولى الراضي على الشرطة بدراً الحمامي وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه، وكان قد استولى على الأهواز ودفع عنها ابن ياقوت من تلك الولاية إلى السوس وجنديسابور، وقد ولى على أصبهان وهو يروم المسير إليها. فلما ولي الراضي استدعاه للحجابة فسار إلى واسط، وطلب محمد بن ياقوت الحجابة فأجيب إليها فسار في أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر فسار من واسط مسبقاً لابن ياقوت بالمدائن توقيع الراضي بالحرب، والمعادن في واسط مضافاً إلى ما بيده من البصرة والمعادن، فعاد منحدراً في دجلة ولقيه ابن ياقوت مصعداً ودخل بغداد وولى الحجبة وصارت إليه رياسة الجيش ونظر في أمر الدواوين وأمرهم بحضور مجلسه، وأن لا ينفذوا توقيعاً في ولاية أو عزل أو إطلاق إلا بخطه، وصار

نظر الوزير في الحقيقة له وابن مقلة مكابر مجلسه مع جملتهم ومتميز عنهم في الإيثار والمجلس فقط.

مقتل هارون

كان هارون بن غريب الحال على ماه الكوفة والدينور وماسبذان سائر الأعمال التي ولاها القاهر إياه، فلما خلع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحق بالدولة من غيره لأنه ابن خال المقتدر، فكاتب القواد ووعدهم وسار من الدينور إلى خانقين وشكا ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية إلى الراضي فأذن لهم في منعه، فراسلوه أولا بالممانعة. والزيادة على ما في يده من الأعمال، فلم يلتفت إليهم وشرع في الجباية فقويت شوكته، فسار إليه محمد بن ياقوت في العساكر وهرب عنه بعض أصحابه إلى هارون، وكتب إلى هارون يستميله فلم يجب، وقال: لابد من دخول بغداد. ثم تزاحفوا لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فانهزم أولاً أصحاب ابن ياقوت ونهب سوادهم وسار محمد حتى قطع قنطرة تبريز، وسار هارون منفرداً لاعتراضه، فدخل في بعض المياه وسقط عن فرسه، ولحقه غلام لمحمد بن ياقوت فقطع رأسه وانهزم أصحابه وقتل قواده وأسر بعضهم ورجع ابن ياقوت إلى بغداد ظافراً.

نكبة ابن ياقوت

قد ذكرنا أنه نظر في أمر الدواوين وصير ابن مقلة كالعاطل، فسعى به عند القاضي وأوهمه خلافه حتى أجمع القبض عليه في جمادى سنة ثلاث وعشرين، فجلس الخليفة على عادته وحضر الوزير وسائر الناس على طبقاتهم يريد تقليد جماعة من القواد للأعمال. واستدعى ابن ياقوت للخدمة في الحجبة على عادته، فبادر وعذل به إلى حجرة فحبس فيها وخُمّار. وبعث الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النهب وأطلق يده في أمور الدولة واستبد بها وكان ياقوت مقيماً بواسط، فلما بلغه القبض على ابنه انحدار إلى فارس لمحاربة ابن بويه، وكتب يستعطف الراضي ويسأله إبقاء ابنه ليساعده على شأنه. ولم يزل محمد محبوساً إلى أن هلك سنة أربع عشرة في محبسه.

خبر البريدي

كان أبو عبد الله البريدي أيام ابن ياقوت ضامناً للأهواز، فلما استولى عليها مرداويج وانهزم ابن ياقوت كما مر رجع البريدي إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل الأهواز مع كنانة ياقوت. ثم سار إلى ياقوت فأقام معه بواسط، فلما قبض على ابن ياقوت وكتب ابن مقلة إليه وإلى ياقوت يعتذر عن قبض ابن ياقوت ويأمرهما بالمسير لفتح فارس، فسار ياقوت على السوس والبريدي على طريق الماء حتى انتهيا إلى الأهواز. وكان إلى أخويه أبي الحسن وأبي يوسف ضمان السوس وجنديسابور، وادعيا أن دَخْل البلاد أخذه مرداويج. وبعث ابن مقلة ثانياً لتحقق ذلك، فوافاهم وكتب بصدقهم، فاستولى ابن البريدي ما بين ذلك على أربعة آلاف ألف دينار، ثم أشار أبو عبد الله بن علي بن ياقوت بالمسير لفتح فارس، وأقام هو لجباية الأموال فحصل منها بغيته. وسار ياقوت فلقيه ابن بويه على أرجان فهزمه وسار إلى عسكر مكرم. واتبعه ابن بويه إلى رامهرمز وأقام بها إلى أن اصطلحا.

مقتل ياقوت

قد تقدم لنا انهزام ياقوت من فارس أمام عماد الدولة ابن بويه إلى عسكر مكرم واستيلاء ابن بويه على فارس. وكان أبو عبد الله البريدي بالأهواز ضامناً كما تقدم. وكان مع ذلك كاتباً لياقوت، وكان ياقوت يستنيم إليه ويثق به، وكان مغفلاً ضعيف السياسة فخادعه أبو عبد الله البريدي وأشار عليه بالمقام بعسكر مكرم وأن يبعث إليه بعض جنده الواصلين من بغداد تخفيفاً للمؤنة وتحذيراً من شغبهم. وبعث إليه أخاه بذلك أبا يوسف ودفع له من مال الأهواز خمسين ألف دينار. ثم قطع عنه فضاق الحال عليه وعلى جنده، وكان قد نزع إليه من أصحاب ابن بويه طاهر الحمل وكاتبه أبو جعفر الصهيري، ثم انصرف عنه لضيق حاله إلى غربي تستر ليتغلب على ماه البصرة، فكبسه ابن بويه وغنم معسكره وأسر الصهيري فشفع فيه وزيره وأطلقه، فلحق بكرمان واتصل بعد ذلك بمعز الدولة ابن بويه واستكتبه.

ولما انصرف طاهر عن ياقوت كتب إلى البريدي يشكو ضعفه واستطالة أصحابه، فأشار عليه بإرسالهم إلى الأهواز متعرفين لقومهم. فلما وصلوا إليه انتقى خيارهم ورد الباقين، وأحسن إلى من عنده. وبعث ياقوت إليه في طلب المعز فلم يبعث إليه، فجاءه بنفسه فتلقاه وترجل إليه وقبل يده، وأنزله بداره وقام في خدمته أحسن مقام، ووضع الجند على الباب يشغبون ويرومون قتله، فأشار إليه بالنجاة، فعاد إلى عسكر مكرم فكتب إليه يحذره اتباعهم، وإن عسكر مكرم على ثمانية فراسخ من

الأهواز، وأرى أن تتأخر بتستر فتتحصن بها. وكتب له على عامل تستر بخمسين ألف دينار، وعذله خادمه مؤنس في شأن ابن البريدي وأراه خديعته وأشار إليه باللحاق ببغداد، وأنه شيخ الحجرية، وقد كاتبوك فسر إلى رياسة بغداد وإلا فتعاجل إلى البريدي وتخرجه عن الأهواز، فصم عن نصيحته وأبى من قبول السعاية فيه، وتسايل أصحابه إلى ابن البريدي حتى لم يبق معه إلا نحو الثمانمائة.

وجاءه ابنه المظفر ناجياً من حبس الراضي بعد أسبوع، فأطلقه وبعثه إلى أبيه فأشار عليه بالمسير إلى بغداد، فإن حصل على ما يريد وإلا فإلى الموصل وديار ربيعة ويتملكها فأبى عليه أبوه ففارقه إلى ابن البريدي فأكرمه ووكل به. ثم حذر ابن البريدي غائلة ياقوت فبعث إليه بأن الخليفة أمره بإزعاجه من البلاد إما إلى بغداد وإما إلى بلاد الجبل ليوليه بعض أعمالها، فكتب يستمهله فأبى من المهلة وبعث العساكر من الأهواز. وسار ياقوت إلى عسكر مكرم ليكبس ابن البريدي هنالك فصبح البلد ولم يجده، وجاءت عساكر ابن البريدي مع قائد أبي جعفر الجمال، فقاتله من أمامه وأكمن آخرين من خلفه فانهزم وافترق أصحابه، وحسا إلى حائط متنكراً فمر به قوم ابن البريدي فكشفوا وجهه وعرفوه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر فدفنه الجمال وبعث البريدي إلى تستر فحمل ما كان لياقوت هنالك، وقبض على ابنه المظفر وبعثه إلى بغداد واستبد بتلك الأعمال وذلك سنة أربع وعشرين.

مسير ابن مقلة إلى الموصل واستقرارها لابن حمدان

كان ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان عاملاً على الموصل فجاء عمه أبو العلاء سعيد فضمن الموصل وديار ربيعة سراً وسار إليها فظهر أنه في طلب المال من ابن أخيه. وشعر ناصر الدولة بذلك فخرج لتلقيه، فخالفه إلى بيته فبعث من قبله واهتم الراضي بذلك وأمر الوزير أبا علي بن مقلة بالمسير إلى الموصل فسار في العساكر من شعبان سنة ثلاث وعشرين، فرحل عنها ناصر الدولة ودخل الزوران واتبعه الوزير إلى حمل السن. ثم عاد عنها إلى الموصل وأقام في جبايتها وبعث ناصر الدولة إلى بغداد بعشرة آلاف دينار لابن الوزير ليستحث أباه في القدوم، فكتب إليه بما أزعجه، فسار من الموصل واستخلف عليها علي بن خلف بن طياب وماترد الديلمي من الساجية. ودخل بغداد منتصف شوال، وجمع ناصر الدولة ولقي ماترد الديلمي على نصيبين إلى الرقة وانحدر منها إلى بغداد ولحقه ابن طياب، واستولى ناصر الدولة حمدان على الموصل وكتب في الرضا وضمان البلاد فأجيب وتعذرت عليه.

نكبة ابن مقلة وخبر الوزارة

كان الوزير بن مقلة قد بعث سنة ثلاث وعشرين إلى محمد بن رائق بواسط يطالبه بارتفاع أعمال واسط والبصرة، وكان قد قطع الجبل. فلما جاءه كتاب ابن مقلة، كتب إليه جوابه يغالطه وكتب إلى الرضي بالسعي في الوزارة، وأنه يقوم بنفقات الدار وأرزاق الجند، فجهز الوزير ابنه سنة أربع وعشرين لقصده ووري بالأهواز، وأنفذ رسوله إلى ابن رائق بهذه التورية يؤنسه بها، وباكر القصر لإنفاذ الرسول فقبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وكان المظفر قد أطلق من محبسه وأعيد إلى الحجبة، فاستحسن الراضي فعلهم، واختفى أبو الحسين ابن الوزير وسائر أولاده وحرمه وأصحابه، وأشار إلى الحجرية والساجية بوزارة علي بن عيسى فامتنع وسار بأخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضي وصادر ابن مقلة. ثم عجز عن تمشية الأمور وضاقت عليه الجباية فاستعفى من الوزارة، فقبض عليه الراضي وعلى أخيه على ثلاثة أشهر من وزارته، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي فصادر علي بن عيسى على مائة ألف دينار، ثم عجز عن الوزارة وضاقت الأموال وانقطعت، وطمع أهل الأعمال فيما بأيديهم، فقطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع ابن البريدي حمل الأهواز وأعمالها، وانقطع حمل فارس لغلب ابن بويه عليها، ولم يبق غير هذه الأعمال ونطاق الدولة قد تضايق إلى الغاية وأهل الدولة مستبدون على الخلافة والأحوال متلاشية، فتحير أبو جعفر وكثرت عليه المطالبات وذهبت هيبته، فاختفى لثلاثة أشهر ونصف من وزارته واستوزر الراضي مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن، فكان حاله مثل حال من قبله في قلة المال ووقوف الحال.

استيلاء ابن رائق على الخليفة

ولما رأى الراضي وقوف الحال من الوزراء استدعى أبا بكر محمد بن رائق من واسط وكاتبه بأنه قد أجابه إلى ما عرض من السعي في الوزارة على القيام بالنفقات وأرزاق الجند، فسر ابن رائق بذلك وشرع يتجهز للمسير. ثم أنفذ إليه الراضي الساجية وقلده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وفوض إليه الخراج والدواوين والمعادن في جميع البلاد، وأمر بالخطبة له على المنابر،

والمحدر إليه أرباب الدواوين والكتاب والحجاب. ولما جاءه الساجية قبض عليهم بواسط في ذي الحجة من سنة أربع وعشرين، ونهب رجالهم ودوابهم ومتاعهم ليوفر أرزاقهم على الحجرية، فاستوحشوا لذلك وخيموا بدار الخلافة، وأصعد ابن رائق إلى بغداد وفوض الخليفة إليه أمرهم. وأمر الحجرية بتقويض خيامهم والرجوع إلى منازلهم، وأبطل الدواوين وصير النظر إليه، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور.

وبقي ابن رائق وكتابه ينظرون في جميع الأمور فبطلت الدواوين وبيوت الأموال من يومئذ وصارت لأمير الأمراء، والأموال تحمل إلى خزانته، ويتصرف فيها كما يريد، ويطلب من الخليفة ما يريد. وتغلب أصحاب الأطراف وزال عنهم الطاعة. ولم يبق للخليفة إلا بغداد وأعمالها وابن رائق مستبد عليه. وأما باقي الأعمال فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان والأهواز في يد ابن البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد علي بن الياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة ابن بويه، وشمكير أخو مرداويج ينازعه في هذه الأعمال، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد حمدان، ومصر والشام في يد ابن طغج، والمغرب وأفريقية في يد العبيديين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن الناصر من ولد عبد الرحمن الداخل وما وراء النهر في يد بني سامان، وطبرستان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي الطاهر القرمطي، ولم يبق لنا من الأخبار إلا ما يتعلق بالخلافة فقط في نطاقها المتضايق أخيراً، وإن كانت مغلبة وهي أخبار ابن رائق والبريدي، وأما غير ذلك من الأعمال التي اقتطعت كما ذكرناه، فنذكر أخبارها منفردة ونسوق المستبدين دولاً كما شرطناه أول الكتاب. ثم كتب ابن رائق عن الراضي إلى أبي الفضل بن جعفر بن الفرات وكان على الخراج بمصر والشام، وظن أنه بوزارته تكون له تلك الجباية، فوصل إلى بغداد وولي وزارة الراضي وابن رائق جميعاً.

وصول يحكم مع ابن رائق

كان يحكم هذا من جملة مرداويج قائد الديلم ببلاد الجبل، وكان قبله في جملة ماكان بن كالي ومن مواليه، وهبه له وزيره أبو علي الفارض، ثم فارق ماكان مع من فارقه إلى مرداويج. وكان مرداويج قد ملك الري وأصبهان والأهواز، وضخم ملكه وصنع كراسي من ذهب وفضة للجلوس عليها هو وقواده، ووضع على رأسه تاجاً تظنه تاج كسرى. و أمر أن يخاطب بشاهنشاه واعتزم على قصد العراق والاستيلاء عليه، وتجديد قصور كسرى بالمدائن. وكان في خدمته جماعة من الترك ومنهم يحكم. فأساء ملكهم وعسكرهم فقتلوه سنة ثلاث وعشرين بظاهر أصبهان كما نذكره في أخبارهم. واجتمع الديلم والجبل بعده على أخيه وشمكير بن زيار وهو والد قابوس، ولما قتل مرداويج إفترق الأتراك فرقتين ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، والأخرى وهي الأكثر سارت نحو الجبل عند يحكم، فجبوا خراج الدينور وغيرها. ثم ساروا إلى النهروان وكاتبوا الراضي في المسير إليه، فأذن لهم وارتاب الحجرية بهم، فأمرهم الوزير بالرجوع إلى بلد الجبل فغضبوا واستدعاهم ابن رائق صاحب واسط والبصرة فمضوا إليه وقدم عليهم يحكم وكان الأتراك والديلم من أصحاب مرداويج فجاءته جماعة منهم فأحسن إليهم وإلى يحكم وسماه الرائقي نسبة إليه وأذن له أن يكتبه في مخاطباته.

مسير الراضي وابن رائق لحرب ابن البريدي

ثم اعتزم ابن رائق سنة خمس وعشرين على الراضي في المسير إلى واسط لطلب ابن البريدي في المال ليكون أقرب لمناجزته، فانحدر في شهر محرم وارتاب الحجرية بفعله مع الساجية، فتخلفوا ثم تبعوه فاعترضهم وأسقط أكثرهم من الديوان، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ولجأ فلهم إلى بغداد، فأوقع بهم لؤلؤ صاحب الشرطة ونهبت دروهم وقطعت أرزاقهم وقبضت أملاكهم، وقتل ابن رائق من كان في حبسه من الساجية، وسار هو والراضي نحو الأهواز لإجلاء ابن البريدي منها. وقدم إليه في طلب الاستقامة وتوعده فجدد ضمان الأهواز بألف دينار في كل شهر، ويحمل في كل يوم قسطه. وأجابه إلى تسليم الجيش لمن يسير إلى قتال ابن بويه لنفرتهم عن بغداد. وعرض ذلك على الراضي، فأشار الحسين بن علي القونجي وزير ابن رائق بأن لا تقبل لأنه خداع ومكر وأشار أبو بكر بن مقاتل بإجابته، وعقد الضمان على ابن البريدي، وعاد ابن رائق والراضي إلى بغداد فدخلاها أول صفر، ولم يف ابن البريدي بحمل المال، وأنفذ ابن رائق جعفر بن ورقاء ليسير بالجيش إلى فارس، ودس إليهم ابن البريدي أن يطلبوا منه المال ليتجهزوا به فاعتذر، فشتموه وتهددوه بالقتل. وأتى ابن البريدي فأشار عليه بالنجاء.

ثم سعى ابن مقاتل لابن البريدي في وزارة ابن رائق عوضاً عن الحسين القونجي وبذل عنه ثلاثين ألف دينار، فاعتذر له

بسوابق القوني عنده وسعيه له، وكان مريضاً فقال له ابن مقاتل: إنه هالك، فقال ابن رائق: قد أعلمني الطبيب أنه ناقه، فقال: الطبيب يراجيك فيه لقربة منك، ولكن سل ابن أخيه علي بن حمدان. وكان القوني قد استناب ابن أخيه في مرضه، فأشار عليه ابن مقاتل أن يعرف الأمير إذا بمهلكة، وأشار عليه أن يستوزره. فلما سأله ابن رائق أيأسه منه؟ فقال ابن رائق عند ذلك لابن مقاتل: أكتب لابن البريدي يرسل من ينوب عنه في الوزارة، فبعث أحمد بن الكوني واستولى مع مقاتل على ابن رائق، وسعوا لابن البريدي أبي يوسف في ضمان البصرة.

وكان عامل البصرة من قبل ابن رائق محمد بن يزداد وكان شديد الظلم والعسف بهم، فخادعه ابن البريدي وأنفذ أبو عبد الله مولاه إقبالاً في ألفي رجل، وأقاموا في حصن مهدي قريباً. فعلم ابن يزداد أنه يروم التغلب على البصرة، وأقاموا على ذلك وأقام ابن رائق شأن هذا العسكر في حصن مهدي. وبلغه أيضاً أنه استخدم الحجريين الذين أذن لهم في الانسياح في الأرض، وأنهم اتفقوا مع عسكره على قطع الحمل، وكاتبه بطردهم عنه فلم يفعل. فأمر ابن الكوني أن يكتب إلى ابن البريدي بالكتاب على ذلك. ويأمر بإعادة العسكر من حصن مهدي، فأجاب بإعدادهم للقرامطة وابن يزداد عاجز عن الحماية.

وكان القرامطة قد وصلوا إلى الكوفة في ربيع الآخر وخرج ابن رائق في العساكر إلى حصن ابن هبيرة ولم يستقر بينهم أمر. وعاد القرمطي إلى بلده وسار ابن رائق إلى واسط. فكتب ابن البريدي إلى عسكره بحصن مهدي أن يدخلوا البصرة ويملكوها من ابن يزداد، وأمدهم جماعة من الحجرية فقصدوا البصرة وقاتلوا ابن يزداد فهزموه، ولحق بالكوفة، وملك إقبال مولى ابن البريدي وأصحابه البصرة، وكتب ابن رائق إلى البريدي يتهدده ويأمره بإخراج أصحابه من البصرة فلم يفعل.

استيلاء يحكم على الأهواز

ولما امتنع ابن البريدي من الإفراج عن البصرة بعث ابن رائق العساكر مع بدر الحريشي ويحكم مولاه، وأمرهم بالمقام بالجامدة فتقدم يحكم عن بدر وسار إلى السوس، وجاءته عساكر البريدي مع غلامه محمد الجمال في ثلاثة آلاف ومع يحكم مائتان وسبعون من الترك، فهزمهم يحكم ورجع محمد بن الجمال إلى ابن البريدي فعاقبه على انهزامه، وحشد له العسكر فسار في ستة آلاف ولقيهم يحكم عند نهر تستر فانهزموا من غير قتال، وركب ابن البريدي السفن ومعه ثلاثمائة ألف دينار ففرق أصحابه وماله ونجا إلى البصرة، وأقام بالأبلّة وبعث غلامه إقبالاً فلقي جماعة من أصحاب ابن رائق فهزمهم، وبعث ابن رائق مع جماعة من أهل البصرة يستعطفه فأبى، فطلبوا البصرة فحلف ليحرقنها ويقتل كل من فيها، فرجعوا مستبصرين في قتاله.

وأقام ابن البريدي بالبصرة، واستولى يحكم على الأهواز ثم بعث ابن رائق جيشه في البحر والبر فانهزم عسكر البر واستولى عسكر الماء على الكلأ، فهرب ابن البريدي في السفن إلى جزيرة أوال، وترك أخاه أبا الحسين في عسكر بالبصرة فدفع عسكر ابن رائق عن الكلأ فسار ابن رائق من واسط، واستولى يحكم على الأهواز، وقاتلوا البصرة فامتنعت عليهم، وسار أبو عبد الله بن البريدي من أوال إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، فأطعمه في العراق وبعث معه أخاه معز الدولة إلى الأهواز فسير إليها ابن رائق مولاه يحكم على أن يكون له الحرب والخراج، وأقام ابن البريدي على البصرة وزحفت إليه عساكرهم فأعجلوه عن تقويض خيامه فأحرقها وسار إلى الأهواز مجرداً، وسبقته عساكره إلى واسط وأقام عند يحكم أياماً وأشير عليه بحبسه فلم يفعل ورجع ابن رائق إلى واسط.

استيلاء معز الدولة على الأهواز

لما سار أبو عبد الله بن البريدي من جزيرة أوال إلى عماد الدولة ابن بويه بفارس مستجيراً به من ابن رائق ويحكم ومستنجداً عليهم، طمع عماد الدولة في الاستيلاء على العراق. فسير معه أخاه معز الدولة أحمد بن بويه في العسكر، ورهن ابن البريدي عنده ولديه أبا الحسين محمداً وأبا جعفر الفياض. وسار يحكم للقائهم فلقيهم بأرجان فانهزم أمامهم وعاد إلى الأهواز، وخلف جيشاً بعسكر مكرم. فقاتلهم معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انفضوا ولحقوا بتستر، وملك معز الدولة عسكر مكرم وذلك سنة ست وعشرين وسار يحكم من الأهواز إلى تستر، وبلغ الخبر إلى ابن رائق بواسط، فسار إلى بغداد وجاء يحكم من تستر إلى واسط. ولما استولى معز الدولة وابن البريدي على عسكر مكرم، ولقيهم أهل الأهواز وسار معهم إليها فأقاموا شهراً. ثم طلب معز الدولة من ابن البريدي عسكره الذي في البصرة ليسير بهم إلى أخيه ركن الدولة بأصبهان لحرب وشمكير، فأحضر منهم أربعة آلاف. ثم طلب من عسكره الذين بحصن مهدي ليسير بهم في الماء إلى واسط فارتاب ابن البريدي وهرب إلى البصرة. وبعث إلى عسكرها الذين

ساروا إلى أصبهان وكانوا متوقفين بالسوس، فرجعوا إليه. ثم كتب إلى معز الدولة أن يفرج له عن الأهواز ليتمكن من الجباية والوفاء بها لأخيه عماد الدولة، وكان قد ضمن له الأهواز والبصرة بثمانية عشر ألف ألف درهم، فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم وأنفذ ابن البريدي عامله إلى الأهواز.

ثم بعث إلى معز الدولة بأن يتأخر إلى السوس فأبى، وعلم يحكم بمجالهم فبعث جيشاً استولوا على السوس وجنديسابور، وبقيت الأهواز بيد ابن البريدي ومعز الدولة بعسكر مكرم، وقد ضاقت أحوال جنده. ثم بعث إليه أخوه عماد الدولة بالمدد فسار إلى الأهواز وملكها. ورجع ابن البريدي إلى البصرة ويحكم في ذلك مقيم بواسط، وقد صرف همه إلى الاستيلاء على رتبة ابن رائق ببغداد. وقد أنفذ له ابن رائق علي بن خلف بن طياب ليسيروا إلى الأهواز ويخرجوا ابن بويه. ويكون يحكم على الحرب وابن خلف على الخراج، فلم يلتفت يحكم لذلك واستوزر علي بن خلف ويحكم في أحوال واسط. ولما رأى أبو الفتح الوزير ببغداد إدبار الأحوال أطمع ابن رائق في مصر والشام، وقال: أنا أجيبهما لك، وعقد بينه وبين ابن طغج صهراً. وسار أبو الفتح إلى الشام في ربيع الآخر وشعر ابن رائق بمحاولة يحكم عليه، فبعث إلى ابن البريدي بالاتفاق على أن يضمن ابن البريدي واسط بستمائة ألف، فنهض يحكم إلى ابن البريدي قبل ابن رائق وسار إلى البصرة، فبعث إليه ابن البريدي أبا جعفر الجمال في عشرة آلاف فهزمهم يحكم وارتاع ابن البريدي لذلك، ولم يكن قصد يحكم إلا الإلفة فقط، والتضرع لابن رائق، فبعث إليه بالمسالمة وأن يقلده واسط إذا تم أمره، فاتفقا على ذلك وصرف نظره إلى أمر بغداد.

وزارة ابن مقلة ونكبته

ولما انصرف أبو الفتح بن الفرات إلى الشام استوزره الراضي أبا علي بن مقلة على سنن من قبلة والأمر لابن رائق، وابن مقلة كالعارية. وكتب له في أمواله وأملاكه فلم يردها. فشرع في التدبير عليه، فكتب إلى ابن رائق بواسط ووشمكير بالري يطمع كلاً منهما في مكانه، وكتب الراضي يشير بالقبض على ابن رائق وأصحابه، واستدعى يحكم لمكانه وأنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار، فأطمعه الراضي على كره. فكتب هو إلى يحكم يستحثه وطلب من الراضي أن ينتقل إلى دار الخلافة حتى يتم الأمر فأذن له وحضر متنكراً آخر ليلة من رمضان سنة ست وعشرين، فأمر الراضي باعتقاله وأطلع ابن رائق من الغد على كتبه فشكر ذلك له ابن رائق، وأمر بابن مقلة في منتصف شوال فقطع ثم عولج، وبرئ وعاد إلى السعي في الوزارة والتظلم من ابن رائق والدعاء عليه، فأمر بقطع لسانه وحبسه إلى أن مات.

استيلاء يَحْكَم على بغداد

لم يزل يحكم يظهر التبعية لابن رائق ويكتب على أعلامه وتراسه يحكم الرائقي إلى أن وصلته كتب ابن مقلة بأن الراضي قلده إمره الأمراء، فطمع وكاشف ابن رائق ومحا نسبه إليه من أعلامه وسلاحه. وسار من واسط إلى بغداد في ذي القعدة سنة ست وعشرين. وكتب إليه الراضي بالرجوع فأبى، ووصل إلى نهر ديالي وأصاب ابن رائق في غربيه فانهزموا وعبروا النهر سبحاً. وسار ابن رائق إلى عَكْبرا، ودخل يحكم بغداد منتصف ذي القعدة ولقي الراضي من الغد، وولاه أمير الأمراء، وكتب عن الراضي إلى القواد الذين مع ابن رائق بالرجوع عنه فرجعوا، وعاد ابن رائق إلى بغداد فاختفى بها لسنة وأحد عشر شهراً من إمارته، ونزل يحكم بدار مؤنس واستقر ببغداد متحكماً في الدولة مستبداً على الخليفة.

دخول أذربيجان في طاعة وشمكير

كان من عمال وشمكير على أعمال الجبل السيكري بن مردى.

وحشة البساسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المجلبان صاحبي قريش بن بدران، وبعثهما إلى القائم سراً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانتقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهرتهم ومشاهرة حواشيهم وهمّ بهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار، وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه دبيس بن مزيد ممداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جمل، وشفع دبيس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

وصول الغزالي الدسكرة ونواحي بغداد

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباذ وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتنعت عليه فخرب ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

ظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام

وفي سنة سبع وعشرين وثلثمائة سار يحكم إلى الموصل وديار ربيعة بسبب أن ناصر الدولة بن حمدان أخر المال الذي عليه من ضمان البلاد، فأقام الراضي بتكريت وسار يحكم، ولقيه ناصر الدولة على ستة فراسخ من الموصل، فانهزم واتبعه يحكم إلى نصيبين ثم إلى آمد، وكتب إلى الراضي بالفتح. فسار من تكريت في الماء إلى الموصل، وفارقه جماعة من القرامطة كانوا في عسكره، وكان ابن رائق يكاتبهم من مكان اكتفائه، فلما وصلوا بغداد خرج ابن رائق إليهم واستولى، وطار الخبر الى الراضي فأصعد من الماء وسار إلى الموصل، وكتب إلى يحكم بذلك. فرجع عن نصيبين بعد أن استولى عليها.

وشرع أهل العسكر يتسللون إلى بغداد فأهمّ ذلك يحكم. ثم جاءت رسالة ابن حمدان في الصلح وتعجيل خمسمائة ألف درهم، فأجابوه وقرره ورجعوا إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد رسولاً عن ابن رائق في الصلح على أن يقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر وحران والرها وما جاورها جندي قنسرين والعواصم. فأجابه الراضي وقلده وسار إلى ولايته في ربيع الآخر. وكان يحكم قد استناب بعض قواد الأتراك على الأنبار واسمه بالبان، وطلب تقليد طريق الفرات فقلد وسار إلى الرحبة. ثم انتقض وعاد لابن رائق وعصى على يحكم، فسار إليه غازياً وكبسه بالرحبة على حين غفلة لخمسة أيام من مسيره، فظفر به وأدخله بغداد على جمل وحبسه وكان آخر العهد به.

وزارة ابن البريدي

قد تقدم لنا مسير الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات إلى الشام، ولما سار استناب بالحضرة عبد اللّه بن علي البصري، وكان يحكم قد قبض على وزيره خلف بن طباب، واستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فسعى في وزارة ابن البريدي ليحكم حتى تم ذلك. ثم ضمن ابن البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار كل سنة. ثم جاء الخبر بموت أبي الفتح بن الفرات بالرملة، فسعى أبو جعفر ابن شيرزاد في وزارة أبي عبد اللّه للخليفة، فعقد له الراضي بذلك واستخلف بالحضرة عبد اللّه بن علي البصري كما كان مع أبي الفتح.

مسير ركن الدولة إلى واسط ورجوعه عنها

لما استقر ابن البريدي بواسط بعث جيشاً إلى السوس وبها أبو جعفر الظهيري وزير معز الدولة أحمد بن بويه ومعز الدولة بالأهواز. فتحصن أبو جعفر بقلعة السوس، وعاث الجيش في نواحيها. وكتب معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة وهو على أصطخر قد جاء من أصبهان لما غلبه وشمكير عليها. فلما جاء كتاب أخيه معز الدولة سار محمد إلى السوس وقد رجع عنه جيش ابن البريدي. ثم سار إلى واسط يحاول ملكها فنزل في جانبها الشرقي، وابن البريدي في الجانب الغربي، واضطرب عسكر ابن بويه واستأمن جماعة منهم إلى ابن البريدي. ثم سار الراضي ويحكم من بغداد إلى واسط للإمداد، فرجع ركن الدولة إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز. وبلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لماكان بن كالي وأن أصبهان خالية، فسار إليها من رامهرمز وأخرج من بقي منها من أصحاب وشمكير وملكها فاستقر بها.

مسير يحكم إلى بلد الجبل وعوده إلى واسط واستيلاؤه عليها

كان يحكم قد أرسل ابن البريدي وصاهره واتفقا على أن يسير يحكم إلى بلاد الجبل لفتحها من يد وشمكير، وأبو عبد اللّه بن البريدي إلى الأهواز لأخذها من يد معز الدولة ابن بويه، فسار يحكم إلى حلوان وبعث إليه ابن البريدي بخمسمائة رجل مدداً. وبعث يحكم بعض أصحابه إلى ابن البريدي يستحثه إلى السوس والأهواز، فأقام يماطله ويدافعه ويبين له أنه يريد مخالفة يحكم إلى بغداد. فكتب إليه بذلك فرجع عن قصده إلى بغداد، وعزل ابن البريدي من الوزارة، وولى مكانه أبا القاسم بن سليمان بن الحسين بن مخلد وقبض على ابن شيرزاد الذي كان ساعياً له وتجهز إلى

واسط والخدر في الماء آخر ذي الحجة سنة ثمان وعشرين. وبعث عسكراً في البر، وبلغ الخبر ابن البريدي فسار عن واسط إلى البصرة واستولى عليها يحكم وملكها.

استيلاء ابن رائق على الشام

قد تقدم لنا مسير ابن رائق إلى ديار مضر وثغور قنسرين والعواصم فلما استقر بها حدثته نفسه بملك الشام فسار إلى حمص فملكها ثم سار إلى دمشق وبها بدر بن عبد اللّه الأخشيدي ويلقب بدير، فملكها من يده. ثم سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك الديار المصرية، ولقيه الأخشيذ محمد بن طغج وانهزم أولاً وملك أصحاب ابن رائق خيامه. ثم خرج كمين الأخشيذ فانهزم ابن رائق إلى دمشق وبعث الأخشيذ في أثره أخاه أبا نصر بن طغج، وسار إليهم ابن رائق من دمشق فهزمهم وقتل أبو نصر، فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الأخشيذ بمصر. وكتب يعزيه ويعتذر فأكرم الأخشيذ مزاحماً، واصطلح مع أبيه على أن تكون مصر للأخشيذ من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الأخشيذ عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

الصوائف أيام الراضي

وفي سنة اثنتين وعشرين سار الدمستق إلى سميساط في خمسين ألفاً من الروم، ونازل ملطية وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها بالأمان، وبعثهم إلى مأمنهم مع بطريق من بطارقته. وتنصر الكثير منهم محبة في أهليهم وأموالهم. ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأفحشوا في أسطوله في البحر. ففتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها، ثم مروا بقرقيسيا من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين، وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة على يد ابن ورقاء الشيباني البريدي ستة آلاف وثلثمائة أسير.

الولايات أيام الراضي والقاهر قبله

قد تقدم لنا أنه لم يبق من الأعمال في تصريف الخلافة لهذا العهد إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة، وذكرنا استيلاء بني بويه على فارس وأصبهان، ووشمكير على بلاد الجبل، وابن البريدي على البصرة، وابن رائق على واسط، وأن عماد الدولة ابن بويه على فارس، وركن الدولة أخوه يتنازع مع وشمكير على أصبهان وهمذان وقم وقاشان والكرج والري وقزوين. واستولى معز الدولة أخوهما على الأهواز وعلى كرمان واستولى ابن البريدي على واسط وسار ابن رائق إلى الشام فاستولى عليها. وفي سنة ثلاث وعشرين قلد الراضي ابنيه أبا جعفر وأبا الفضل ناحية المشرق والمغرب. وفي سنة إحدى وعشرين ورد الخبر بوفاة تكين الخاصكي بمصر وكان أميراً عليها، وولى القاهر مكانه ابنه محمداً وثار به الجند، فظفر بهم. وفيها وقعت الفتنة بين بني تغلب وبني أسد ومعهم طيء، وركب ناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان ومعه أبو الأعز بن سعيد بن حمدان ليصلح بينهم، فوقعت ملاحاة قتل فيها أبو الأعز على يد رجل من تغلب، فحمل عليهم ناصر الدولة واستباحهم إلى الحديثة. فلقيهم يانس غلام مؤنس والياً على الموصل، فانضم إليه بنو تغلب وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة. وفي سنة أربع وعشرين قلد الراضي محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام وعزل عنها أحمد بن كيغلغ.

وفاة الراضي وبيعة المتقي

وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة توفي الراضي أبو العباس أحمد بن المقتدر في ربيع الأول منها لسبع سنين غير شهر من خلافته. ولما مات أحضر يحكم ندماءه وجلساءه ليتفع بما عندهم من الحكمة فلم يفهم عنهم لعجمته. وكان آخر خليفة خطب على المنبر وإن خطب غيره فنادر. وآخر خليفة جالس السمر ووصل الندماء. ودولته آخر دول الخلفاء في ترتيب النفقات والجوائز والجرايات والمطابخ والخدم والحجاب، وكان يحكم يوم وفاته غائباً بواسط حين ملكها من يد ابن البريدي، فانتظر في الأمور وصول مراسمه، فورد كتابه مع كاتبه أبي عبد اللّه الكوفي يأمر فيه باجتماع الوزراء وأصحاب الدواوين والقضاة والعلويين والعباسيين ووجوه البلد عند الوزير أبي القاسم سليمان بن الحسن، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقه، فاجتمعوا وذكروا إبراهيم بن المقتدر، واتفقوا عليه وأحضروه من الغد وبايعوا له آخر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين. وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله وأقر سليمان على وزارته كما كان، والتدبير كله للكوفي كاتب يحكم، وولى سلامة الطولوني على الحجبة.

مقتل يحكم

كان أبو عبد اللّه البريدي بعد هربه إلى البصرة من واسط أنفذ جيشاً إلى المدار، فبعث إلى لقائهم جيشاً من واسط عليهم تورون انتخب له الكرد، فظفر بجيش ابن البريدي ولقي يحكم خبره في الطريق فسر بذلك، وذهب يتصيد فبلغ نهر جور، وعثر في طريقة ببعض الأكراد فشره لغزوهم، وقصدهم في خف من أصحابه وهربوا بين يديه وهو يرشقهم بسهامه، وجاءه غلام منهم من خلفه فطعنه فقتله. واختلف عسكره فمضى الديلم فكانوا ألفاً وخمسمائة إلى ابن البريدي، وقد كان عزم على الهرب من البصرة، فبعث وضاعف أرزاقهم وأدرها عليهم، وذهب الأتراك إلى واسط وأطلقوا بكتيك من حبسه وولوه عليهم، فسار بهم إلى بغداد في خدمة المتقي وحصر ما كان في دار يحكم من الأموال والدواوين فكانت ألف ألف ومائة ألف دينار ومدة إمارته ستتان وثمانية أشهر.

إمارة البريدي ببغداد وعوده إلى واسط

لما قتل يحكم قدم الديلم عليهم بكشوار بن ملك بن مسافر ومسافر هو ابن سلار وصاحب الطرم الذي ملك ولده بعده أذربيجان، وقاتلهم الأتراك فقتلوه، فقدم الديلم عليهم مكانه كورتكين منهم. وقدم الأتراك عليهم بكتيك مولى يحكم، وانحدر الديلم إلى أبي عبد اللّه بن البريدي فقوي بهم، وأصعدوا إلى واسط. وأرسل المتقي إليهم مائة وخمسين ألف دينار على أن يرجعوا عنها. ثم قسم في الأتراك في أجناد بغداد أربعمائة ألف دينار من مال يحكم. وقدم عليهم سلامة الطولوني وبرز بهم المتقي إلى نهر ديالي آخر شعبان سنة ست وعشرين. وسار ابن البريدي من واسط فأشفق أتراك يحكم، ولحق بعضهم بابن البريدي، وسار آخرون إلى الموصل منهم تورون وجحجح. واختفى سلامة الطولوني، وأبو عبد اللّه الطولوني، ودخل أبو عبد اللّه البريدي بغداد أول رمضان ونزل بالشفيعي ولقيه الوزير أبو الحسين بن ميمون والكتاب والقضاة وأعيان الناس، وبعث إليه المتقي بالتهنئة والطعام، وكان يخاطب بالوزير. ثم قبض على الوزير أبي الحسين لشهرين من وزارته وحبسه بالبصرة وطلب من المتقي خمسمائة ألف دينار للجند، وهدده بما وقع للمعتز والمستعين والمهتدي، فبعث بها إليه ولم يلقه مدة مقامه ببغداد. ولما وصله المال من المتقي شغب الجند عليه في طلبه وجاء الديلم إلى دار لأخيه أبي الحسين، ثم انضم إليهم الترك، وقصدوا دار أبي عبد اللّه، فقطع الجسر ووثب العامة على أصحابه، وهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابهم، وانحدروا إلى واسط وذلك سلخ رمضان لأربعة وعشرين يوماً من قدومه.

إمارة كورتكين الديلمي

ولما هرب ابن البريدي استولى كورتكين على الأمور ببغداد ودخل إلى المتقي فقلده إمارة الأمراء، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن فدبر الأمور ولم يسمهما بوزارة واستوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي القراريطي، وولي على الحجبة بدر الجواشيني. ثم قبض كورتكين على بكتيك مقدم الأتراك خامس شوال وغرقه، واقتتل الأتراك والديلم وقتل بينهما خلق، وانفراد كورتكين بالأمر وقبض على الوزير أبي إسحاق القراريطي لشهر ونصف من وزارته، وولى مكانه أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي.

عود ابن رائق إلى بغداد

قد تقدم لنا أن جماعة من أتراك يحكم لما انقضوا عن المتقي ساروا إلى الموصل، ثم ساروا منها إلى ابن رائق بالشام، وكان من قوادهم تورون وجحجح وكورتكين وصيقوان فأطمعوه في بغداد. ثم جاءته كتب المتقي يستدعيه، فسار آخر رمضان واستخلف بالشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل وتنحى ناصر الدولة بن حمدان على طريقه. ثم حمل إليه مائة ألف دينار وصالحه، وبلغ الخبر إلى أبي عبد اللّه بن البريدي، فبعث إخوته إلى واسط وأخرج الديلم عنها وخطبوا له بها. وخرج كورتكين عن بغداد إلى عكبرا فقاتله ابن رائق أياماً ثم أسرى له ليلة عرفة فأصبح ببغداد من الجانب الغربي ولقي الخليفة وركب معه في دجلة، ووصل كورتكين آخر النهار فركب ابن رائق لقتاله وهو مرجل، واعتزم على العود إلى الشام، ثم طائفة من عسكره ليعبروا دجلة ويأتوا من ورائهم، وصاحت العامة مع ابن رائق بكورتكين وأصحابه ورجموهم، فانهزموا واستأمن منهم نحو أربعمائة فقتلوا وقتل قواده، وخلع المتقي علي ابن رائق وولاه أمير الأمراء، وعزل الوزير أبا جعفر الكرخي لشهر من ولايته، وولى مكانه أحمد الكوفي وظفر بكورتكين فحبسه بدار الخلافة.

وزارة ابن البريدي واستيلاؤه على بغداد وفرار المتقي إلى الموصل

لما استقر ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد أخر ابن البريدي حمل المال من واسط، فانحدر إليه في العساكر في عاشوراء من سنة ثلاثين، وهرب بنو البريدي إلى البصرة. ثم سعى أبو عبد اللّه الكوفي بينهم وبين ابن رائق، وضمن واسط بستمائة ألف دينار وبقاياها بمائتي ألف. ورجع ابن رائق إلى بغداد فشغبت عليه الجند، وفيهم تورون وأصحابه. ثم انفضوا آخر ربيع إلى أبي عبد اللّه بواسط، فقوي بهم وذهب ابن رائق إلى مداراته، فكاتبه بالوزارة واستخلف عليها أبا عبد اللّه بن شيرزاد. ثم انتقض واعتزم على المسير إلى بغداد في جميع الأتراك والديلم. وعزم ابن رائق على التحصن بدار الخلافة، ونصب عليها المجانيق والعرادات، وجند العامة، فوقع الهرج، وخرج بالمتقي إلى نهر ديالي منتصف جمادى الآخرة. وأتاهم أبو الحسين في الماء والبر فهزمهم ودخل دار الخلافة، وهرب المتقي وابنه أبو منصور وابن رائق إلى الموصل لستة أشهر من إمارته.

واختفى الوزير القراريطي ونهبت دار الخليفة، ودور الحرم، وعظم الهرج، وأخذ كورتكين من محبسه فأنفذ إلى واسط، ولم يتعرضوا للقاهر. وكان نزل أبو الحسين بدار الخلافة وجعل تورون على الشرطة بالجانب الغربي، وأخذ رهائن القواد تورون وغيره وبعث بنسائهم وأولادهم إلى أخيه عبد اللّه بواسط. وعظم النهب ببغداد وترك الناس دورهم، وفرضت المكوس في الأسواق خمسة دنانير على الكر فغلت الأسعار، وانتهى إلى ثلثمائة دينار الكر، وجاءت ميرة من الكوفة وأخذت فقيل: إنها لعامل الكوفة، وأخذها عامل بغداد وكان معه جماعة من القرامطة فقاتلهم الأتراك وهزموهم، ووقعت الحرب بين العامة والديلم فقتل خلق من العامة، واختفى العمال لمطاولة الجند إلى الضواحي يتهبون الزرع بسنبلة عند حصاده، وساءت أحوال بغداد وكثرت نقمات اللّه فيهم.

مقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان مكانه

كان المتقي قد بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على ابن البريدي عندما قصد بغداد، فأمده بعسكر مع أخيه سيف الدولة، فلقيه بتكريت منهزماً ورجع معه إلى الموصل. وخرج ناصر الدولة عن الموصل حتى حلف له ابن رائق واتفقا، فجاء وتركه شرقي دجلة وعبر إليه أبو منصور بن المتقي وابن رائق فبالغ في تكرمتهما. فلما ركب ابن المتقي قال لابن رائق: أقم نتحدث في رأينا فذهبا إلى الاعتذار، وألح عليه ناصر الدولة فاستراب وجذب يده وقصد الركوب، فسقط فأمر ناصر الدولة بقتله وإلقائه في دجلة، وبعث إلى المتقي بالعذر وأحسن القول، وركب إليه فولاه أمير الأمراء ولقبه ناصر الدولة وذلك مستهل شعبان من سنة ثلاثين، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه بسيف الدولة، فلما قتل ابن رائق سار الأخشيذ من مصر إلى دمشق وبها محمد بن يزداد من قبل ابن رائق فاستأمن إليه وملك الأخشيذ دمشق وأقر ابن يزداد عليها ثم نقله إلى شرطة مصر.

عود المتقي إلى بغداد وفرار البريدي

لما استولى أبو الحسين البريدي على بغداد وأساء السيرة كما مر، وامتلأت القلوب منه نفرة، فلما قتل ابن رائق أخذ الجند في الفرار عنه والانتقاض عليه، ففر جحجح إلى المتقي واعتزم تورون وأنوش تكين والأتراك على كبس أبي الحسين البريدي. وزحف تورون لذلك في الديلم فخالفه أنوش تكين في الأتراك فذهب تورون إلى الموصل فقوي بهم ابن حمدان والمتقي وانحدروا إلى بغداد، وولى ابن حمدان على أعمال الخراج والضياع بديار مضر، وهي الرها وحران. ولقيا أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل فاقتتلوا وقتل ابن مقاتل واستولى ابن طباب عليها. ولما وصل المتقي وابن حمدان إلى بغداد هرب أبو الحسين ابن البريدي منها إلى واسط لثلاثة أشهر وعشرين يوماً من دخوله، واضطربت العامة وكثر النهب ودخل المتقي وابن حمدان في العساكر في شوال من السنة. وأعاد أبا إسحاق القراريطي إلى الوزارة، وولى تورون على الشرطة. ثم سار إليهم أبو الحسين البريدي، فخرج بنو حمدان للقائهم وانتهوا إلى المدائن، فأقام بها ناصر الدولة، وبعث أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان، فاقتتلوا عنده أياماً وانهزم سيف الدولة أولاً، ثم أمدهم ناصر الدولة بالقواد الذين كانوا معه وجحجح بالأتراك، وعاودوا القتال فانهزم أبو الحسين إلى واسط، وأقصر سيف الدولة عن إتباعه لما أصاب أصحابه من الوهن والجراح. وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة. ثم سار سيف الدولة إلى واسط وهرب بنو البريدي عنها إلى البصرة فملكها وأقام بها.

استيلاء الديلم على أذربيجان

كانت أذربيجان بيد ديسم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج، وكان أبوه من أصحاب هارون الشاري من الخوارج. ولما قتل هارون لحق بأذربيجان وشرد في الأكراد فولد له ديسم هذا فكبر وخدم ابن أبي الساج، وتقدم عنده إلى أن ملك بعدهم أذربيجان. وجاء السيكري خليفة وشمكير في الجبل سنة ست وعشرين وغلبه على أذربيجان. ثم سار هو إلى وشمكير وضمن له طاعة ومالاً، واستمده فأمده بعسكر من الديلم وساروا معه، فغلب السيكري وطرده وملك البلاد، وكان معظم جيشه الأكراد فتغلبوا على بعض قلاعه فاستكثر من الديلم وفيهم صعلوك بن محمد بن مسافر بن الفضل وغيرهما. فاستظهر بهم وانتزع من الأكراد ما تغلبوا عليه، وقبض على جماعة من رؤسائهم. وكان وزيره أبو القاسم علي بن جعفر قد ارتاب منه، فهرب إلى الطرم وبها محمد بن مسافر من أمراء الديلم وقد انتقض عليه ابناه وهشودان والمرزبان واستوليا على بعض قلاعه، ثم قبضا على أبيهما محمد وانتزعا أمواله وذخائره وتركاه في حصنه سلياً فريداً، فقصد علي بن جعفر المزبان وأطمعه في أذربيجان، فقلده وزارته وكانت نحلتهما في التشيع واحدة. لأن علي بن جعفر كان من الباطنية والمرزبان من الديلم وهم شيعة.

وكاتب علي بن جعفر أصحاب ديسم واستمالهم واستفسدهم عليه وخصوصاً الديلم، ثم التفتوا للحرب وجاء الديلم إلى المرزبان واستأمن معهم كثير من الأكراد، وهرب ديسم في فل من أصحابه إلى أرمينية واستجار بجاحق بن الديواني فأجاره وأكرمه، وندم على ما فرط في إبعاد الأكراد وهم على مذهبه في الخارجية، وملك المرزبان أذربيجان واستولى عليها. ثم استوحش منه علي بن جعفر وزير ديسم وتنكر له أصحاب المرزبان فأطمعه المرزبان بأخذ أموالهم وحملهم على طاعة ديسم، وقتل الديلم عندهم من جند المرزبان ففعلوا. وجاء ديسم فملكها وفر إليه من كان عند المرزبان حتى اشتد عليه الحصار، واستصلح أثناء ذلك الوزير علي بن جعفر، ثم خرجوا من توزير، ولحق ديسم بأردبيل، وجاء علي بن جعفر إلى المرزبان. ثم حاصر المرزبان أردبيل حتى نزل له ديسم على الأمان وملكها صلحاً. وملك توزير كذلك. ووفى له، ثم طلب ديسم أن يبعثه إلى قلعته بالطرم فبعثه بأهله وولده وأقام هنالك.

خبر سيف الدولة بواسط

لما فر بنو البريدي عن واسط إلى البصرة ونزل بها سيف الدولة أراد الانحدار خلفهم لانتزاع البصرة منهم، واستمد أخاه ناصر الدولة فأمده بمال مع أبي عبد اللّه الكوفي، وكان توزون وجحجح يستطيلان عليه، فأراد الاستئثار بالمال فرده سيف الدولة مع الكوفي إلى أخيه، وأذن لتوزون في مال الجامدة ولجحجح في مال المدار. وكان من قبل يراسل الأتراك وملك الشام ومصر معه فلا يجيبونه. ثم ثاروا عليه في شعبان من سنة إحدى وثلاثين، فهرب من معسكره ونهب سواده وقتل جماعة من أصحابه. وكان ناصر الدولة لما أخبره أبو عبد اللّه الكوفي بخبر أخيه في واسط، برز يسير إلى الموصل، وركب إليه المتقي يستمهله، فوقف حتى عاد وأغذ السير لثلاثة عشر شهراً من إمارته، فثار الديلم ونهبوا داره، ودبر الأمور أبو إسحاق القراريطي من غير لقب الوزارة.

وعزل أبو العباس الأصبهاني لأحد وخمسين يوماً من وزارته، ثم تنازع الإمارة بواسط بعد سيف الدولة توزون وجحجح، واستقر الحال أن يكون توزون أميراً وجحجح صاحب الجيش. ثم طمع ابن البريدي في واسط وأصعد إليها وطلب من توزون أن يضمنه إياها، فرده رداً جميلاً. وكان قد سار جحجح لمدافعته فمر به الرسول في طريقه وحادثه طويلاً، وسعى إلى توزون بأنه لحق بابن البريدي فأسرى إليه وكبسه منتصف رمضان، فقبض عليه وجاء به إلى واسط فسمله، وبلغ الخبر إلى سيف الدولة وكان لحق بأخيه، فعاد إلى بغداد منتصف رمضان، وطلب المال من المتقي لمدافعة توزون، فبعث أربعمائة ألف درهم وفرقها في أصحابه وظهر له من كان مستخفياً ببغداد وجاء توزون من واسط بعد أن خلف بها كيغلغ. فلما أحس به سيف الدولة رحل فيمن إنضم إليه من أجناد واسط وفيهم الحسن بن هارون، وسار إلى الموصل ولم يعاود بنو حمدان بعدها بغداد.

إمارة توزون ثم وحشته مع المتقي

لما سار سيف الدولة عن بغداد دخلها توزون آخر رمضان سنة إحدى وثلاثين، فولاه المتقي أمير الأمراء، وجعل النظر في الوزارة لأبي جعفر الكرخي كما كان الكوفي. ولما سار توزون عن واسط خالفه إليها البريدي فملكها. ثم انحدر توزون أول ذي القعدة لقتل البريدي، وقد كان يوسف بن وجيه صاحب عمان سار في المراكب إلى البصرة، وحارب ابن البريدي حتى أشرفوا

على الهلاك. ثم احترقت مراكب عمان بحيلة دبرها بعض الملاحين ونهب منها مال عظيم. ورجع يوسف بن وجيه مهزوماً في المحرم سنة اثنتين وثلاثين، وهرب في هذه الفتنة أبو جعفر بن شيرزاد من تورون فاشتمل عليه، وكان تورون عند إصعاده من بغداد استخلف مكانه محمد بن ينال الترجمان. ثم تنكر له فارتاب محمد، وارتاب الوزير أبو الحسن بن مقلة بمكان ابن شيرزاد من تورون وخافا غائلته وخوفا المتقي كذلك، وأوهماه أن البريدي ضمنه من تورون بخمسمائة ألف دينار التي أخذها من تركة يحكم، وأن ابن شيرزاد جاء عن البريدي ليخلعه ويسلمه، فانزعج لذلك وعزم على المسير إلى ابن حمدان، وكتبوا إليه أن ينفذ عسكراً يسير صحبته.

مسير المتقي إلى الموصل

ولما تمت سعاية ابن مقلة وابن ينال بتورون مع المتقي اتفق وصول ابن شيرزاد إلى بغداد أول اثنتين وثلاثين في ثلاثمائة فارس، وأقام بدست الأمر والنهي لا يعرج على المتقي في شيء. وكان المتقي قد طلب من ناصر الدولة بن حمدان عسكراً يصحبه إلى الموصل. فبعثهم ابن عمه أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصلوا بغداد اختفى ابن شيرزاد وخرج المتقي إليهم في حرمه وولده، ومعه وزيره وأعيان دولته مثل سلامة الطولوني وأبي زكريا يحيى بن سعيد السوسي وأبي محمد المارداني وأبي إسحاق القراريطي وأبي عبد الله الموسوي وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وأبي نصر بن محمد بن ينال الترجمان. وساروا إلى تكريت وظهر ابن شيرزاد في بغداد، وظلم الناس وصادرهم، وبعث إلى تورون في واسط بخبر المتقي، فعقد ضمان واسط على ابن البريدي، وزوجه ابنته، وسار إلى بغداد.

وجاء سيف الدولة إلى المتقي بتكريت. ثم بعث المتقي إلى ناصر الدولة يستحثه، فوصل إليه في ربيع الآخر، وركب المتقي من تكريت إلى الموصل، وأقام هو بتكريت. وسار تورون لحربه فتقدم إليه أخوه سيف الدولة فاقتتلوا أياماً. ثم انهزم سيف الدولة وغنم تورون سواده وسواد أخيه، ولحقوا بالموصل وتورون في اتباعهم. ثم ساروا عنها مع المتقي إلى نصيبين، ودخل تورون الموصل ولحق المتقي بالرقة، وراسل تورون بأن وحشته لأجل ابن البريدي، وأن رضاه في إصلاح بني حمدان، فصالحهما تورون وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم لكل سنة، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي وبنو حمدان بالرقة.

مسير ابن بويه إلى واسط وعوده عنها ثم استيلاؤه عليها

كان معز الدولة بن بويه بالأهواز، وكان ابن البريدي يطمعه في كل وقت في ملك العراق، وكان قد وعده أن يمده إلى واسط. فلما أصعد تورون إلى الموصل خالفه معز الدولة إلى واسط وأخلف ابن البريدي وعده في المدد. وعاد تورون من الموصل إلى بغداد، وانحدر منها للقاء معز الدولة منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين، واقتتلوا بقباب حميد بضعة عشر يوماً. ثم تأخر تورون إلى نهر ديالي فعبره ومنع الديلم من عبوره بمن كان معه من المقاتلة في الماء، وذهب ابن بويه ليصعد ويتمكن من الماء، فبعث تورون بعض أصحابه فعبروا ديالي وكمنوا له حتى إذا صار مصعداً خرجوا عليه على غير أهبة، فانهزم هو ووزيره الصهيري وأسر منهم أربعة عشر قائداً واستأمن كثير من الديلم إلى تورون، ولحق ابن بويه والصهيري بالسوس. ثم عاد إلى واسط ثانية فملكها ولحق أصحاب بني البريدي بالبصرة.

قتل ابن البريدي أخاه ثم وفاته

كان أبو عبد الله بن البريدي قد استهلك أمواله في هذه النوائب التي تنويه، واستقرض من أخيه أبي يوسف مرة بعد مرة، وكان أثرى منه ومال الجند إليه لثروته. وكان يعيب على أخيه تبذيره وسوء تدبيره. ثم نمي الخبر إليه أنه يريد المكر به، والاستبداد بالأمر. وتنكر كل واحد منهما للآخر، ثم أكمن أبو عبد الله غلمانه في طريق أبي يوسف فقتلوه، وشغب الجند لذلك فأراهم شلوه فافترقوا، ودخل دار أخيه وأخذ ما فيها من الأموال، وجواهر نفيسة كان باعها له بخمسين ألف درهم، وكان أصلها ليحكم وهبها لبنته حين زوجها له، وأخذها يحكم من دار الخلافة، فاحتاج إليه أبو عبد الله بعد فباعها له وبخسه أبو يوسف في قيمتها. وكان ذلك من دواعي العداوة بينهما. ثم هلك أبو عبد الله بعد مهلك أخيه بثمانية أشهر، وقام بالأمر بعده بالبصرة أخوهما أبو الحسن، فأساء السيرة في الجند فثاروا به ليقتلوه، فهرب منهم إلى هجر مستجيراً بالقرامطة، وولوا عليهم بالبصرة أبا القاسم ابن أخيه أبي عبد الله، وأمد أبو طاهر القرمطي أبا الحسن، وبعث معه أخويه لحصار البصرة فامتنعت عليهم،

وأصلحوا بين أبي القاسم وعمه، ودخل البصرة وسار منها إلى تورون ببغداد. ثم طمع يأنس مولى أبي عبد اللّه في الرياسة وداخل بعض قواد الديلم في الثورة بأبي القاسم. واجتمع الديلم إلى القائد وبعث أبو القاسم واليه يأنس فهمّ به ليفرد بالأمر، فهرب يأنس واختفى وتفرق الديلم واختفى القائد. ثم قبض عليه ونفاه وقبض على يأنس بعد أيام وصادره على مائة ألف دينار، وقتله.

ولما قدم أبو الحسين البريدي إلى بغداد مستأمناً إلى تورون فأمنه وطلب الإمداد على ابن أخيه، وبذل في ذلك أموالاً. ثم بعث ابن أخيه من البصرة بالأموال فأقره على عمله وشعر أبو الحسن بذلك فسعى عند ابن تورون في ابن شيرزاد إلى أن قبض عليه، وضرب واستظهر أبو عبد اللّه بن أبي موسى الهاشمي بفتاوي الفقهاء والقضاة بإباحة دم أبي الحسين،كانت عنده من أيام ناصر الدولة، وأحضروا بدار المتقي وسئلوا عن فتاويهم، فاعترفوا بأنهم أفتوا بها، فقتل وصلب ثم أحرق ونهب داره. وكان ذلك منتصف ذي الحجة من السنة، وكان ذلك آخر أمر البريديين.

الصوائف أيام المتقي

خرج الروم سنة ثلاثين أيام المتقي وانتهوا إلى قرب حلب فعاثوا في البلاد وبلغ سبيهم خمسة آلاف. وفيها دخل ثمل من ناحية طرسوس فعاث في بلاد الروم، وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم، وأسر عدة من بطارقتهم. وفي سنة إحدى وثلاثين بعث ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً في بيعة الرها زعموا أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت فيه صورته، وأنه يطلق فيه عدداً كثيراً من أسرى المسلمين، واختلف الفقهاء والقضاة في إسعافه بذلك، وفيه غضاضة أو منعه ويبقى المسلمون بحال الأسر. فأشار عليه وعلى ابن عيسى بإسعافه لخلاص المسلمين، فأمر المتقي بتسليمه إليهم. وبعث إلى ملك الروم من يقوم بتسليم الأسرى. وفي سنة اثنتين وثلاثين خرجت طوارق من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان، ودخلوا في نهر اللكز إلى بردعه. وبها نائب المرزبان ابن محمد بن مسافر ملك الديلم بأذربيجان، فخرج في جموع الديلم والمطوعة فقتلوهم، وقاتلوهم فهزمهم الروس وملكوا البلد، وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية لقتالهم فامتنعوا بها، ورماهم بعض العامة بالحجارة فأخرجوهم من البلد وقاتلوا من بقي، وغنموا أموالهم واستبدوا بأولادهم ونسائهم.

واستنفر المرزبان الناس وزحف إليهم في ثلاثين ألفاً، فقاتلوهم فامتنعوا عليه فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم، ونجا الباقون إلى حصن البلد، وحاصرهم المرزبان وصابرهم. ثم جاءه الخبر بأن أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان بلغ سلماس متوجهاً إلى أذربيجان بعثه إليها ابن عمه ناصر الدولة ليتملكها، فجهز عسكراً لحصار الروس في بردعة، وسار إلى قتال ابن حمدان. فارتحل ابن حمدان راجعاً إلى ابن عمه باستدعائه بالانحدار إلى بغداد. لما مات تورون وأقام العسكر على حصار الروس ببردعة، حتى هربوا من البلد وحملوا ما قدروا عليه، وطهر اللّه البلد منهم. وفيها ملك الروم رأس عين واستباحوها ثلاثاً وقاتلهم الأعراب ففارقوها.

الولايات أيام المتقي

قد تقدم لنا أنه لم يكن بقي في تصريف الخليفة إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة والموصل لبني حمدان. واستولى معز الدولة على الأهواز ثم على واسط،و بقيت البصرة بيد أبي عبد اللّه بن البريدي واستولى على بغداد مع المتقي يحكم، ثم ابن البريدي، ثم تورتكين الديلمي، ثم ابن رائق ثانية، ثم ابن البريدي ثانية، ثم حمدان، ثم تورون. يختلفون على المتقي واحداً بعد واحد، وهو مغلب لهم والحل والعقد والإبرام والنقض بأيديهم، ووزير الخليفة عامل من عمالهم متصرف تحت أحكامهم، وآخر من دبر الأمور أبو عبد اللّه الكوفي كاتب تورون، وكان قبله كاتب ابن رائق، وكان على الحجبة بدر بن الجرسي، فعزله عنها سنة ثلاثين وجعل مكانه سلامة الطولوني وولى بدر طريق الفرات ففزع إلى الأخشيذ واستأمن إليه فولاه دمشق. وكان من المستبدين في النواحي يوسف بن وجيه، وكان صاحب الشرطة ببغداد أبا العباس الديلمي.

خلع المتقي وولاية المستكفي

لم يزل المتقي عند بني حمدان من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين إلى آخر السنة، ثم آنس منهم الضجر واضطر لمراجعة تورون، فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد اللّه بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، وكتب إلى الأخشيذ محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فجاءه وانتهى إلى حلب وبها أبو عبد اللّه بن سعيد بن حمدان من قبل ابن عمه ناصر الدولة، فارتحل عنها وتخلف عنه ابن مقاتل، وقد كان صادره ناصر الدولة على خمسين ألف دينار، فاستقدم الأخشيذ وولاه خراج مصر. وسار الأخشيد من حلب

ولقي المتقي بالرقة، وأهدى إليه وإلى الوزير بن الحسين بن مقلة وسائر الحاشية، واجتهد به أن يسير معه إلى مصر ليقيم خلافته هنالك فأبى، فخوفه من تورون فلم يقبل.

وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر فيحكمه في البلاد فأبى، وكانوا ينتظرون عود رسلهم من تورون، فبعثوا إليهم بيمين تورون والوزير ابن شيرزاد بمحضر القضاة والعدول والعباسيين والعلويين وغيرهم من طبقات الناس. وجاء الكتاب بخطوطهم بذلك وتأكيد اليمين، ففارق المتقي الأخشيذ وانحدر من الوقت في الفرات آخر المحرم سنة ثلاث وثلاثين، ولقيه تورون بالسندية فقبل الأرض وقال: قد وفيت بيميني! ووكل به وبأصحابه وأنزله في خيمته. ثم سلمه لثلاث سنين ونصف من خلافته، وأحضر أبا القاسم عبد الله بن المكتفي فبايعه الناس على طبقاتهم، ولقب المستكفي، وجيء بالمتقي فبايعه وأخذت منه البردة والقضيب واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري، فكان له اسم الوزارة على سنن من قبله، والأمور راجعة لابن شيرزاد كاتب تورون. ثم خلع المستكفي على تورون وتوجه وحبس المتقي، وطلب أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذي لقب فيما بعد بالمطيع، فاختفى سائر أيامه وهدمت داره.

وفاة تورون وإمارة ابن شيرزاد

وفي المحرم من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات تورون ببغداد لست سنين وخمسة أشهر من إمارته، وكان ابن شيرزاد كاتبه أيامه كلها، وبعثه قبل موته لاستخلاص الأموال من هيت. فلما بلغه خبر الوفاة عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فأبى الجند من ذلك واضطربوا وعقدوا له الرياسة عليهم، واجتمعوا عليه وحلفوا، وبعث إلى المستكفي ليحلف له، فأجابه وحلف له بمحضرة القضاة والعدول، ودخل إليه ابن شيرزاد فولاه أمير الأمراء، وزاد في الأرزاق زيادة متسعة فضاقت عليه الأموال، فبعث أبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي إلى ابن حمدان يطالبه بالمال ويعده بإمارة الأمراء، فأنفذ إليه خمسمائة ألف درهم وطعاماً، وفرقها في الجند فلم تكف ففرض الأموال على العمال والكتاب والتجار لأرزاق الجند، ومدت الأيدي إلى أموال الناس، وفشا الظلم وظهرت اللصوص وكبسوا المنازل، وأخذ الناس في الخلاص من بغداد. ثم استعمل على واسط نيال كوشه، وعلى تكريت الفتح السيكري، فسار إلى ابن حمدان ودعا له شكراً فولاه عليها من قبله.

استلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام الخلافة في سلطانهم

قد تقدم لنا استبداد أهل النواحي على الخلافة منذ أيام المتوكل، ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضايق شيئاً فشيئاً، وأهل الدولة يستبدون واحداً بعد واحد إلى أن أحاطوا ببغداد وصاروا ولاة متعددة يفرد كل واحد منهم بالذكر وسياقة الخبر إلى آخرها. وكان من أقرب المستبدين إلى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس، ومعز الدولة منهم بالأهواز. وقد تغلب على واسط، ثم انتزعت منه. وبنو حمدان بالموصل والجزيرة، وقد تغلب على هيت وصارت تحت ملكهم، ولم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات، وأمراؤهم مع ذلك مستبدون عليهم، ويسمون القائم بدولتهم أمير الأمراء كما مر في أخبارهم إلى أن انتهى ذلك إلى دولة المتقي والقائم بها ابن شيرزاد. وولى على واسط نيال كوشه كما قلنا فانحرف عن ابن شيرزاد. وكاتب معز الدولة، وقام بدعوته في واسط واستدعاه لملك بغداد. فزحف في عساكر الديلم إليها ولقيه ابن شيرزاد والأتراك وهربوا إلى ابن حمدان بالموصل، واختفى المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد، فدخلها وظهر الخليفة، فظهر عنده المهلبي وجدد له البيعة عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة علي وركن الدولة الحسن. وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكته. ثم جاءه معز الدولة إلى بغداد وملكها، وصرف الخليفة في حكمه، واختص باسم السلطان. فبقيت أخبار الدولة تؤثر عنهم، وإن كان منها ما يختص بالخليفة فقليل. فلذلك صارت أخبار هؤلاء الخلفاء منذ المستكفي إلى المتقي مندرجة في أخبار بني بويه والسلجوقية من بعدهم لعطلهم من التصرف إلا قليلاً يختص بالخلفاء نحن ذاكروه ونرجئ بقية أخبارهم إلى أخبار الديلم والسلجوقية الغالبين على الدولة عندما نفرد دولتهم كما شرطناه.

الخبر عن الخلفاء من بني العباس المغلبين لدولة بني بويه من السلجوقية من بعدهم من لدن المستكفي إلى المتقي وما لهم من الأحوال الخاصة بهم ببغداد ونواحيها

لما دخل معز الدولة بن بويه إلى بغداد غلب على المستكفي

وبقي في كفالته، وكان المستكفي في سنة ثلاث وثلاثين قبلها قبض على كاتبه أبي عبد الله بن أبي سليمان وعلى أخيه، واستكتب أبا أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي في خاص أمره، وكان قبله كاتباً لابن حمدان، وكان يكتب للمستكفي قبل الخلافة. فلما نصب للخلافة قدم من الموصل فاستكتبه المستكفي في هذه السنة على وزيره أبي الفرج لاثنتين وأربعين من وزارته، وصادره على ثلثمائة ألف درهم. ولما استولى معز الدولة ببغداد على الأمر وبعث أبو القاسم البريدي صاحب البصرة ضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع

وأقام المستكفي بعد استيلاء معز الدولة على الأمر أشهراً قلائل، ثم بلغ معز الدولة أن المستكفي يسعى في إقامة غيره، فتنكر له، ثم أجلسه في يوم مشهود لحضور رسول من صاحب خراسان، وحضر هو في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم جاءا ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وساقاه ماشياً. وركب معز الدولة وجاء به إلى داره فاعتقله بها، واضطرب الناس وعظم النهب ونهب دار الخلافة، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وكان ذلك في جمادى الآخرة لسنة وأربعة أشهر من خلافته.

ثم بويع أبو القاسم الفضل بن المقتدر، وقد كان المستكفي طلبه حين ولي لإطلاعه على شأنه في طلب الخلافة، فلم يظفر به واختفى. فلما جاء معز الدولة تحول إلى داره واختفى عنده، فلما قبض على المستكفي بويع له ولقب المطيع لله، ثم أحضر المستكفي عنده فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم عليه بالخلافة، ولم يبق للخليفة من الأمر شيء البتة منذ أيام معز الدولة. ونظر وزير الخليفة مقصور على إقطاعه ونفقات داره والوزارة منسوبة إلى معز الدولة وقومه من الديلم شيعة للعلوية منذ إسلامهم على يد الأطروش، فلم يكونوا من شيعة العباسية في شيء ولقد يقال بأن معز الدولة اعتزم على نقل الخلافة منهم إلى العلوية، فقال له بعض أصحابه: لا تول أحداً يشركك قومك كلهم في محبته والاشتمال عليه، وربما يصير لهم دونك، فأعرض عن ذلك وسلبهم الأمر والنهي، وتسلم عماله وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وسائر أراضيه. وصار الخليفة إنما يتناول منه ما يقطعه معز الدولة ومن بعده فيما يسد بعض حاجاته. نعم إنهم كانوا يفردونهم بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد وإجلالهم في التحية والخطاب، وكل ذلك طوع القائم على الدولة، وكان يفرد في كل دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان مما لا يشاركه فيه أحد، ومعنى الملك من تصريف القدرة وإظهار الأبهة والعز حاصل له دون الخليفة وغيره، وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظاً المسلوب معنى، والله المدبر للأمور لا إله غيره.

انقلاب حال الدولة بما تجدد في الجباية والاقطاع

لما استوى معز الدولة طلب الجند أرزاقهم على عادتهم وأكثر لسبب ما تجدد من الاستيلاء الذي لم يكن له، فاضطر إلى ضرب المكوس وأخذ أموال الناس من غير وجهها، وأقطع قواده وأصحابه من أهل عصبيته وغير المساهمين له في الأمر جميع القرى التي بجانب السلطان، فارتفعت عنها أيدي العمال وبطلت الدواوين واختلف حال القرى في العمارة عما كان في أيدي القواد والرؤساء، حصل بهم لأهلها الرفق فزادت عمارتها وتوفر دخلها، ولم تكن مناظرتهم في ذلك ولا تقديره عليهم، وما كان بأيدي العامة والأتباع عظم خرابه لما كان يعدم من الغلاء والنهب واختلاف الأيدي وما يزيد الآن من الظلم ومصادرات الرعايا والحيف في الجباية وإهمال النظر في تعديل القناطر والمشارب، وقسم المياه على الأرضين فإذا خربت قراهم ردوها وطلبوا العوض عنها فيصير الآخر منها لما صار إليه الأول، ثم أمر معز الدولة قواده وأصحابه بحماية الأقطاع والضياع وولاتها، وصارت الجبايات لنظرهم والتعويل في المرتفع على أخبارهم. فلا يقدر أهل الدواوين والحسابات على تحقيق ذلك عليهم، ولم يقف عند ذلك على غاية. فبطلت الأموال وصار جمعها من المكوس والظلامات، وعجز معز الدولة عن ذخيرة يعدها لنوائب سلطانه. ثم استكثر من الموالي الأتراك ليجدع بهم من أنوف قومه، وفرض لهم الأرزاق وزاد لهم الأقطاع، فعظمت غيرة قومه من ذلك وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في طبيعة الدول.

دولة بني حمدان مسير ابن حمدان إلى بغداد

ولما استولى معز الدولة على بغداد وخلع المستكفي، بلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فشق ذلك عليه، وسار من الموصل إلى بغداد وانتهى إلى سامرا في شعبان سنة أربع. وكان معز

الدولة حين سمع قدوم عساكره مع ينال كوشه وقائد آخر، فقتل القائد ولحق بناصر الدولة. وجاء ناصر الدولة إلى بغداد فأقام بها وخالفه معز الدولة إلى تكريت فنهبها لأنها من أعماله. ثم عاد معز الدولة والمطيع فنزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقاتلوا ناصر الدولة بالجانب الشرقي وتقدم ناصر الدولة إلى الأعراب بالجانب الغربي بقطع الميرة عن معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ومنع ناصر الدولة من الخطبة للمطيع والمعاملة بسكته، ودعا للمتقي وبيت معز الدولة مراراً. وضاق الأمر به، واعتزم على ترك بغداد والعود إلى الأهواز.

ثم أظهر الرحيل ذات ليلة وأمر وزيره أبا جعفر الصهيري بالعبور في أكثر العساكر، وأقام بالكينة مكانه، وجاء ينال كوشه لقتاله فانهزم واضطرب عسكر ناصر الدولة وأجفلوا، وغنم الديلم أموالهم وأظهرهم. ثم أمن معز الدولة الناس وعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وقام التورونية عليه، فلما شعروا به نكروه وهموا بقتله، فأسرى هارباً ومعه ابن شيرزاد، وفر إلى الجانب الغربي. ثم لحق بالقرامطة فأجاروه وبعثوه إلى الموصل. ثم استقر الصلح بينه وبين الدولة كما طلب، ولما وفر عن الأتراك اتفقوا على تكين الشيرازي فولوه عليهم وقبضوا على من تخلف من كتابه وأصحابه، وساروا في اتباعه إلى نصيبين، ثم إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، ثم إلى السن، ولحق هنالك عسكر معز الدولة مع وزيره أبي جعفر الصهيري، وقد كان استمده ناصر الدولة. وسار ناصر الدولة وابن الصهيري إلى الموصل، فنزلوا عليها وأخذ الصهيري من ناصر الدولة ابن شيرزاد وحمله إلى معز الدولة وذلك سنة خمس وثلاثين.

استيلاء معز الدولة على البصرة

وفي هذه السنة انتقض أبو القاسم البريدي بالبصرة، فجهز معز الدولة الجيش وجماعة أعيانهم إلى واسط، ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء على الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة. ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين إلى البصرة ومعه المطيع لاستنقاذها من يد أبي القاسم بن البريدي وسلكوا إلى البرية. فبعث القرامطة يعذلون في ذلك معز الدولة فكتب يهددهم. ولما قارب البصرة استأمنت إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه، وملك معز الدولة البصرة. ثم سار منها إلى الأهواز لتلقي أخيه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصهيري بالبصرة. ولقي أخاه بأرَّجان. ثم عاد إلى بغداد والمطيع معه وأراد السير إلى الموصل فأرسل إليه ناصر الدولة في الصلح وحمل المال فتركه. ثم انتقض سنة سبع وثلاثين فسار إليه معز الدولة، وملك الموصل، ولحق ناصر الدولة بنصيبين، وأخذ معز الدولة في ظلم الرعايا وعسفهم. ثم بعث إليه أخوه ركن الدولة بأصبهان بأن عسكر خراسان قصدت جرجان والري، واستمده فاضطر معز الدولة إلى صلح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة وما ملكه سيف الدولة من الشام ودمشق وحلب على ثمانية آلاف ألف درهم، ويخطب لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة بني بويه، فاستقر الصلح على ذلك وعاد إلى بغداد.

ابتداء أمر بني شاهين بالبطيحة

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة، وحصلت عنده جبايات، فهرب إلى البطيحة خوفاً من الحكام، وأقام بين القصب والآجام يقتات بصيد السمك والطير وكشف سابلة البطيحة. واجتمع عليه جماعة من الصيادين واللصوص. ثم اشتد خوفه فاستأمن إلى أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة نقله جماعة الجامدة ونواحي البطائح. وجمع السلاح واتخذ مقاتل على تلال البطيحة وغلب على نواحيها، وسرح معز الدولة وزيره أبا جعفر الصهيري سنة ثمان وثلاثين فقاتله وهرب واستأمن أهله وعياله. ثم جاء الخبر إلى معز الدولة بموت أخيه عماد الدولة بفارس، واضطراب أحواله بها. فكتب إلى الصهيري بالفرار إلى شيرزاد لإصلاح الأمور، فسار إليها وعاد عمران بن شاهين إلى البطيحة، واجتمع إليه أصحابه وقوي أمره. وبعث معز الدولة إلى قتاله روزبهان من أعيان عسكره، فأطال حصاره في مضايق البطيحة. ثم ناجزه الحرب فهزمه عمران وهرب عسكره، وصار أصحابه يطلبون البَذْرَقة والخفارة من جند السلطان في السابلة، وانقطع طريق البصرة إلا على الظهر.

وكان الصهيري قد هلك وولى مكانه المهلبي، فكتب معز الدولة إلى المهلبي وهو بالبصرة، فصعد إلى واسط وأمده بالقواد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق. فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى مضايق خفية، وأشار عليه روزبهان بمعالجة القوم، وكتب إلى معز الدولة يشكو المطاولة من المهلبي، فكتب إليه معز الدولة بالاستبطاء فبادر إلى المناجزة وتوغل في تلك المضايق، فانهزم وقتل من أصحابه وأسر ونجا هو سباحة في الماء، وأسر عمران أكابر القواد حتى صالحه معز الدولة وقلده البطائح وأطلق له أهله على أن يطلق القواد الذين في أسره فأطلقهم.

موت الصهيري ووزارة المهلبي

كان أبو جعفر محمد بن أحمد الصهيري وزيراً لمعز الدولة، وكان قد سار لقتال عمران واستخلف مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي، فعرفت كفايته وإصلاحه وأمانته، وتوفي أبو جعفر الصهيري محاصراً لعمران، فولى معز الدولة مكانه أبا محمد المهلبي، فأحسن السيرة وأزال المظالم وخصوصاً عن البصرة فكان فيها شعب كثيرة من المظالم من أيام أبي البريدي، وتنقل في البلاد لكشف المظالم وتخليص الحقوق، فحسن أثره ونقم عليه معز الدولة بعض الأمور فنكبه سنة إحدى وأربعين وحبسه في داره ولم يعزله.

حصار البصرة

قد تقدم لنا أن القرامطة أنكروا على معز الدولة مسيره إلى البصرة على بلادهم، وذكرنا ما دار بينهم في ذلك. ولما علم يوسف بن وجيه استيحاشهم بعث إليهم يطمعهم في النصرة، واستمدهم فأمدوه. وسار في البحر سنة إحدى وأربعين، وبلغ الخبر إلى الوزير المهلبي، وقد قدم من شأن الأهواز. فسار إلى البصرة وسبق إليها ابن وجيه وقاتله فهزمه وظفر بمراكبه.

استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده

قد تقدم لنا صلح معز الدولة مع ناصر الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة. فلما كانت سنة سبع وأربعين أخرج وحمل المال، فسار معز الدولة إلى الموصل في جمادى ومعه وزيره المهلبي، فاستولى على الموصل ولحق ناصر الدولة بنصيبين ومعه كتابه وجميع أصحابه وحاشيته، ومن يعرف وجوه المنافع، وأنزلهم في قلعة كواشي وغيرها. وأمر الأعراب بقطع الميرة عن الموصل فضاقت الأبواب على عسكر معز الدولة، فسار عن الموصل إلى نصيبين واستخلف عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وبلغه في طريقه أن أولاد ناصر الدولة بسنجار في عسكر، فبعث عسكراً فكبسوهم واشتغلوا بالنهب، فعاد إليهم أولاد ناصر الدولة وهم غازون فاستلحموهم، وسار ناصر الدولة عن نصيبين إلى ميافارقين. ورجع أصحابه إلى معز الدولة مستأمنين، فسار هو إلى أخيه سيف الدولة بحلب فتلقاه وأكرمه وتراسلوا في الصلح على ألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر بسنجار وأن يكون ذلك في ضمان سيف الدولة فتم بينهما، وعاد معز الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين.

بناء معز الدولة ببغداد

أصاب معزل الدولة سنة خمسين مرض أشفي منه حتى وصّى، واستوخم بغداد فارتحل إلى كلواذا ليسير إلى الأهواز، وأسف أصحابه لمفارقة بغداد، فأشاروا عليه أن يبني لسكناه في أعاليها. فبنى داراً أنفق عليها ألف ألف دينار، وصادر فيها جماعة من الناس.

ظهور الكتابة على المساجد

كان الديلم كما تقدم لنا شيعة لإسلامهم على يد الأطروش، وقد ذكرنا ما منع بني بويه من تحويل الخلافة على العباسية إليهم. فلما كان سنة إحدى وخمسين وثلثمائة أصبح مكتوباً على باب الجامع ببغداد: لعن صريح في معاوية ومن غصب فاطمة فدك، ومن منع من دفن الحسن عند جده ومن نفى أبا ذر، ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك إلى معز الدولة. ثم محي من الليلة القابلة، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار المهلبي بأن يكتب مكان المحو: لعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله ﷺ. وفي ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة أمر الناس بإظهار الزينة والفرح لعبد العزيز من أعيان الشيعة. وفي السنة بعدها أمر الناس في يوم عاشوراء أن يغلقوا دكاكينهم ويقعدوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح، ويعلنوا بالنياحة، وتخرج النساء مسبلات الشعور مسوّدات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن حزناً على الحسين، ففعل الناس ذلك. ولم يقدر أهل السنة على منعه لأن السلطان للشيعة وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين فوقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة ونهب الأموال.

استيلاء معز الدولة على عمان وحصاره البطائح

انحدر معز الدولة سنة خمس وخمسين إلى واسط لقتال عمران بن شاهين بالبطائح فأنفذ الجيش من هنالك مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وسار إلى الأبلة فأنفذ الجيش إلى عمان، وكان القرامطة قد استولوا عليها وهرب عنها صاحبها نافع، وبقي أمرها فوضى، فاتفق قاضيها وأهل البلد أن ينصبوا عليهم رجلاً منهم فنصبوه، ثم قتله بعضهم فولوا آخر من قرابة القاضي يعرف بعبد

الرحمن بن أحمد بن مروان، واستكتب علي بن أحمد الذي كان وصل مع القرامطة كاتباً، وحضر وقت العطاء، فاختلف الزنج والبيض في الرضا بالمساواة وبعدمها واقتتلوا، فغلب الزنج وأخرجوا عبد الوهاب واستقر علي بن أحمد أميراً. فلما جاء معز الدولة إلى واسط هذه السنة، قدم عليه نافع الأسود صاحب عمان مستنجداً به، فانحدر به من الأبلة، وجهز له المراكب لحمل العساكر، وعليهم أبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس وهي مائة قطعة، فساروا إلى عمان وملكوها تاسع ذي الحجة من سنة خمس وخمسين، وقتلوا من أهلها وأحرقوا مراكبها، وكانت تسعة وثمانين، وعاد معز الدولة إلى واسط، وحاصر عمران، وأقام هنالك فاعتلّ وصالح عمران وانصرف عنه.

وفاة الوزير المهلبي

سار الوزير المهلبي في جمادى سنة اثنتين وخمسين إلى عمان ليفتحها فاعتل في طريقه ورجع إلى بغداد فمات في شعبان قبل وصوله، وحمل فدفن بها لثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر من وزارته. وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وصارت إليه وحواشيه، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس ولم يلقب أحد منهما بوزارة.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار

ولما رجع معز الدولة إلى بغداد اشتد مرضه فعهد بالسلطنة إلى ابنه عز الدولة، وتصدق وأعتق. وتوفي في ربيع من سنة ست وخمسين لاثنتين وعشرين سنة من سلطنته، وولى ابنه عز الدولة بختيار وقد كان أوصاه بطاعة عمه ركن الدولة، وبطاعة ابنه عضد الدولة، لأنه كان أكبر سناً وأخبر بالسياسة ووصاه بمجانبة سبكتكين وبكاتبيه أبي الفضل العباس وأبي الفرج، فخالف وصاياه وعكف على اللّهو وأوحش هؤلاء، ونفى كبار الديلم شرها في أقطاعاتهم. وشغب عليه الأصاغد فذادهم واقتدى بهم الأتراك، وجاء أبو الفرج محمد بن العباس من عمان بعد أن سلمها إلى نواب عضد الدولة الذين كانوا في أمداده، وخشي أن يؤمر بالمقام بها وينفرد أبو الفضل صاحبه بالوزارة ببغداد، فكان كما ظن. ثم انتقض بالبصرة حبشي بن معز الدولة على أخيه بختيار سنة ست وخمسين، فبعث الوزير أبو الفضل العباس فسار موريا بالأهواز ونزل واسط وكتب إلى حبشي بأنه جاء ليسلمه البصرة وطلب منه المعونة على أمره فأنفذ إليه مائتي ألف درهم وأرسل الوزير خلال ذلك إلى عسكر الأهواز أن يوافوه بالأبلة لموعد ضربه لهم، فوافوه وكبسوا حبشياً بالبصرة وحبسوه برامهرمز ونهبوا أمواله، وكان من جملة ما أخذ له عشرة آلاف مجلد من الكتب وبعث ركن الدولة بتخليص حبشي ابن أخيه وجعله عند عضد الدولة فأقطعه إلى أن مات سنة سبع وستين.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية

لما ولي أبو الفضل وزارة بختيار كثر ظلمه وعسفه، وكان محمد بن بقية من حاشية بختيار، وكان يتولى له المطبخ. فلما كثر شغب الناس من أبي الفضل عزله بختيار سنة اثنتين وستين وولى مكانه محمد بن بقية، فانتشر الظلم أكثر، وخربت النواحي وظهر العيارون ووقعت الفتن بين الأتراك وبختيار، فأصلح ابن بقية بينهم وركب سبكتكين بالأتراك إلى بختيار، ثم أفسد بينهم وتحرك الديلم على سبكتكين وأصحابه فأرضاهم بختيار بالمال ورجعوا عن ذلك..... كان ناصر الدولة بن حمدان قد قبض عليه ابنه أبو تغلب وحبسه سنة ست وخمسين وطمع في المسير إلى بغداد، وجاء أخوه حمدان وإبراهيم فازعين إلى بختيار ومستنجدين به فشغل عنهما بما كان فيه من شأن البطيحة وعمان، حتى إذا قضى وطره من ذلك وعزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بقية حمله على ذلك وأغراه به، فسار إلى الموصل ونزلها في ربيع الآخر سنة ثلاث وستين، ولحق أبو تغلب بسنجار بأصحابه وكتابه ودواوينه.

ثم سار إلى بغداد وبعث بختيار في أثره الوزير ابن بقية وسبكتكين فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين يحاربه في ظاهرها، ووقعت الفتنة داخل بغداد في الجانب الغربي بين أهل السنة والشيعة. واتفق سبكتكين وأبو تغلب على أن يقبضا على الخليفة والوزير وأهل بختيار، ويعود سبكتكين إلى بغداد مستولياً وأبو تغلب إلى الموصل. ثم أقصر سبكتكين عن ذلك وتوقف، وجاءه الوزير ابن بقية وأرسلوه إلى أبي تغلب في الصلح. وأن يضمن البلاد ويرد على أخيه حمدان أقطاعه وأملاكه إلا ماردين، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ورحل بختيار، وسار سبكتكين للقائه.

واجتمع بختيار وأبو تغلب على الموصل، وطلب أبو تغلب زوجته ابنة بختيار وأن يحط عنه من الضمان ويلقب لقباً سلطانياً فأجيب إلى ذلك خشية منه، ورحل بختيار إلى بغداد، وسر أهل الموصل برحيله لما نالهم منه، وبلغه في طريقه أن أبا تغلب قتل قوماً من أصحابه، وكانوا استأمنوا لبختيار وزحفوا لنقل أهلهم وأموالهم

فاشتد ذلك عليه، وكتب إلى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب ابن سبكتكين يستقدمهما في العساكر، فجاؤوا وعادوا إلى الموصل، وعزم على طلبه حيث سار. فأرسل أبو تغلب في الصلح، وجاء الشريف أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي وحلف على العلم في قتل أولئك المستأمنة، وعاد الصلح والاتفاق كما كان، ورجع بختيار إلى بغداد وبعث ابنته إلى زوجها أبي تغلب.

الفتنة بين بختيار وسبكتكين والأتراك

كان بختيار قد قلت عنده الأموال وكثرت مطالب الجند وشغبهم، فكان يحاول على جمع الأموال فتوجه إلى الموصل لذلك، ثم رجع فتوجه إلى الأهواز ليجدد ريعه إلى مصادرة عاملها، وتخلف عنه سبكتكين والأتراك الذين معه، ووقعت فتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز واقتتلوا ولج الأتراك في طلب ثأرهم، وأشار عليه أصحاب الديلم بقبض رؤساء الأتراك وقوادهم ففعل، وكان من جملتهم عامل الأهواز وكاتبه، ونهبت أموالهم وبيوتهم، ونودي في البلد باستباحتهم، وبلغ الخبر إلى سبكتكين وهو ببغداد فنقض طاعة بختيار وركب في الأتراك وحاصر داره يومين وأحرقها وأخذ أخويه وأمهما فبعثهم إلى واسط في ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وانحدر المطيع معهم فرده وترك الأتراك في دور الديلم ونهبوها وثارت العامة مع سبكتكين لأن الديلم كانوا شيعة وسفكت الدماء وأحرق الكرخ وظهر أهل السنة.

خلع المطيع وولاية الطائع

كان المطيع قد أصابه الفالج وعجز عن الحركة وكان يتستر به وانكشف حاله بسبكتكين في هذه الواقعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة عبد الكريم ففعل ذلك منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين لست وعشرين سنة ونصف من خلافته، وبويع ابنه عبد الكريم ولقب الطائع.

الصوائف

وعادت الصوائف منذ استبد ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وأعمالها، وملك سيف الدولة أخوه مدينتي حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين، فصار أمر الصوائف إليه فنذكرها في أخبار دولتهم. فقد كان لسيف الدولة فيها آثار وكان للروم في أيامه جولات حسنت فيها مدافعته. وأما الولايات فانقطعت منذ استيلاء معز الدولة على العراق، وانقسمت الدولة الإسلامية دولاً نذكر ولايات كل منها في أخبارها عند انفرادها على ما شرطناه.

فتنة سبكتكين وموته وإمارة أفتكين

لما أوقع بختيار في الأتراك بالأهواز ما أوقع وانتقض سبكتكين ببغداد عمد بختيار إلى من حبسه من الأتراك فأطلقهم، وولى منهم على الأتراك زادويه الذي كان عامل الأهواز، وسار إلى واسط للقائه وأخويه، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي تغلب بن حمدان في المدد بنفسه، ويسقط عنه مال الإقطاع، وإلى عمران بن شاهين بالبطيحة كذلك، فجهز إليه عمه ركن الدولة العسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابن عمه عضد الدولة بالمسير معه فتثاقل وتربص بختيار طمعاً في ملك العراق. وأما عمران بن شاهين فدافع واعتذر بأن عسكره لا يفتكون في الديلم لما كان بينهم، وأما أبو تغلب فبعث أخاه أبا عبد الله الحسين في عسكر إلى تكريت. فلما سار الأتراك عن بغداد إلى واسط لقتال بختيار وجاء هو إليها ليقيم الحجة في سقوط الإقطاع عنه، ووجد الفتنة حامية بين العيارين فكف القسامة وانتظر ما يقع ببختيار فيدخل بغداد ويملكها. ولما سار الأتراك إلى واسط حملوا معهم خليفتهم الطائع لله وأباه المطيع المخلوع، وانتهوا إلى دير العاقول فهلك المطيع وسبكتكين معاً، وولى الأتراك عليهم أفتكين من أكابر قوادهم ومولى معز الدولة، فانتظم أمرهم وساروا إلى واسط وحاصروا بها بختيار خمسين يوماً حتى اشتد عليه الحصار وهو يستحث عضد الدولة.

نكبة بختيار على يد عضد الدولة ثم عوده إلى ملكه

لما تتابعت كتب بختيار إلى عضد الدولة باستحثاثه سار في عساكر فارس، وجاءه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه إلى الأهواز في عساكر الري وساروا إلى واسط، وأجفل عنها أفتكين والأتراك إلى بغداد ورجع أبو تغلب إلى الموصل. ولما جاء عضد الدولة إلى واسط سار إلى بغداد في الجانب الشرقي، وسار بختيار في الجانب الغربي وحاصروا الأتراك ببغداد من جميع الجهات. وأرسل بختيار إلى ضبة بن محمد الأسدي من أهل عين التمر وإلى أبي سنان وأبي تغلب بن حمدان بقطع الميرة والإغارة على النواحي ففعلا السعر

ببغداد وثار العيارون ووقع النهب، وكبس أفتكين المنازل في طلب الطعام فعظم الهرج، وخرج أفتكين والأتراك للحرب فلقيهم عضد الدولة فهزمهم وقتل أكثرهم واستباحهم، ولحقوا بتكريت وحملوا الخليفة معهم، ودخل عضد الدولة إلى بغداد في جمادى سنة أربع وستين. وحاول في رد الخليفة الطائع فرده وأنزله بداره وركب للقائه الماء في يوم مشهود.

ثم وضع الجند على بختيار فشغبوا عليه في طلب أرزاقهم وأشار عليه بالغلظة عليهم، والاستعفاء من الإمارة، وأنه عند ذلك يتوسط في الإصلاح فأظهر بختيار التخلي، وصرف الكتاب والحجاب ثقة بعضد الدولة، وتردد السفراء بينهم ثلاثاً ثم قبض عضد الدولة على بختيار وإخوته ووكل بهم، وجمع الناس أعلمهم بعجز بختيار ووعدهم بحسن النظر وقام بواجبات الخلافة. وكان المرزبان بن بختيار أميراً بالبصرة فامتنع فيها على عضد الدولة، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على أبيه بختيار من ابنه عضد الدولة ووزيره ابن العميد، فأصابه من ذلك المقيم المقعد حتى لقد طرقه المرض الذي لم يستقل منه.

وكان ابن بقية وزير بختيار قد سار إلى عضد الدولة وضمنه واسط وأعمالها فانتقض عليه بها، وداخل عمران بن شاهين في الخلافة فأجابه، وكتب إلى سهل بن بشر وزير أفتكين بالأهواز وقد كان عضد الدولة ضمنه إياها وبعثه إليها مع جيش بختيار فاستماله ابن بقية، وخرجت إليه جيوش عضد الدولة فهزمهم، وكاتب أباه ركن الدولة بالأحوال، وأوعز ركن الدولة إليه وإلى المرزبان بالبصرة على المسير بالعراق لإعادة بختيار.

واضطربت النواحي على عضد الدولة لإنكار أبيه، وانقطع عن مدد فارس وطمع فيه الأعداء، فبعث أبا الفتح بن العميد إلى أبيه يعتذر عما وقع، وأن بختيار عجز ولايقدر على المملكة وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم، ويبعث بختيار وإخوته إليه لينزله بأي الأعمال أحب، ويخير أباه في نزوله العراق لتدبير الخلافة ويعود هو إلى فارس، وتهدد أباه بقتل بختيار وإخوته وجميع شيعهم إن لم يوافق على واحدة من هذه. فخاف ابن العميد غائلة هذه الرسالة وأشار بإرسال غيره وأن يمضي هو بعدها كالمصلح فبعث عضد الدولة غيره. فلما ألقى الرسالة غضب ركن الدولة ووثب إلى الرسول ليقتله، ثم رده بعد أن سكن غضبه، وحمله إلى عضد الدولة من الشتم والتقريع على ما فعله وعلى ما يطلب منه من كل صعب من القول.

وجاء ابن العميد على أثر ذلك فحجبه وتهدده، ثم لم يزل يسترضيه بجهده واعتذر بأن قبوله لهذه الرسالة حيلة على الوصول إليه والخلاص من عضد الدولة، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير بختيار بالعراق، فأجاب عضد الدولة إلى ذلك وأفرج عن بختيار ورده إلى السلطنة على أن يكون نائباً عنه ويخطب عنه، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لعجز بختيار، ورد عليهم ما أخذ لهم وسار إلى فارس وأمر ابن العميد أن يلحق به بعد ثلاث فتشاغل مع بختيار باللذات ووعده أن يصير إلى وزارته بعد ركن الدولة. وأرسل بختيار عن ابن بقية فقام بأمر الدولة واحتجن الأموال فإذا طولب بها دس للجند فشغبوا حتى تنكر له بختيار واستوحش هو.

خبر أفتكين

ولما انهزم أفتكين من عضد الدولة بالمدائن لحق الشام ونزل قريباً من حمص، وقصد ظالم بن موهوب أمير بني عقيل العلوية بالشام فلم يتمكن منه، وسار أفتكين إلى دمشق وأميرها ريان خادم المعز لدين الله العلوي وقد غلب عليه الأحداث فخرج إليه مشيخة البلد وسألوه أن يملكهم ويكف عنهم شر الأحداث وظلم العمال واعتقاد الرافضة فاستحلفهم على ذلك ودخل دمشق وخطب فيها للطائع في شعبان سنة أربع وستين. ورجع أيدي العرب من ضواحيها وفتك فيهم وكثرت جموعه وأمواله وكاتب المعز بمصر يداريه بالانقياد، فكتب يشكره ويستدعيه ليوليه من جهته، فلم يثق إليه فتجهز لقصده، ومات في طريقه سنة خمس وستين كما نذكر بقية خبره في دولتهم.

ملك عضد الدولة بغداد وقتل بختيار

ولما انصرف عضد الدولة إلى فارس كما ذكرناه أقام بها قليلاً ثم مات أبوه ركن الدولة سنة ست وستين بعد أن رضي عنه وعهد له بالملك كما نذكره في خبره. فلما مات شرع بختيار ووزيره ابن بقية في استمالة أهل أعماله مثل أخيه فخر الدولة وحسنويه الكردي وطلب ابن حمدان وعمران بن شاهين في عدوانه فسار عضد الدولة لطلب العراق واستمد حسنويه وابن حمدان فواعداه ولم يبعداه فسار إلى الأهواز، ثم سار إلى بغداد، ولقيه بختيار فهزمه عضد الدولة واستولى على أمواله وأثقاله ولحق بواسط، وحمل إليه ابن شاهين أموالاً وهدايا ودخل إليه مؤكداً للاستجارة به. ثم صعد إلى واسط، وبعث عضد الدولة عسكراً إلى البصرة فملكوها، وكانت مصر شيعة له دون ربيعة. وجمع بختيار ما كان له ببغداد والبصرة في واسط وقبض على ابن بقية

وأرسل عضد الدولة في الصلح واختلفت الرسائل، وجاءه عبد الرزاق ويدر ابنا حسنويه في ألف فارس مدداً فانتقض وسار إلى بغداد وسار عضد الدولة إلى واسط ثم إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهم مائة وعشرين سنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين فقبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميدي وزير أبيه وجدع أنفه وسمل إحدى عينيه لما بلغه عنه في مقامه بالفرات عند بختيار. ولما أطلع عليه من مكاتبته إياه فبعث إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض عليه وعلى أهله فقبض عليه وأخذ داره بما فيها. ثم سار عضد الدولة إلى بغداد سنة سبع وستين، وبعث إلى بختيار يخيره في الأعمال فأجاب إلى طاعته، وأمره بإنفاذ ابن بقية إليه ففقأ عينيه وأنفذه، وخرج عن بغداد يقصد الشام، ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها وضرب على بابه ثلاث توتات ولم يكن شيء من ذلك لمن قبله، وأمر بابن بقية فرمي بين الفيلة فقتلته.

ولما سار بختيار إلى الشام ومعه حمدان أخو أبي تغلب وانتهوا إلى عكبرا أحسن له حمدان وقصد الموصل. وكان عضد الدولة قد استحلفه أن لا يدخل ولاية أبي تغلب فنكث وقصدها، وجاءته رسل أبي تغلب بتكريت في إسلام أخيه حمدان إليه فيمده بنفسه، ويعيده إلى ملكه فقبض على حمدان وبعثه مع نوابه فحبسه وسار أبو تغلب إليه في عشرين ألف مقاتل، وزحفوا إلى بغداد ولقيهما عضد الدولة فهزمهما وأمر ببختيار فقتل صبراً في عدة من أصحابه لإحدى عشرة سنة من ملكه.

استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

ثم سار عضد الدولة بعد الهزيمة ومقتل بختيار إلى الموصل فملكها متصف ذي القعدة من سنة سبع وستين، وكان حمل معه الميرة والعلوفات فأقام في رغد، وبث السراة في طلب أبي تغلب، وراسله في ضمان البلاد على عادته فلم يجبه، فسار إلى نصيبين ومعه المرزبان بن بختيار وأبو إسحاق وطاهر أخو بختيار وأمهم، فبعث عضد الدولة عسكراً إلى جزيرة ابن عمر مع حاجبه أبي عمر لحرب طغان، وعسكراً إلى نصيبين مع أبي الوفاء طاهر بن محمد ففارقها أبو تغلب إلى ميافارقين وأتبعه أبو الوفاء إليها فامتنعت عليه. ولحق أبو تغلب بأردن الروم ثم بالحسنية من أعمال الجزيرة، وتتبع أبو تغلب قلاعه وأخذ أمواله في كواشي وغيرها، وعاد إلى ميافارقين. ثم سار عضد الدولة إليه بنفسه واستأمن إليه كثير من أصحابه، ورجع إلى الموصل وبعث العسكر في اتباعه فدخل بلاده فصاهره ورد الرومي المملك عليهم في غير بيت الملك ليستعين به على أمره، واتبعه عسكر عضد الدولة فهزمهم ونجا إلى بلاد الروم لمساعدة ورد على شأنه لما يؤمل من نصرته إياه. واتفق أن ورداً انهزم فيئس منه أبو تغلب وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد شهرين، حتى فتح عضد الدولة جميع بلاده كما يذكر في أخبار دولتهم، واستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد وانقطع ملك بني حمدان عن الموصل حيناً من الدهر.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة

ثم توفي عضد الدولة في شوال سنة اثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ملكه، واجتمع القواد والأمراء على ولاية ابنه كاليجار المرزبان وبايعوه ولقبوه صمصام الدولة. وجاءه الطائع معزياً في أبيه، وبعث أخويه أبا الحسين أحمد وأبا طاهر فيروزشاه فانتقض أخوهم شرف الدولة بكرمان في فارس، وسبق إليها أخويه وملكها وأقاما بالأهواز، وقطع خطبة صمصام الدولة أخيه وخطب لنفسه، وتلقب تاج الدولة. وبعث إليه صمصام الدولة عسكراً صحبة علي بن دنقش حاجب أبيه، وبعث شرف الدولة عسكره مع الأمير أبي الأغر دفليس بن عفيف الأسدي، والتقيا عند قرقوب، فانهزم ابن دنقش في ربيع سنة ثلاث وسبعين وأسر واستولى أبو الحسن على الأهواز ورامهرمز، وطمع في الملك.

ثم إن أسفار بن كردويه من أكابر الديلم قام بدعوة شرف الدولة ببغداد سنة خمس وسبعين، واستمال كثيراً من العسكر، واتفقوا على ولاية أبي نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه شرف الدولة، وراسلهم صمصام الدولة في الرجوع عن ذلك فلم يزدهم إلا تمادياً. وأجابه فولاد بن مابدار أنفة من متابعة أسفار وقاتله فهزمه. وأخذ أبا مضل أسيراً وأحضره عند أخيه صمصام الدولة، واتهم وزيره ابن سعدان بمداخلتهم فقتله، ومضى أسفار إلى أبي الحسين بن عضد الدولة وباقي الديلم إلى شرف الدولة. وسار شرف الدولة إلى الأهواز فملكها من يد أخيه الحسين. ثم ملك البصرة من يد أخيه أبي طاهر وراسله صمصام الدولة في الصلح فاتفقوا على الخطبة لشرف الدولة بالعراق، وبعث إليه بالخلع والألقاب من الطائع.

نكبة صمصام الدولة وولاية أخيه شرف الدولة

لما ملك شرف الدولة من يد أخيه أبي طاهر سار إلى واسط فملكها، وعمد صمصام الدولة إلى أخيه أبي نصر وكان محبوساً عنده فأطلقه وبعثه إلى أخيه شرف الدولة بواسط يستعطفه به، فلم يلتفت إليه، وجزع صمصام الدولة واستشار أصحابه في طاعة أخيه شرف الدولة فخوفوه عاقبته، وأشار بعضهم بالصعود إلى عكبرا ثم منها إلى الموصل وبلاد الجبل حتى يحدث من أمر الله في فتنة بين الأتراك والديلم أو غير ذلك ما يسهل العود، وأشار بعضهم بمكاتبة عمه فخر الدولة والمسير على طريق أصبهان فيخالف شرف الدولة إلى فارس فربما يقع الصلح على ذلك. فأعرض صمصام الدولة عن ذلك كله وركب البحر إلى أخيه شرف الدولة فتلقاه وأكرمه. ثم قبض عليه لأربع سنين من إمارته، وسار إلى بغداد في شهر رمضان من سنة ست وسبعين فوصلها وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله. واستفحل ملكه واستطال الديلم على الأتراك بكثرتهم فإنهم بلغوا خمسة عشر ألفاً، والأتراك ثلاثة آلاف. ثم كثرت المنازعات بينهم وغصَّ الديلم بالأتراك وأرادوا إعاده صمصام الدولة إلى الملك ثم اقتتلوا فغلبهم الديلم وقتلوا منهم وغنموا أموالهم وسار بعضهم فذهب في الأرض، ودخل الآخرون مع شرف الدولة إلى بغداد، وخرج الطائع لتلقيه وهناه وأصلح شرف الدولة بين الفريقين، وبعث صمصام الدولة إلى فارس فاعتقل بها واستوزر شرف الدولة أبا منصور بن صالحان.

ابتداء دولة باد وبني مروان بالموصل

قد تقدم لنا أن عضد الدولة استولى على ملك بني حمدان بالموصل سنة سبع وستين، ثم استولى على ميافارقين وآمد وسائر ديار بكر من أعمالهم، وعلى ديار مضر أيضاً من أعمالهم سنة ثمان وستين وولى عليها أبا الوفاء من قواده، وذهب ملك بني حمدان من هذه النواحي. وكان في ثغور ديار بكر جماعة من الأكراد الحميدية مقدمهم أبو عبد الله الحسين بن دوشتك، ولقبه باد وكان كثير الغزو بتلك البلاد وإخافة سبلها. وقال ابن الأثير: حدثني بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية أن اسمه باد وكنيته أبو شجاع وأن الحسين هو أخوه وأن أول أمره أنه ملك أرجيش من بلاد أرمينية فقوي اه.

ولما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده وهم بقبضه، ثم سأل عنه فافتقده وكف عن طلبه. فلما مات عضد الدولة استفحل أمره واستولى على ميافارقين، وكثير من ديار بكر، ثم على نصيبين. وقال ابن الأثير: سار من أرمينية إلى ديار بكر فملك ثم ميافارقين، وبعث صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير فهزمهم وأسر جماعة منهم، فبعث عساكر أخرى مع أبي القاسم سعيد بن الحاجب فلقيهم في بلد كواشي وهزمهم، وقتل منهم وأسر، ثم قتل الأسرى صبراً. ونجا سعيد إلى الموصل وباد في أتباعه فثار به أهل الموصل نفوراً من سوء سيرة الديلم فهرب منها ودخل باد وملك الموصل. وحدث نفسه بالمسير إلى صمصام الدولة ببغداد وانتزاع بغداد من يد الديلم واحتفل فيه ولقيهم باد في صفر من سنة أربع وسبعين فهزموه وملكوا الموصل، ولحق باد بديار بكر وجمع عليه عساكر.

وكان بنو سيف الدولة بن حمدان بحلب قد ملكها معهم سعد الدولة ابنه بعد مهلكه، فبعث إليه صمصام الدولة أن يكفيه أمر باد على أن يسلم إليه ديار بكر، فبعث سعد الدولة إليه جيشاً فلم يكن لهم طاقة، وزحفوا إلى حلب فبعث سعد الدولة من اغتاله في مرقده بخيمته من البادية وضربه فاعتل وأشفى على الموت، وبعث إلى سعد وزياد الأميرين بالموصل فصالحهما على أن تكون ديار بكر والنصف من طور عبدين لباد، ورجع زياد إلى بغداد وهو الذي جاء بعساكر الديلم وانهزم باد أمامه. ثم توفي سعد الحاجب بالموصل سنة سبع وسبعين فتجدد لباد الطمع في ملكها، وبعث شرف الدولة على الموصل أبا نصر خواشاذه فدخل الموصل واستمد العساكر والأموال فأبطأت عنه فدعا العرب من بني عقيل وبني نمير وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها.

واستولى باد على طور عبدين وأقام بالجبل، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فانهزم وقتل. وبينما خواشاذه يتجهز لقتال باد جاءه الجند بموت شرف الدولة. ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان أميرين على الموصل من قبل بهاء الدولة، وبقيت في ملكهما إلى سنة إحدى وثمانين، فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فمكلها، وزحف إليه أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فقاتله وبالغ في مدافعته واستمد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير أبا القاسم علي بن أحمد وسار أول سنة اثنتين وثمانين وكتب إلى أبي جعفر بالقبض عليه بسعاية ابن المعلم، وشعر الوزير بذلك فصالح أبا الرواد ورجع ووجد بهاء الدولة قد قبض على ابن المعلم وقتله.

وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة

ثم توفي شرف الدولة أبو الفوارس شرزيك بن عضد الدولة في جمادى سنة تسع وسبعين لستين وثمانية أشهر من إمارته ودفن بمشهد علي بعد أن طالت علته بالاستسقاء، وبعث وهو عليل إلى أخيه صمصام الدولة بفارس فشمله، وبعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس ومعه الخزائن والعدد وجملة من الأتراك. وسئل شرف الدولة في العهد فملكه وأبى أن يعهد واستخلف أخاه بهاء الدولة لحفظ الأمور في حياته. فلما مات قعد في المملكة وجاء الطائع للعزاء وخلع عليه للسلطنة فأقر أبا منصور بن صالحان على وزارته، وبعث أبا طاهر إبراهيم وأبا عبد الله الحسين ابني ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل، وكان في خدمته شرف الدولة فاستأذنا بهاء الدولة بعد موته في الإصعاد إلى الموصل فأذن لهما. ثم ندم على ما فرط في أمرهما وكتب إلى خواشاذه بمدافعتهما فامتنعا وجاءا ونزلا بظاهر الموصل.

وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك وخرجوا إلى بني حمدان، وقاتلوا الديلم فهزموهم، وقتل الديلم كثيراً منهم واعتصم الباقون بدار الإمارة فأخرجوهم على الأمان ولحقوا ببغداد، وملك بنو حمدان الموصل. وكان أبو علي بن شرف الدولة لما انصرف إلى فارس بلغه موت ابنه بالبصرة، فبعث العيال والأموال في البحر إلى أرجان وسار هو إليها. ثم سار إلى شيراز فوافاه بها عمه صمصام الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقهما الموكلون بهما ومعهما قولاد، وجاؤوا إلى شيراز، واجتمع عليهم الديلم وخرج أبو علي إلى الأتراك فاجتمعوا عليه، وقاتل صمصام الدولة والديلم أياماً. ثم سار إلى نسا فملكها وقتل الديلم بها. ثم سار إلى أرجان وبعث الأتراك إلى شيراز لقتال صمصام الدولة فنهبوا البلد وعادوا إليه بأرجان. ثم بعث بهاء الدولة إلى علي ابن أخيه يستقدمه، واستمال الأتراك سراً فحملوا أبا علي على المسير إليه فسار في جمادى سنة ثمانين فأكرمه ثم قبض عليه وقتله. ثم وقعت الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم واقتتلوا خمسة أيام. ثم راسلهم بهاء الدولة في الصلح فلم يجيبوا وقتلوا رسله فظاهر الأتراك عليهم فغلبوهم، واشتدت شوكة الأتراك من يومئذ وضعف أمر الديلم وصالح بينهم على ذلك وقبض على بعض الديلم وافترقوا.

خروج القادر إلى البطيحة

كان إسحاق بن المقتدر لما توفي ترك ابنه أبا العباس أحمد الذي لقب بالقادر، فجرت بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة، ومرض الطائع مرضاً مخوفاً ثم أبلّ فسعت تلك الأخت بأخيها، وأنه طلب الخلافة في مرض الطائع فأنفذ أبا الحسين بن حاجب النعمان في جماعة للقبض عليه، وكان بالحريم الظاهري فغلبهم النساء عليه، وخرج من داره متستراً ثم لحق بالبطيحة ونزل على مهذب الدولة فبالغ في خدمته إلى أن أتاه بشير الخلافة.

فتنة صمصام الدولة

لما تغلب صمصام الدولة على بلاد فارس وجاء أبو علي شرف الدولة إلى عمه بهاء الدولة فقتله كما ذكرنا، سار بهاء الدولة من بغداد إلى خوزستان سنة ثمانين وثلثمائة قاصداً بلاد فارس. واستخلف أبا نصر خواشاذه على بغداد، ولما بلغ خوزستان أتاه نعي أخيه أبي طاهر فجلس للعزاء به. ثم سار إلى أرجان فملكها وأخذ ما فيها من الأموال وكان ألف ألف دينار وثمانية آلاف درهم، وكثيراً من الثياب والجواهر، وشغب الجند لذلك فأطلق تلك الأموال كلها لهم، ثم سارت مقدمته وعليها أبو العلاء بن الفضل إلى النوبندجان، وبها عسكر صمصام الدولة فانهزموا وثبت أبو العلاء بن الفضل في نواحي فارس.

ثم بعث صمصام الدولة عسكره وعليهم قولاد بن مابدان فهزموا أبا العلاء وعاد إلى أرجان، وجاءه صمصام الدولة من شيراز إلى قولاد، ثم وقع الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان وما وراءها من ملك العراق، وأن يكون لكل واحد منهما أقطاع في بلد صاحبه، وتعاقدا على ذلك، ورجع بهاء الدولة إلى بغداد فوجد الفتنة بين أهل السنة والشيعة بجانب بغداد، وقد كثر القتل والنهب والتخريب فأصلح ذلك. وكان قبل سيره إلى خوزستان قبض على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير، وكان الحكم والتدبير في دولته لأبي الحسين بن المعلم.

خلع الطائع وبيعة القادر

ثم إن بهاء الدولة قلت عنده الأموال وكثر شغب الجند ومطالباتهم، وقبض على وزيره سابور فلم يغن عنه، وامتدت عيناه إلى أموال الطائع وهمّ بالقبض عليه، وحسّن له ذلك أبو الحسين بن المعلم الغالب على هواه فتقدم إلى الطائع بالجيوش لحضوره في خدمته فجلس وجلس بهاء الدولة على كرسي، ثم جاء بعض الديلم يقبل يد الطائع فجذبه عن سريره وأخرجه،

ونهب قصور الخلافة وفشا النهب في الناس، وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة فأشهد عليه بالخلع سنة إحدى وثمانين لسبع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه إلى البطيحة ليحضروا القادر باللّه أبا العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ليبايعوه، فجاؤوا به بعد أن بايع مهذب الدولة صاحب البطيحة في خدمته وسار بهاء الدولة وأعيان الناس لتلقيه فتلقوه وساروا في خدمته، ودخل دار الخلافة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وخطب له صبيحتها وكانت مدة إقامته بالبطيحة ثلاث سنين غير شهر، ولم يخطب له بخراسان وأقاموا على بيعة الطائع فأنزله بحجرة من قصره، ووكل عليه من يقوم بخدمته على أتم الوجوه، وأجرى أحواله على ما كان عليه في الخلافة إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين فصلى عليه ودفنه.

ملك صمصام الدولة الأهواز وعودها لبهاء الدولة ثم استيلاؤه ثانياً عليها

قد تقدم لنا ما وقع بين بهاء الدولة وصمصام الدولة من الصلح على أن يكون له فارس ولبهاء الدولة خورستان وما وراءها، وذلك سنة ثمان. ولما كانت سنة ثلاث وثمانين تحيل بهاء الدولة فبعث أبا العلاء عبد اللّه بن الفضل إلى الأهواز على أن يبعث إليه الجيوش مفترقة، فإذا اجتمعت كبس بلاد فارس على حين غفلة. وشعر صمصام الدولة بذلك قبل اجتماع العساكر، فبعث عساكره إلى خوزستان، ثم جاءت عساكر العراق والتقوا فانهزم أبو العلاء، وحمل إلى صمصام الدولة أسيراً فاعتقله، وبعث بهاء الدولة وزيره أبا نصر بن سابور إلى واسط يحاول له جمع المال فهرب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة.

ثم كثر شغب الديلم على بهاء الدولة ونهبوا دار الوزير نصر بن سابور واستعفى واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد. ثم هرب وعاد سابور إلى الوزارة وأصلح الديلم، ثم أنفذ بهاء الدولة عسكره إلى الأهواز سنة أربع وثمانين وعليهم طغان التركي، وانتهوا إلى السوس فارتحل عنها أصحاب صمصام الدولة وملكها طغان، وكان أكثر أصحابه الترك وأكثر أصحاب صمصام الدولة الديلم ومعه تميم وأسد، فزحف إلى طغان بالأهواز، وأسرى من تستر ليكبس الأتراك الذين مع طغان فقتل في طريقه وأصبح دونهم بمرأى منهم فركبوا لقتالهم وأكمنوا له ثم قاتلوه فهزموه وفتكوا في الديلم بالقتل حرباً وصبراً.

وجاء الخبر إلى بهاء الدولة بواسط فسار إلى الأهواز فترك بها طغان، ورجع ولحق صمصام الدولة بفارس فاستلحم من وجد بها من الأتراك وهرب فلهم إلى كرمان، واستأذنوا ملك السند في اللحاق بأرضه فأذن لهم، ثم ركب لتلقيهم فقتلهم عن آخرهم. ثم جهز صمصام الدولة عساكره إلى الأهواز مع العلاء بن الحسين وكان أفتكين برامهرمز من قبل بهاء الدولة مكان أبي كاليجار المرزبان بن سفهيعون وجاء بهاء الدولة إلى خوزستان للعلاء قائد صمصام الدولة، وكاتبه وكاتب أفتكين وابن مكرم إلى أن قرب منهم، وملك البلد من أيديهم وأقاموا بظاهرها، واستمدوا بهاء الدولة فأمدهم بثمانين من الأتراك فقتلوهم عن آخرهم، وسار بهاء الدولة نحو الأهواز، ثم عاد إلى البصرة وعاد ابن مكرم إلى عسكر مكرم والعلاء والديلم في اتباعه إلى أن جاوزوا تستر إليه فاقتتلوا طويلاً وأصحاب بهاء الدولة من تستر إلى رامهرمز وهم الأتراك وأصحاب صمصام لدولة من تستر إلى أرجان فاقتتلوا ستة أشهر ورجعوا إلى الأهواز ثم رحل الأتراك إلى واسط واتبعهم العلاء قليلاً ثم رجع وأقام بعسكر مكرم.

ملك صمصام الدولة البصرة

لما رحل بهاء الدولة إلى البصرة استأمن كثير من الديلم الذين معه إلى العلاء نحو من أربعمائة، فبعثهم مع قسائده السكرستان إلى البصرة وقاتلوا أصحاب بهاء الدولة، ومال إليهم أهل البلد ومقدمهم أبو الحسن بن أبي جعفر العلوي وارتاب بهم بهاء الدولة فهرب الكثير منهم إلى السكرستان وحملوه في السفن فأدخلوه البصرة. وخرج بهاء الدولة وأصحابه فكتب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة يغريه بالبصرة، فبعث إليها جيشاً مع قائده عبد اللّه بن مرزوق فغلب عليها السكرستان، وملكها لمهذب الدولة، ثم عاد السكرستان وقاتلها وكاتب مهذب الدولة بالصلح والطاعة والخطبة له بالبصرة، وأعطى ابنه رهينة على ذلك، فأجابه وملك البصرة وعسف بهم، وكان يظهر طاعة صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة.

ثم إن العلاء ابن الحسن نائب صمصام الدولة بخوزستان توفي بعسكر مكرم فبعث مكانه أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز وسار إلى جنديسابور فدفع عنها أصحاب بهاء الدولة وأزاح الأتراك عن ثغر خراسان جملة وعادوا إلى واسط وكاتب جماعة منهم ففزعوا إليه، ثم زحف إليهم أبو محمد مكرم والأتراك وجرت بينهم وقائع، ثم انتفض أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز ورجع إلى طاعة بهاء الدولة وهو بواسط سنة ثمان وثمانين

فاستوزره ودبر أمره واستدعاه إلى مظاهرة قائده ابن مكرم بعسكر مكرم فسار إليه وكانت من إسماعيل خديعة تورط فيها بهاء الدولة واستمد بدر بن حسنويه فأمده بعض الشيء وكاد يهلك، ثم جاءه الفرج بقتل صمصام الدولة.

مقتل صمصام الدولة

كان صمصام الدولة بن عضد الدولة مستولياً على فارس كما ذكرناه، وكان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين ببعض قلاع فارس، فجرد الموكلين بهما في القلعة وأخرجوا عنها واجتمع إليهما من الأكراد وكان جماعة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لما أسقطهم من الديوان، فلحقوا بابني بختيار وقصدوا أرجان وتجهز صمصام الدولة إليهم وكان أبو علي بن أستاذ هرمز مقيماً بنسا فشاره به الجند وحبسه ابنا بختيار ثم نجا. وقصد صمصام الدولة القلعة التي على شيراز ليتمنع فيها إلى أن يأتيه المدد، فلم يمكنه أن يأتيها من ذلك، وأشار عليه باللحاق بأبي علي بن أستاذ هرمز أو بالأكراد، وجاءته منهم طائفة فخرج معهم بأمواله فنهبوه وسار بعض الرودمان على مرحلتين من شيراز. وجاء أبو النصر بن بختيار إلى شيراز فقبض صاحب الرودمان على صمصام الدولة، وأخذه منه أبو نصر وقتله في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين لتسع سنين من إمارته على فارس.

استيلاء بهاء الدولة على فارس

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا بختيار بلاد فارس، كتبا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز في الأهواز بأخذ الطاعة لهما من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة فخافهما أبو علي بما كان من قتله أخويهما، وأغرى الديلم بطاعة بهاء الدولة. وراسله واستحلفه لهم فحلف وضمن لهم غائلة الأتراك الذين معه، وأغراهم بثأر أخيه من ابني بختيار فدخلوا في طاعته، وجاءه وفد من أعيانهم فاستوثقوا منه وكتبوا إلى من كان بالسوس منهم بذلك. وركب بهاء الدولة إلى نائب السوس فقاتلوه أولاً ثم اجتمعوا عليه وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان، وملكوا سائر بلاد خوزستان. وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز وقاتلهما وتسرب إليه أصحاب ابني بختيار فاستولى على شيراز سنة تسع وثمانين، ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأبو القاسم ببدر بن حسنويه، ثم بالبطيحة، وكتب أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح فجاءه وترك شيراز وأحرق قرية الرودمان حيث قتل أخوه صمصام الدولة، واستأصل أهلها وبعث عسكراً مع أبي الفتح إلى جعفر بن أستاذ هرمز إلى كرمان فملكها.

ولما لحق أبو القاسم بن بختيار ببلاد الديلم، كاتب من هنالك الديلم الذين بكرمان وفارس تسلمهم فأجابوه وسار إلى بلاد فارس، واجتمع عليه كثير من الزط والديلم والأتراك. ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن أستاذ هرمز فهزمه إلى السرجان، ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها وأكثر كرمان، وبعث بهاء الدولة الموفق بن علي بن إسماعيل في العساكر إلى جيرفت فاستأمن إليه ما كان بها من أصحاب بختيار، وملكها وتجرد في جماعة من شجعان أصحابه لاتباع ابن بختيار فلحقه بدارين، وقاتله فغدر به بعض أصحابه فقتله وحمل رأسه إلى الموفق، واستولى على بلاد كرمان وإسماعيل عليها، وعاد إلى بهاء الدولة فتلقاه وعظمه واستعفى الموفق من الخدمة فلم يعفه، ولج الموفق في ذلك فقبض عليه بهاء الدولة، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على ذويه، ثم قتله سنة أربع وتسعين واستعمل بهاء الدولة أبا محمد مكرماً على عُمان.

الخبر عن وزراء بهاء الدولة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة كان استوزر أبا نصر بن سابور بن أردشير ببغداد وقبض على وزيره أبي منصور بن صالحان قبل مسيره إلى خوزستان، وأن أبا الحسن بن المعلم كان يدبر دولته وذلك منذ سنة ثمانين، فاستولى ابن المعلم على الأمور وانصرفت إليه الوجوه، فأساء السيرة وسعى في أبي نصر خواشاده وأبي عبد الله بن طاهر فقبضهما بهاء الدولة مرجعه من خوزستان، وشغب الجند وطلبوا تسليمه إليهم، ولاطفهم فلم يرجعوا فقبض عليه وسلمه إليهم فقتلوه وذلك سنة اثنتين وثمانين. ثم قبض على وزيره أبي نصر بالأهواز سنة إحدى وثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ثم استوزر بعده أبا القاسم علي بن أحمد وقبض عليه سنة اثنتين وثمانين لاتهامه بمداخلة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر بن سابور وأبا منصور بن صالحان جميعاً. وشغب الجند على أبي نصر ونهبوا داره سنة ثلاث وثمانين فاستعفى رفيقه ابن صالحان فاستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب وعاد أبو نصر إلى الوزارة بعد أن أصلح أمور الديلم فاستوزر مكانه الفاضل، وقبض عليه سنة ست وثمانين واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير فبقي شهرين، وفرق أموال بهاء الدولة في القواد ثم هرب إلى البطيحة فاستوزر بهاء الدولة مكانه عيسى

بن ماسرجس.

ولاية العراق

كان بهاء الدولة منذ استولى على فارس سنة تسع وثمانين أقام بها وولى على خوزستان والعراق أبا جعفر الحجاج بن هرمز فنزل بغداد ولقيه عميد الدولة فساءت سيرته وفسدت أموال البلاد وعظمت الفتنة ببغداد بين الشيعة وأهل السنة وتطاول الدعار والعيارون فعزله بهاء الدولة سنة تسعين، وولى مكانه أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقيه عميد الجيوش فأحسن السيرة وحسم الفتنة، وحمل إلى بهاء الدولة أموالا جليلة. ثم ولى مكانه سنة إحدى وتسعين أبا نصر سابور، وثار به الأتراك ببغداد فهرب منهم ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ والأتراك، وكان أهل السنة مع الأتراك ثم مشى الأعلام بينهم في الصلح فتهادنوا.

انقراض دول وابتداء أخرى في النواحي

وفي سنة ثمانين ابتدأت دولة بني مروان بديار بكر بعد مقتل خالهم باد، وقد مر ذكره. وفي سنة اثنتين وثمانين انقرضت دولة بني حمدان بالموصل وابتدئت دولة بني المسيب من عقيب كما نذكرها. وفي سنة أربع وثمانين انقرضت دولة بني سامان من خراسان وابتدئت دولة بني سبكتكين فيها. وفي سنة تسع وثمانين انقرضت دولة بني سامان مما وراء النهر وانقسمت بنو سبكتكين وملك الخاقان ملك الترك. وفي سنة ثمان وثمانين ابتدأت دولة بني حسنويه الأكراد بخراسان. وفي سنة تسع وتسعين كان ابتداء دولة بني صالح بن مرداس من بني كلاب بحلب كما نستوفي سياقة أخبارهم في دولهم منفردة كما شرطناه.

ظهور بني مزيد

وفي سنة سبع وثمانين خرج أبو الحسن علي بن مزيد في قومه بني أسد ونقض طاعة بهاء الدولة، فبعث إليه العساكر فهرب أمامهم وأبعد حتى امتنع عليهم. ثم بعث في الصلح والاستقامة وراجع الطاعة، ثم رجع إلى انتقاضه سنة اثنتين وتسعين، واجتمع مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل وقومه بني عقيل فحاصروا المدائن. ثم بعث إليهم أبو جعفر الحجاج وهو نائب بغداد العساكر فدفعوهم عنها، وخرج الحجاج واستنجد خفاجة فجاء من الشام وقاتل بني عقيل وبني أسد فهزموه، ثم خرج إليهم ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر، واستباح ملك بني مزيد وظهر في بغداد في مغيب أبي جعفر من الفتنة والفساد والقتل والنهب مالا يحصى فكان ذلك السبب في أن بعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر أستاذ هرمز كما مر. ولقيه عميد الجيوش فسكن الفتنة وأمن الناس.

ولما عزل أبو جعفر أقام بنواحي الكوفة وارتاب به أبو علي فجمع الديلم والأتراك وخفاجة، وسار إليه واقتتلوا بالنعمانية وذلك سنة ثلاث وتسعين، فانهزم أبو جعفر وسار أبو علي إلى خوزستان، ثم إلى السوس، فعاد أبو جعفر إلى الكوفة ورجع أبو علي في اتباعه فلم تزل الفتنة بينهما، وكل واحد منهما يستنجد ببني عقيل وبني أسد وخفاجة، حتى أرسل بهاء الدولة عن أبي علي وبعثه إلى البطيحة لفتنة بني واصل كما نذكره في دولتهم.

ولما كانت سنة سبع وتسعين جمع أبو جعفر وسار لحصار بغداد وأمده ابن حسنويه أمير الأكراد، وذلك أن عميد الجيوش ولى على طريق خراسان أبا الفضل بن عنان، وكان عدوّ البدر بن حسنويه فارتاب لذلك، واستدعى أبا جعفر وجمع له جموعاً من أمراء الأكراد منهم هندي بن سعد وأبو عيسى شادي بن محمد، ورزام بن محمد وكان أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي انصرف عن بهاء الدولة مغاضباً له، فسار معهم وكانوا عشرة آلاف وحاصروا بغداد وبها أبو الفتح بن عنان شهراً. ثم جاءهم الخبر بانهزام ابن واصل بالبطيحة الذي سار عميد الجيوش إليه فافترقوا، وعاد ابن مزيد إلى بلده وسار أبو جعفر إلى حلوان وأرسل بهاء الدولة في الطاعة عنده بتستر فأعرض عنه رغباً لعميد الجيوش.

فتنة بني مزيد وبني دبيس

كان أبو الغنائم محمد بن مزيد مقيماً عند أصهاره بني دبيس في جزيرتهم بخوزستان، فقتل أبو الغنائم بعض رجالاتهم ولحق بأخيه أبي الحسن، فانحدر أبو الحسن إليهم في ألفي فارس، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم ولقيهم فانهزم أبو الحسن، وقتل أخوه أبو الغنائم.

ظهور دعوة العلوية بالكوفة والموصل

وفي أول المائة الخامسة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل لصاحب مصر الحاكم العلوي في جميع أعماله: وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، فبعث القادر القاضي أبا بكر الباقلاني

إلى بهاء الدولة يعرّفه فأكرمه، وكتب إلى عميد الجيوش بمحاورة قرواش، وأطلق له مائة ألف دينار يستعين بها، وسار عميد الجيوش لذلك فراجع قراوش الطاعة وقطع خطبة العلويين، وكان ذلك داعياً في كتابه المحضر بالطعن في نسب العلوية بمصر، شهد فيه الرضي والمرتضى وابن البطحاوي وابن الأزرق والزكي وأبو يعلى عمر بن محمد، ومن العلماء والقضاة ابن الأكفاني وابن الجزري وأبو العباس الأبيوردي وأبو حامد الأسفرايني والكستلي والقدوري والصهيري وأبو عبد الله البيضاوي وأبو الفضل النسوي وأبو عبد الله النعمان فقيه الشيعة. ثم كتب ببغداد محضر آخر بمثل ذلك سنة أربع وأربعين وزيد فيه انتسابهم إلى الديصانية من المجوس وبنو القداح من اليهود، وكتب فيه العلوية والعباسية والفقهاء والقضاة وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد.

وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك

كان عميد الجيوش أبو علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز وكان أبو جعفر هذا من حجاب عضد الدولة، وجعل ابنه أبا علي في خدمة ابن صمصام الدولة، فلما قتل رجع إلى خدمة بهاء الدولة، ولما استولى الخراب على بغداد وظهر العيارون بعثه بهاء الدولة عليها فأصلحها وقمع المفسدين، ومات لثمان سنين ونصف من ولايته إلى أول المائة الخامسة. وولى بهاء الدولة مكانه بالعراق فخر الملك أبا غالب، فوصل بغداد وأحسن السياسة واستقامت الأمور به. واتفق لأول قدومه وفاة أبي الفتح محمد بن عنان صاحب طريق خراسان بحلوان لعشرين سنة من إمارته، وكان كثير الأجلاب على بغداد. فلما توفي ولّي ابنه أبو الشوك وقام مقامه فبعث فخر الملك العساكر لقتاله فهزموه إلى حلوان. ثم راجع الطاعة وأصلح حاله.

مقتل فخر الملك وولاية ابن سهلان

كان فخر الملك أبو غالب من أعظم وزراء بني بويه، وولى نيابة بغداد لسلطان الدولة خمس سنين وأربعة أشهر. ثم قبض عليه وقتله في ربيع سنة ست وأربعمائة، وولى مكانه أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد أصحاب الجيوش، وسار سنة تسع إلى بغداد وجرد من الطريق مع طراد بن دبيس الأسدي في طلب مهارش ومضر ابني دبيس، وكان مضر قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأراد أن يأخذ جزيرة بني أسد منه ويوليها طراداً، فساروا عن المدار واتبعهم ولحق الحسن بن دبيس آخرهم فأوقع به واستباحه. ثم استأمن له مضر ومهارش فأمنهما وأشرك معهما طراداً في الجزيرة، ورجع وأنكر عليه سلطان الدولة فعله، ووصل إلى واسط والفتنة قائمة فأصلحها، ثم بلغه اشتداد الفتن ببغداد فسار وأصلحها وكان أمر الديلم قد ضعف ببغداد وخرجوا إلى واسط.

الفتنة بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس

قد ذكرنا أن سلطان الدولة لما ملك بعد أبيه بهاء الدولة ولّى أخاه أبا الفوارس على كرمان، فلما سار إليها اجتمع إليه الديلم وحملوه على الانتقاض وانتزاع الملك من يد أخيه، فسار سنة ثمان إلى شيراز. ثم سار منها ولقيه سلطان الدولة فهزمه وعاد إلى كرمان، واتبعه سلطان الدولة فخرج هارباً من كرمان، ولحق محمود بن سبكتكين مستنجداً به فأكرمه وأمده بالعساكر، وعليهم أبو سعيد الطائي من أعيان قواده، فسار إلى كرمان وملكها، ثم إلى شيراز كذلك، وعاد سلطان الدولة لحربه فهزمه وأخرجه من بلاد فارس إلى كرمان، وبعث الجيوش في أثره فانتزعوا كرمان منه، ولحق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب همذان، وترك ابن سبكتكين لأنه أساء معاملة قائده أبي سعيد الطائي. ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة فأكرمه، وبعث إليه أخوه جلال الدولة من البصرة مالاً وثياباً وعرض عليه المسير إليه فأبى وأرسل أخاه سلطان الدولة في المراجعة وأعاده إلى ولاية كرمان، وقبض سلطان الدولة سنة تسع على وزير بن فانجس وإخوته، وولّى مكانه أبا غالب الحسن بن منصور.

خروج الترك من الصين

وفي سنة ثمان وأربعين خرجت من المفازة التي بين الصين وما وراء النهر أمم عظيمة من الترك تزيد على ثلاثمائة ألف خيمة ويسمون الخيمة جذكان، ويتخذونها من الجلود. وكان معظمهم من الخطا قد ظهروا في ملك تركستان، فمرض ملكها طغان فساروا إليها وعاثوا فيها، ثم أبل طغان واستنفر المسلمين من جميع النواحي وسار إليهم في مائة وعشرين ألفاً فهزموا أمامه واتبعهم مسيرة ثلاثة أشهر، ثم كبسهم فقتل منهم نحواً من مائتي ألف وأسر مائة ألف، وغنم من الدواب والبيوت وأواني الذهب

والفضة من معمول الصين ما لا يعبر عنه.

ملك مشرف الدولة وغلبه على سلطان الدولة

لم يزل سلطان الدولة ثابت القدم في ملكه بالعراق إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة فشغب عليه الجند ونادوا بشعار أخيه مشرف الدولة فأشير عليه بحبسه فعف عن ذلك وأراد الانحدار إلى واسط فطلبه الجند في الاستخلاف فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، وسار إلى الأهواز، فلما بلغ تستر استوزر سهلان، وقد كان اتفق مع أخيه مشرف الدولة الوزير ابن سهلان أن لا يستوزره، فاستوحش لذلك مشرف الدولة، وبعث سلطان الدولة الوزير ابن سهلان ليخرجه من العراق فجمع أتراك واسط وأبا الأغرديس بن علي بن مزيد، ولقي ابن سهلان عند واسط فهزمه وحاصره بها حتى اشتد حصاره، وجهده الحصار فصالحه ونزل عن واسط فملكها في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة.

وسار الديلم الذين بواسط في خدمته، وسار أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة إلى وفاقه وخطب له ببغداد، وقبض على ابن سهلان وكحله، وسار سلطان الدولة إلى أرجان ثم رجع إلى الأهواز وثار عليه الأتراك الذين هنالك، ودعوا بشعار مشرف الدولة، وخرجوا إلى السابلة فأفسدوها، وعاد مشرف الدولة إلى بغداد فخطب له بها سنة اثنتي عشرة، وطلب منه الديلم أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان فبعث معهم وزيره أبا غالب، فلما وصلوا إلى الأهواز انتفضوا ونادوا بشعار سلطان الدولة، وقتلوا أبا غالب لسنة ونصف من وزارته. ولحق الأتراك الذين كانوا معه طراد بن دبيس بالجزيرة، وبلغ سلطان الدولة قتل أبي غالب وافتراق الديلم فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز وملكها. ثم وقع الصلح بينهما على يد أبي محمد بن أبي مكرم ومؤيد الملك الرخجي على أن تكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة.

واستوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرخجي ولقبه مؤيد الملك بعد قتل أبي غالب ومصادرة ابنه أبي العباس. ثم قبض عليه سنة أربع عشرة بعد حول من وزارته بسعاية الأثير الخادم فيه واستوزر مكانه أبا القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي، كان أبوه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان، وهرب إلى مصر وخدم الحاكم فقتله وهرب ابنه أبو القاسم هذا إلى الشام، وحمل حسان بن الفرج بن الجراح الطائي على نقض طاعة الحاكم والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة، فاستقدمه إلى الرملة وبايعه. ثم خلفه وعاد إلى مكة وقصد أبو القاسم العراق، واتصل بالوزير فخر الملك وأمره القادر بإبعاده، فلحق قرواش أمير الموصل، وكتب له ثم عاد إلى العراق وتنقلت به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرخجي، وكان خبيثاً محتالاً حسوداً. ثم قدم مشرف الدولة إلى بغداد سنة أربع عشرة ولقيه القادر ولم يلق أحداً قبله.

الخبر عن وحشة الأكراد وفتنة الكوفة

كان الأثير عنبر الخادم مستولياً في دولة مشرف الدولة الوزير أبي القاسم المغربي عديله في حملها فنقم الأتراك عليهما، وطلب من مشرف الدولة الخراج من بغداد خوفاً على أنفسهما، فخرج معهما غضباً على الأتراك، ونزلوا على قرواش بالسندية. واستعظم الأتراك ذلك، وبعثوا بالاعتذار والرغبة. وقال أبو القاسم المغربي: دَخْل بغداد إنما هو أربعمائة ألف وخرجها ستمائة فاتركوا مائة وأحتمل مائة فأجابوه إلى ذلك خداعاً. وشعر بوصولهم فهرب لعشرة أشهر من وزارته.

ثم كانت فتنة بالكوفة بين العلوية والعباسية، وكان لأبي القاسم المغربي صهر وصداقة في العلوية فاستدعى العباسيون المغربي عليهم فلم يعدهم لمكان المغربي. وأمرهم بالصلح فرجعوا إلى الكوفة، واستمد كل واحد منهم خفاجة فأمدوهم وافترقوا عليهم، واقتتل العلوية والعباسية فغلبهم العلوية ولحقوا ببغداد، ومنعوا الخطبة يوم الجمعة، وقتلوا بعض قرابة العلوية الذين بالكوفة، فعهد القادر للمرتضى أن يصرف أبا الحسن علي بن أبي طالب ابن عمر عن نقابة الكوفة. ويردها إلى المختار صاحب العباسية. وبلغ ذلك المغربي عند قرواش بسُرَّ مَنْ رأى فشرع في إرغام القادر. وبعث القادر إلى قرواش يطرده فلحق بابن مروان في ديار بكر.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه جلال الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة سنة ست عشرة في ربيع لخمس سنين من ملكه، وولى مكانه بالعراق أخوه أبو طاهر جلال الدولة صاحب البصرة، وخطب له ببغداد، واستقدم فبلغ واسط ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته، وخطب

ببغداد في شوال لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة، وهو بخوزستان يحارب عمه أبا الفوارس صاحب كرمان. وسمع جلال الدولة بذلك فبادر إلى بغداد ومعه وزيره أبو سعد بن ماكولا. ولقيه عسكرها فردوه أقبح رد ونهبوا خزائنه فعاد إلى البصرة، واستحثوا أبا كاليجار فتباطأ لشغله بحرب عمه، وسار إلى كرمان لقتال عمه فملكها واعتصم عمه بالجبال. ثم تراسلا واصطلحا على أن تبقى كرمان لأبي الفوارس وتكون بلاد فارس لأبي كاليجار.

قدوم جلال الدولة إلى بغداد

ولما رأى الأتراك اختلال الأحوال وضعف الدولة بفتنة العامة وتسلط العرب والأكراد بحصار بغداد، وطمعهم فيها وأنهم بقوا فوضى، وندموا على ما كان منهم في رد جلال الدولة، اجتمعوا إلى الخليفة يرغبون اليه أن يحضر جلال الدولة من البصرة ليقيم أمر الدولة فبعث إليه القاضي أبا جعفر السمناني بالعهد عليه وعلى القواد فسار جلال الدولة إلى بغداد في جمادى من سنة ثمان عشرة. وركب الخليفة في الطيار لتلقيه فدخل ونزل التجيبي وأمر بضرب الطبل في أوقات الصلوات. ومنعه الخليفة من ذلك فقطعه مغاضباً. ثم أذن له الخليفة فيه فأعاده، وأرسل مؤيد الملك أبا علي الرخجي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش يستدعيه يعتذر عن الأتراك، ثم شغب الأتراك عليه سنة تسع عشرة وحاصروه بداره وطلبوا من الوزير أبي علي بن ماكولا أرزاقهم، ونهبوا دوره ودور الكتاب والحواشي. وبعث القادر من أصلح بينهم وبينه فسكن شغبهم. ثم خالفوا أبا كاليجار بن سلطان الدولة إلى البصرة فملكها، ثم ملك كرمان بعد وفاة صاحبها قوام الدولة أبي الفوارس ابن بهاء الدولة كما نذكر في أخبارهم في دولتهم عند إفرادها بالذكر فنستوفي أخبارهم ودول سائر بني بويه وبني وشمكير وبني المرزبان وغيرهم من الديلم في النواحي.

مسير جلال الدولة إلى الأهواز

كان نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة، ولم تكن الحلة يومئذ بمدينة، قد خطب لأبي كاليجار لمضايقة المقلد بن أبي الأغر الحسن بن مزيد وجمع عليه منيعاً أمير بني خفاجة وعساكر بغداد، فخطب هو لأبي كاليجار واستدعاه لملك واسط وبها الملك العزيز ابن جلال الدولة فلحق بالنعمانية وتركها، وضيق عليه نور الدولة من كل جهة فتفرق ناس من أصحابه وهلك الكثير من أثقاله واستولى أبو كاليجار على واسط ثم خطب له في البطيحة وأرسل إلى قرواش صاحب الموصل وعنده الأثير عنبر يستدعيهما إلى بغداد، فانحدر عنبر إلى الكحيل ومات به. وقعد قرواش وجمع جلال الدولة عساكره ببغداد، واستمد أبا الشوك وغيره، وانحدر إلى واسط وأقام هنالك من غير قتال، وضاقت عليه الأحوال. واعتزم أبو كاليجار على مخالفته إلى بغداد، وجاءه كتاب أبي الشوك بزحف عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق، ويشير بالصلح والاجتماع لمدافعتهم، فأنفذ أبو كاليجار الكتاب لجلال الدولة فلم يته عن قصده، ودخل الأهواز فنهبها، وأخذ من دار الإمارة مائتي ألف دينار، واستباح العرب والأكراد سائر البلد وحمل حريم كاليجار إلى بغداد سبياً فماتت أمه في الطريق.

وسار أبو كاليجار لاعتراض جلال الدولة وتخلف عنه دبيس لدفع خفاجة عن أصحابه، واقتتلوا في ربيع سنة إحدى وعشرين ثلاثة أيام فانهزم أبو كاليجار، وقتل من أصحابه ألفان. ودبيس لما فارق أبا كاليجار وصل إلى بلده وجمع إليه جماعة من قومه، وكانوا منتقضين عليه بالجامعين فأوقع بهم وحبس منهم وردهم إلى وفاقه. ثم لقي المقلد بن أبي الأغر وعساكر جلال الدولة فانهزم أمامهم وأسر جماعة من أصحابه، وسار منهزماً إلى أبي سنان غريب بن مكين فأصلح حاله مع جلال الدولة وأعاده إلى ولايته على ضمان عشرة آلاف دينار، وسمع بذلك المقلد فجمع خفاجة ونهبوا النيل وسورا وأحرقوا منازلها. ثم عبر المقلد إلى أبي الشوك فأصلح أمره مع جلال الدولة، ثم بعث جلال الدولة سنة إحدى وعشرين عسكره إلى المدار فملكها من يد أصحاب أبي كاليجار واستباحوها، وبعث أبو كاليجار عسكره لمدافعتهم فهزموهم وثار أهل البلد بهم فقتلوهم، ولحق من نجا منهم بواسط وعادت المدار إلى أبي كاليجار.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً وانتزاعها منه

لما استولى جلال الدولة على واسط نزل بها ولده وبعث وزيره أبا علي بن ماكولا إلى البطائح فملكها. ثم بعثه إلى البصرة وبها أبو منصور بختيار بن علي من قبل أبي كاليجار، فسار في السفن وعليهم أبو عبد الله الشرابي صاحب البطيحة فلقي بختيار وهزمه. ثم سار الوزير أبو علي في أثره في السفن فهزمه بختيار. وسيق إليه أسيراً فأكرمه وبعثه إلى أبي كاليجار فأقام عنده، وقتله

غلمانه خوفاً منه لقبيح منهم اطلع عليه. وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة ومكوساً فاضحة. ولما أصيب الوزير أبو علي بعث جلال الدولة من كان عنده من جند البصرة فقاتلوا عسكر أبي كاليجار، وهزموهم وملكوا البصرة ونجا من كان بها إلى أبي منصور بختيار بالأبلة. وبعث السفن لقتاله من البصرة فظفر بهم أصحاب جلال الدولة فسار بختيار بنفسه وقاتلهم، وانهزم وقتل وأخذ كثير من السفهاء.

وعزم الأتراك بالبصرة على المسير إلى الأبلة وطلبوا المال من العامل فاختلفوا وتنازعوا وافترقوا، ورجع صاحب البطيحة، واستأمن آخرون إلى أبي الفرج بن مسافجس وزير أبي كاليجار، وجاء إلى البصرة فملكها. ثم توفي بختيار نائب الملك أبي كاليجار في البصرة، وقام بعده صهره أبو القاسم بطاعة أبي كاليجار في البصرة. ثم استوحش وانتقض وبعث بالطاعة لجلال الدولة وخطب له، وبعث إلى ابنه العزيز بواسط يستدعيه فسار إليه وأخرج عساكر أبي كاليجار وأقام معه إلى سنة خمس وعشرين والحكم لأبي القاسم. ثم أغراه الديلم به وأنه يتغلب عليه، فأخرجه العزيز وامتنع بالأبلة وحاربهم أياماً، وأخرج العزيز عن البصرة، ولحق بواسط وعاد أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

وفاة القادر ونصب القائم

ثم توفي القادر باللّه سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة لإحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وكانت الخلافة قبلها قد ذهب رونقها بمجسارة الديلم والأتراك عليها، فأعاد إليها أبهتها وجدد ناموسها، وكان له في قلوب الناس هيبة. ولما توفي نصب للخلافة ابنه أبو جعفر عبد اللّه، وقد كان أبوه بايع له بالعهد في السنة قبلها لمرض طرقه وأرجف الناس بموته، فبويع الآن واستقرت له الخلافة ولقب القائم بأمر اللّه. وأول من بايعه الشريف المرتضى. وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة ويخطب له في بلاده، فأجاب وبعث بالهدايا. ووقعت لأول بيعته فتنة بين أهل السنة والشيعة، وعظم الهرج والنهب والقتل وخربت فيها أسواق وقتل كثير من جباة المكوس. وأصيب أهل الكرخ وتطرق الدعار إلى كبس المنازل ليلاً، وتنادى الجند بكراهية جلال الدولة وقطع خطبته. ولم يجبهم القائم إلى ذلك وفرق جلال الدولة فيهم الأموال فسكنوا، وقعد في بيته وأخرج دوابه من الأصطبل وأطلقها بغير سائس ولا حافظ لقلة العلف. وطلب الأتراك منه أن يحملهم في كل وقت فأطلقها، وكانت خمسة عشر وفقد الجاري فطرد الطواشي والحواشي والأتباع وأغلق باب داره والفتنة تتزايد إلى آخر السنة.

وثوب الجند بجلال الدولة وخروجه من بغداد

ثم جاء الأتراك سنة ست وعشرين إلى جلال الدولة فنهبوا داره وكتبه ودواوينه وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي فهرب إلى حلة غريب بن مكين، وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا ببغداد لأبي كاليجار وهو بالأهواز واستقدموه فأشار عليه بعض أصحابه بالامتناع فاعتذر إليهم فأعادوا لجلال الدولة. وساروا إليه معتذرين وأعادوه بعد ثلاثة وأربعين يوماً واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، ثم عزله واستوزر عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم. ثم أمره بمصادرة أبي المعمر بن الحسين البساسيري فاعتقله في داره، وجاء الأتراك لمنعه فضربوا الوزير ومزقوا ثيابه وأدموه. وركب جلال الدولة فأطفأ الفتنة وأخذ من البساسيري ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.

ثم شغب الجند ثانياً في رمضان وأنكروا تقديم الوزير أبي القاسم من غير علمهم وأنه يرد التعرض لأموالهم فوثبوا به ونهبوا داره وأخرجوه إلى مسجد هنالك فوكلوا به فوثب العامة مع بعض القواد من أصحابه فأطلقوه وأعادوه إلى داره. وذهب هو في الليل إلى الكرخ بحرمه ووزيره أبو القاسم معه. واختلف الجند في أمره وأرسلوا إليه بأن يملكوا بعض أولاده الأصاغر، وينحدر هو إلى واسط، وهو في خلال ذلك يستميلهم حتى فرق جماعتهم، وجاء الكثير إليه فأعادوه إلى داره، واستخلف البساسيري في جماعة للجانب الغربي سنة خمس وعشرين لاشتداد أمر العيارين ببغداد، وكثر الهرج وكفايته هو ونهضته.

ثم عاد أمر الخلافة والسلطنة إلى أن اضمحل وتلاشى، وخرج بعض الجند إلى قرية فلقيهم أكراد وأخذوا دوابهم وجاؤوا إلى بستان القائم فتعللوا على عماله بأنهم لم يدفعوا عنهم، ونهبوا ثمرة البستان، وعجز جلال الدولة من عتاب الأكراد وعقاب الجند، وسخط القائم أمره وتقدم إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل المراتب الدينية، فرغب جلال الدولة من الجند أن يحملهم إلى ديوان الخلافة فحملوا وأطلقوا، وعظم أمر العيارين وصاروا في حماية الجند وانتشر العرب في النواحي فنهبوها وأفسدوا السابلة، وبلغوا جامع المنصور من البلد، وسلبوا النساء في المقبرة.

ولحق الوزير أبو سعيد وزير جلال الدولة بأبي الشوك

مفارقاً للوزارة، ووزر بعده أبا القاسم فكثرت مطالبات الجند عليه فهرب وأخذه الجند وجاؤوا به إلى دار الملك حاسراً عارياً إلا من قميص خلق، وذلك لشهرين من وزارته، وعاد سعيد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. ثم ثار الجند سنة سبع وعشرين بجلال الدولة وأخرجوه من بغداد بعد أن استمهلهم ثلاثاً فأبوا ورموه بالحجارة فأصابوه، ومضى إلى دار المرتضى بالكرخ، وسار منها إلى رافع بن الحسين بن مكن بتكريت، ونهب الأتراك داره وقلعوا أبوابها، ثم أصلح القائم شأنه مع الجند، وأعاده وقبض على وزيره أبي سعيد بن عبد الرحيم، وهي وزارته السادسة. وفي هذه السنة نهى القائم عن التعامل بالدنانير المعزية، وتقدم إلى الشهود أن لا يذكروها في كتب التعامل.

الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار

ترددت الرسل سنة ثمان وعشرين بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار حتى انعقد بينهما الصلح على يد القاضي أبي الحسن الماوردي وأبي عبد الله المرودشي، واستحلف كل واحد منهما للآخر، وأظهر جلال الدولة سنة تسع وعشرين من القائم الخطاب بملك الملوك فرد ذلك إلى الفتيا، وأجازه القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصهيري، والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي، ومنع منه القاضي أبو الحسن الماوردي ورد عليهم فأخذ بفتواهم، وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إليه. ثم انقطع عنه بهذه الفتيا، ولزم بيته من رمضان إلى النحر فاستدعيه جلال الدولة وحضر خائفاً، وشكره على القول بالحق وعدم المحاباة، وقد عدت إلى ما تحب فشكره ودعا له، وأذن للحاضرين بالانصراف معه، وكان الإذن لهم تبعاً له.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث أبو كاليجار عساكره إلى البصرة مع العادل أبي منصور ابن مسافنة، وكانت في ولاية الظهير أبي القاسم..... وليها بعد بختيار، انتقض عليه مرة ثم عاد، وكان يحمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله ودامت دولته. ثم تعرض ملا الحسين بن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان فكاتب أبا كاليجار وضمن البصرة بزيادة ثلاثين ألف دينار، وبعث أبو كاليجار العساكر مع ابن مسافيه كما ذكرنا. وجاء المدد من عمان إلى البصرة، وملكوها وقبض على الظهير أبي القاسم، وأخذت أمواله وصودر على مائتي ألف دينار فأعطاها، وجاء الملك أبو كاليجار البصرة فأقام بها أياماً وولى فيها ابنه عز الملوك ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ثم عاد إلى الأهواز وحمل معه الظهر.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ثم شغب الأتراك على جلال الدولة سنة اثنتين وثلاثين وخيموا بظاهر البلد ونهبوا منها مواضع. وخيم جلال الدولة بالجانب الغربي وأراد الرحيل عن بغداد فمنعه أصحابه فاستمد دبيس بن مزيد وقرواشاً صاحب الموصل فأمدوه بالعساكر. ثم صلحت الأحوال بينهم وعاد إلى داره وطمع الأتراك وكثر نهبهم وتعديهم وفسدت الأمور بالكلية.

ابتداء دولة السلجوقية

قد تقدم لنا أن أمم الترك في الربع الشرقي الشمالي من المعمور: ما بين الصين إلى تركستان إلى خوارزم والشاش وفرغانة، وما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمذ، وأن المسلمين أزاحوهم أول الملة عن بلاد ما وراء النهر وغلبوهم عليها، وبقيت تركستان وكاشغر والشاش وفرغانة بأيديهم يؤدون عليها الجزاء. ثم أسلموا عليها فكان لهم بتركستان ملك ودولة، نذكرها فيما بعد، فإن استفحالها كان في دولة بني سامان جيرانهم فيما وراء النهر. وكان في المفازة بين تركستان وبلاد الصين أمم من الترك لا يحصيهم إلا خالقهم لاتساع هذه المفازة وبعد أقطارها فإنها فيما يقال مسيرة شهر من كل جهة، فكان هنالك أحياء بادون متجعون رجالة غذاؤهم اللحوم والألبان والذرة في بعض الأحيان ومراكبهم الخيل، ومنها كسبهم وعليها قيامهم وعلى الشاء والبقر من بين الأنعام، فلم يزالوا بتلك القفار مذودين عن العمران بالحامية، والمالكين له في كل جهة.

وكان من أمهم الغز والخطا والتتر وقد تقدم ذكر هؤلاء الشعوب. فلما انتهت دولة ملوك تركستان وكان شغر إلى غايتها، وأخذت في الاضمحلال والتلاشي كما هو شأن الدول وطبيعتها. تقدم هؤلاء إلى بلاد تركستان فأجلبوا عليها بما كان غالب معاشهم في تخطف الناس من السبل، وتناول الرزق بالرماح شأن أهل القفر البادين، وأقاموا بمفازة بخارى.

ثم انقرضت دولة بني سامان ودولة أهل تركستان. واستولى

محمود بن سبكتكين من قواد بني سامان وصنائعهم على ذلك كله. وعبر بعض الأيام إلى بخارى فحضر عنده أرسلان بن سلجوق فقبض عليه، وبعث به إلى بلاد الهند فحبسه، وسار إلى أحيائه فاستباحها، ولحق بخراسان، وسارت العساكر في اتباعهم فلحقوا بأصبهان وهمّ صاحبها علاء الدولة بن كالويه بالغدر بهم، وشعروا بذلك فقاتلوه بأصبهان فغلبهم، فانصرفوا إلى أذربيجان فقاتلهم صاحبهم وهشودان من بني المرزبان. وكانوا لما قصدوا أصبهان بقي فلهم بنواحي خوارزم فعاثوا في البلاد، وخرج إليهم صاحب طوس وقاتلهم. وجاء محمود بن سبكتكين فسار في اتباعهم من رستاق إلى جرجان، ورجع عنهم، ثم استأمنوا فاستخدمهم وتقدمهم يغمر، وأنزل ابنه بالري.

ثم مات محمود وولي أخوه مسعود، وشغل بحروب الهند فانتفضوا وبعث إليهم قائداً في العساكر، وكانوا يسمون العراقية وأمراؤهم يومئذ كوكاش ومرقاوكول ويغمر وباصعكي، ووصلوا إلى الدامغان فاستباحوها، ثم سمنان، ثم عاثوا في أعمال الري واجتمع صاحب طبرستان وصاحب الري مع قائد مسعود وقاتلوهم فهزمهم الغز وفتكوا فيهم وقصدوا الري فملكوه، وهرب صاحبه إلى بعض قلاعه فتحصن بها، وذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة.

واستألفهم علاء الدولة بن كالويه ليدافع بهم ابن سبكتكين فأجابوه أولاً، ثم انتقضوا. وأما الذين قصدوا أذربيجان منهم، ومقدموهم بوقا وكوكباش ومنصور ودانا فاستألفهم وهشودان ليستظهر بهم، فلم يحصل على بغيته من ذلك. وساروا إلى مراغة سنة تسع وعشرين فاستباحوها، ونالوا من الأكراد الهديانية فحاربوهم وغلبوهم وافترقوا فرقتين، فرجع بوقا إلى أصحابهم الذين بالري، وسار منصور وكوكباش إلى همذان، وبها أبو كاليجار بن علاء الدولة بن كالويه فظاهرهم على حصاره متى خسرو ابن مجد الدولة فلما جهده الحصار لحق بأصبهان وترك البلد فدخلوها واستباحوها، وفعلوا في الكرخ مثل ذلك، وحاصروا قزوين حتى أطاعوهم وبذلوا لهم سبعة آلاف دينار. وسار طائفة منهم إلى بلد الأرمن فاستباحوها وأثخنوا فيها ورجعوا إلى أرمينية.

ثم رجعوا من الري إلى حصار همذان فتركها أبو كاليجار وملكوها سنة ثلاثين ومعهم متى خسرو المذكور فاستباحوا تلك النواحي إلى أستراباذ، وقاتلهم أبو الفتح بن أبي الشوك صاحب الديلنور فهزمهم وأسر منهم وصالحوه على إطلاق أسراهم. ثم مكروا بأبي كاليجار أن يكون معهم ويدبر أمرهم، وغدروا به ونهبوه. وخرج علاء الدولة من أصبهان فلقي طائفة منهم فأوقع بهم وأثخن فيهم وأوقع وهشودان بمن كان منهم في أذربيجان وظفر بهم الأكراد وأثخنوا فيهم، وفرقوا جماعتهم.

ثم توفي كول أمير الفرق التي بالري، وكانوا لما أجازوا من وراء النهر إلى خراسان بقي بمواطنهم الأولى هنالك طغرلبك بن ميكاييل بن سلجوق وإخوته داود وسعدان ونيال وهمفري فخرجوا إلى خراسان من بعدهم. وكانوا أشد منهم شوكة وأقوى عليهم سلطاناً فسار ينال أخو طغرلبك إلى الري فهربوا إلى أذربيجان ثم إلى جزيرة ابن عمر وديار بكر. ومكر سليمان بن نصير الدولة بن مروان صاحب الجزيرة بمنصور بن عزّ علي منهم فحبسه وافترق أصحابه، وبعث قرواش صاحب الموصل إليهم جيشه فطردهم وافترقت جموعهم، ولحق الغز بديار بكر وأثخنوا فيها، وأطلق نصير الدولة أميرهم منصوراً من يد ابنه فلم ينتفع منهم بذلك. وقاتلهم صاحب الموصل فحاصروه ثم ركب في السفين ونجا إلى السند وملكوا البلد وعاثوا فيها. وبعث قرواش إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس بن مزيد وأمراء العرب. وفرض الغز على أهل الموصل عشرين ألف دينار فثار الناس بهم، وكان كوكباش قد فارق الموصل فرجع ودخلها عنوة في رجب سنة خمس وثلاثين، وأفحش في القتل والنهب. وكانوا يخطبون للخليفة ولطغرلبك بعده، فكتب الملك جلال الدولة إلى طغرلبك يشكو له بأحوالهم، فكتب إليه أن هؤلاء الغز كانوا في خدمتنا وطاعتنا حتى حدث بيننا وبين محمود بن سبكتكين ما علمتم، ونهضنا إليه، وساروا في خدمتنا في نواحي خراسان فتجاوزوا حدود الطاعة وملكة الهيبة، ولا بد من إنزال العقوبة بهم، وبعث إلى نصير الدولة بعده يكفهم عنه.

وسار دبيس بن مزيد وبنو عقيل إلى قرواش صاحب الموصل وقعد جلال الدولة عن إنجاده لما نزل به من الأتراك. وسمع الغز بجموع قرواش فبعثوا إلى من كان بديار بكر منهم واجتمعوا إليهم، واقتتل الفريقان فانهزم العرب أول النهار، ثم أتيحت لهم الكرة على الغز فهزموهم واستباحوهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم فساروا إلى ديار بكر وبلاد الأرمن والروم، وكثر عيثهم فيها وكان طغرلبك وإخوته لما جاؤوا إلى خراسان طالت الحروب بينهم وبين عساكر بني سبكتكين حتى غلبوهم وحصل لهم الظفر، وهزموا سياوشي حاجب مسعود آخر هزائمهم، وملكوا هراة فهرب عنها سياوشي الحاجب ولحق بغزنة، وزحف إليهم مسعود ودخلوا البرية، ولم يزل في اتباعهم ثلاث سنين.

ثم انتهزوا فيه الفرصة باختلاف عسكره يوماً على الماء فانهزموا وغنموا عسكره وسار طغرلبك إلى نيسابور سنة إحدى وثلاثين فملكها وسكن السادياج، وخطب له بالسلطان الأعظم العمال في النواحي. وكان الدعار قد اشتد ضررهم بنيسابور فسد أمرهم وحسم عللهم، واستولى السلجوقية على جميع البلاد. وسار بيقو إلى هراة فملكها وسار داود إلى بلخ وبها القوتياق حاجب مسعود فحاصره، وعجز مسعود عن إمداده فسلم البلد لداود، واستقل السلجوقية بملك البلاد أجمع. ثم ملك طغرلبك طبرستان وجرجان من يد أنو شروان بن متوجهر قابوس، وضمنها أنو شروان بثلاثين ألف دينار، وولى على جرجان مرداويج من أصحابه بخمسين ألف دينار، وبعث القائم القاضي أبو الحسن الماوردي إلى طغرلبك فقرر الصلح بينه وبين جلال الدولة القائم بدولته ورجع بطاعته.

فتنة قرواش مع جلال الدولة

كان قرواش قد أنفذ عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، واستغاث بجلال الدولة، وأمر قرواشاً بالكف عنه فلم يفعل وسار لحصاره بنفسه. وبعث إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم على جلال الدولة فاطلع على ذلك فبعث أبا الحارث أرسلان البساسيري في صفر سنة اثنتين وثلاثين للقبض على نائب قرواش بالسندسية، واعترضه العرب فمنعوه ورجع وأقاموا بين صرصر وبغداد يفسدون السابلة، وجمع جلال الدولة العساكر وخرج إلى الأنبار وبها قرواش فحاصروها. ثم اختلفت عقيل على قرواش فرجع إلى مصالحة جلال الدولة.

وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار

لما قلت الجبايات ببغداد مد جلال الدولة يده إلى الجواني فأخذها وكانت خاصة بالخليفة. ثم توفي جلال الدولة أبو طاهر ابن بهاء الدولة في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة من ملكه. ولما مات خاف حاشيته من الأتراك والعامة فانتقل الوزير كمال الملك بن عبد الرحيم وأصحابه الأكابر إلى حرم دار الخلافة، واجتمع القواد للمدافعة عنهم وكاتبوا الملك العزيز أبا منصور بن جلال الدولة في واسط بالطاعة واستقدموه وطلبوا حتى البيعة فراوضهم فيها، فكاتبهم أبو كاليجار عنها فعدلوا إليه. وجاء العزيز من واسط وانتهى إلى النعمانية فغدر به عسكره، ورجعوا إلى واسط وخطبوا لأبي كاليجار. وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد، ثم فارقه إلى أبي الشوك فغدر به فسار إلى نيال أخي طغرلبك فأقام عنده مدة. ثم قصد بغداد مختفياً فظهر على بعض أصحابه فقتله، ولحق هو بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين سنة إحدى وأربعين.

وأما أبو كاليجار فخطب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين. وبعث إلى الخليفة بعشرة آلاف دينار وبأموال أخرى فرقت إلى الجند ولقبه القائم بمحي الدين، وخطب له أبو الشوك ودبيس بن مزيد ونصير الدولة بن مروان بأعمالهم. وسار إلى بغداد ومعه وزيره أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن فسانجس. وهمّ القائم لاستقباله فاستعفى من ذلك، وخلع على أرباب الجيوش، وهم البساسيري والنساوري والهمام أبو اللقاء. وأخرج عميد الدولة أبا سعيد من بغداد فمضى إلى تكريت، وعاد أبو منصور بن علاء الدولة بن كالويه صاحب أصبهان إلى طاعته، وخطب له على منبره انحرافاً عن طغرلبك. ثم راجعه بعد الحصار واصطلحا على مال يحمله، وبعث أبو كاليجار إلى السلطان طغرلبك في الصلح وزوجه ابنته فأجاب وتم بينهما سنة تسع وثلاثين.

وفاة أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم

كان أبو كاليجار والمرزبان بن سلطان الدولة قد سارا سنة أربعين إلى نواحي كرمان، وكان صاحبها بهرام بن لشكرستان من وجوه الديلم قد منع الحمل فتنكر له أبو كاليجار، وبعث إلى أبي كاليجار يحتمي به، وهو بقلعة بردشير فملكها من يده، وقتل بهرام بعض الجند الذين ظهر منهم على الميل لأبي كاليجار فسار إليه ومرض في طريقه، ومات بمدينة جنابا في سنة أربعين لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه. ولما توفي نهب الأتراك معسكره وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور، وأرادوا نهبه فمنعهم الديلم، وساروا إلى شيراز فملكها أبو منصور واستوحش الوزير منه فلحق ببعض قلاعه، وامتنع بها، ووصل خبر وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ولده الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز فبايع له الجند وبعث إلى الخليفة في الخطبة والتلقب بالملك الرحيم فأجابه إلى ما سأل إلا اللقب بالرحيم للمانع الشرعي من ذلك. واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة، وكان بها أخوه أبو علي، واستولى أخوه أبو منصور كما ذكرنا على شيراز فبعث الملك الرحيم أخاه أبا سعد في العساكر فملكها، وقبض على أخيه أبي منصور، وسار العزيز جلال الدولة من عند

قرواش إلى البصرة فدافعه أبو علي بن كاليجار عنها. ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان، وأطاعه من بها من الجند وكثرت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة.

مسير الملك الرحيم إلى فارس

ثم سار الملك الرحيم من الأهواز إلى فارس سنة إحدى وأربعين، وخيم بظاهر شيراز، ووقعت فتنة بين أتراك شيراز وبغداد فرحل أتراك بغداد إلى العراق، وتبعهم الملك الرحيم لانحرافه عن أتراك شيراز. وكان أيضاً منحرفاً عن الديلم بفارس لميلهم إلى أخيه فلاستون بأصطخر، وانتهى إلى الأهواز فأقام بها واستخلف بأرجان أخويه أبا سعد وأبا طالب فزحف إليهما أخوهما فلاستون. وخرج الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز للقائهم فلقيهم وانهزم إلى البصرة ثم إلى واسط. وسارت عساكر فارس إلى الأهواز فملكوها وخيموا بظاهرها. ثم شغبوا على أبي منصور. وجاء بعضهم إلى الملك الرحيم فبعث إلى بغداد واستقر الجند الذين بها، وسار إلى الأهواز فملكها وأقام ينتظر عسكر بغداد. ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة اثنتين وأربعين.

ثم تقدم سنة ثلاث وأربعين ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما. وسار هزار شب بن تنكير ومنصور بن الحسين الأسدي فيمن معهما من الديلم والأكراد من أرجان إلى تستر فسبقهم الملك الرحيم إليها وغلبهم عليها. ثم زحف في عسكر هزارشب فوافاه أميره أبو منصور بمدينة شيراز فاضطربوا ورجعوا، ولحق منهم جماعة بالملك الرحيم فبعث عساكر إلى رامهرمز وبها أصحاب أبي منصور فحاصرها وملكها في ربيع سنة ثلاث وأربعين. ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر إلى بلاد فارس لأن أخاه أبا نصر خسرو كان بأصطخر، وضجر من تغلب هزارشب بن تنكير صاحب أخيه أبي منصور فكتب إلى أخيه الملك الرحيم بالطاعة فبعث إليه أخاه أبا سعد فأدخله أصطخر وملكه.

ثم اجتمع أبو منصور فلاستون وهزارشب ومنصور بن الحسين الأسدي، وساروا للقاء الملك الرحيم بالأهواز، واستمدوا السلطان طغرلبك وأبوا طاعته، فبعث إليهم عسكراً، وكان قد ملك أصبهان واستطال وافترق كثير من أصحاب الملك الرحيم عنه، مثل البساسيري ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد وبقي في الديلم الأهوازية وبعض الأتراك من بغداد ورأى أن يعود من عسكر مكرم إلى الأهواز ليتحصن بها وينتظر عسكر بغداد. ثم بعث أخاه أبا سعد إلى فارس كما ذكرنا ليشغل أبا منصور وهزارشب ومن معهما عن قصده فلم يعرجوا على ذلك. وساروا إليه بالأهواز وقاتلهم فانهزم إلى واسط ونهب الأهواز وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي عبد الرحيم فلم يوقف له على خبر.

وسار أبو منصور وأصحابه إلى شيراز لأجل أبي سعد وأصحابه فلقيهم قريباً منها، وهزمهم مرات واستأمن إليه الكثير منهم، واعتصم أبو منصور ببعض القلاع وأعيدت الخطبة بالأهواز للملك الرحيم، واستدعاه الجند بها وعظمت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة في غيبة الملك الرحيم واقتتلوا، وبعث القائم نقيب العلويين ونقيب العباسيين لكشف الأمر بينهما فلم يوقف على يقين في ذلك. وزاد الأمر وأحرقت مشاهد العظماء من أهل البيت، وبلغ الخبر إلى دبيس بن مزيد فاتهم القائم بالمداهنة في ذلك فقطع الخطبة له ثم عوتب فاستعتب وعاد إلى حاله.

مهادنة طغرلبك للقائم

قد تقدم لنا شأن الغز واستيلائهم على خراسان من يد بني سبكتكين عام اثنتين وثلاثين، ثم استيلاء طغرلبك على أصبهان من يد ابن كاليه سنة اثنتين وأربعين. ثم بعث السلطان طغرلبك أرسلان ابن أخيه داود إلى بلاد فارس فافتتحها سنة اثنتين وأربعين، واستلحم من كان بها من الديلم، ونزل مدينة نسا وبعث إليه القائم بأمر الله بالخلع والألقاب، وولاه على ما غلب عليه فبعث إليه طغرلبك بعشرة آلاف دينار، وأعلاق نفيسة من الجواهر والثياب والطيب، وإلى الحاشية بخمسة آلاف دينار، وللوزير رئيس الرؤساء بألفين، وحضروا العيد في سنة ثلاث وأربعين ببغداد فأمر الخليفة بالاحتفال في الزينة والمراكب والسلاح. ثم سار الغز سنة أربع وأربعين إلى شيراز وبها الأمير أبو سعد أخو الملك الرحيم فقاتلهم وهزمهم كما نذكر في أخبارهم.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة من يد أخيه

ثم بعث الملك الرحيم سنة أربع وأربعين جيوشه إلى البصرة مع بصيرة البساسيري فحاصروا بها أخاه أبا علي وقاتلوا عسكره في السفن فهزموهم وملكوا عليهم دجلة والأنهر. وجاء الملك الرحيم بالعسكر في البر واستأمن إليه قبائل ربيعة ومضر فأمنهم

وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان بطاعتهم. ومضى أخوه أبو علي إلى شط عمان وتحصن به فسار إليه الملك الرحيم، وملك عليه شط عمان ولحق بعبادان، وسار منها إلى أرجان. ثم لحق بالسلطان طغرلبك بأصبهان فأكرمه وأصهر إليه، وأقطع له وأنزله بقلعة من أعمال جرباذقان. وولى الملك الرحيم وزيره البساسيري على البصرة، وسار إلى الأهواز وأرسل منصور بن الحسين وهزارشب في تسليم أرجان وتستر فتسلمها واصطلحا. وكان المقدم على أرجان فولاذ بن خسرو من الديلم فرجع إلى طاعة الملك الرحيم سنة خمس وأربعين.

فتنة ابن أبي الشوك ثم طاعته

كان سعدي بن أبي الشوك قد أعطى طاعته للسلطان طغرلبك بنواحي الري، وسار في خدمته، وبعثه سنة أربع وأربعين في العساكر إلى نواحي العراق فبلغ النعمانية وكثر عيثه، وراسله ملد من بني عقيل قرابة قريش بن بدران في الاستظهار له على قريش ومهلهل أخي أبي الشوك فوعدهم، فسار إليهم مهلهل وأوقع بهم على عكبرا فساروا إلى سعدي وشكو إليه وهو على سامرا فسار وأوقع بعمه مهلهل وأسره وعاد إلى حلوان وهمّ الملك الرحيم بتجهيز العساكر إليه بحلوان واستقدم دبيس بن مزيد لذلك.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين ببغداد من أهل الكرخ وأهل السنة، ودخلها طوائف من الأتراك، وعم الشر واطرحت مراقبة السلطان، وركب القواد لحسم العلة فقتلوا علوياً من أهل الكرخ فنادت نساؤه بالويل فقاتلهم العامة، وأضرم النار في الكرخ بعض الأتراك فاحترق جميعه، ثم بعث القائم وسكن الأمر، وكان مهلهل لما أسر سار ابنه بدر إلى طغرلبك وابن سعدي كان عنده رهينة، وبعث إلى سعدي بإطلاق مهلهل عند ذلك، فامتنع سعدي من ذلك وانتفض على طغرلبك، وسار من همذان إلى حلوان وقاتلها فامتنعت عليه، فكاتب الملك الرحيم بالطاعة ولحقه عساكر طغرلبك فهزموه، ولحق ببعض القلاع هنالك وسار بدر في اتباعه إلى شهرزور، ثم جاءه الخبر بأن جمعاً من الأكراد والأتراك قد أفسدوا السابلة وأكثروا العيث، فخرج إليهم البساسيري واتبعهم إلى البواريج وأوقع بالطوائف منهم واستباحهم وعبروا الزاب فلم يمكنه العود إليهم ونجوا.

فتنة الأتراك

وفي سنة ست وأربعين شغب الأتراك على وزير الملك الرحيم في مطالبة أرزاقهم واستعدوه عليه فلم يعدهم فشكوا من الديوان وانصرفوا مغضبين، وباركوا من الغد لحصار دار الخليفة، وحضر البساسيري واستكشف حال الوزير فلم يقف على خبر. وكبست الدور في طلبه فكان ذلك وسيلة للأتراك في نهب دور الناس. واجتمع أهل المحال لمنعهم، ونهاهم الخليفة فلم ينتهوا فهم بالرحلة عن بغداد. ثم ظهر الوزير وأنصفهم في أرزقهم فتمادوا على بغيهم وعسفهم، واشتد عيث الأكراد والأعراب في النواحي فخربت البلاد وتفرق أهلها، وأغار أصحاب ابن بدران بالبرد وكبسوا حلل كامل بن محمد بن المسيب ونهبوها، ونهبوا في جملتها ظهراً وأنعاماً للبساسيري وانحل أمر الملك والسلطنة بالكلية.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان وعلى أرمينية والموصل

سار طغرلبك سنة أربعين إلى أذربيجان فأطاعه صاحب قبريز أبو منصور وشهودان ابن محمد وخطب له ورهن ولده عنده. ثم أطاعه صاحب جنده أبو الأسوار ثم تبايع سائر النواحي على الطاعة وأخذ رهنهم، وسار إلى أرمينية فحاصر ملاذكرد وامتنعت عليه فخرب ما جاورها من البلاد. وبعث إليه نصير الدولة بن مروان بالهدايا وقد كان دخل في طاعته من قبل وسار السلطان طغرلبك لغزو بلاد الروم واكتسحها إلى أن بلغ أردن الروم، ورجع إلى أذربيجان ثم إلى الري، وخطب له قريش بن بدران صاحب الموصل في جميع أعماله وزحف إلى الأنبار ففتحها ونهب ما فيها البساسيري فانتفض لذلك وسار في العساكر إلى الأنبار فاستعاده من يده.

وحشة البساسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد أبنا المجلبان صاحبي قريش بن بدران وبعثهما إلى القائم سراً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانتقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهراتهم ومشاهرة حواشيهم، وهم يهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه دبيس بن مزيد ممداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا

الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جمل، وشفع دبيس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

وصول الغز إلى الدسكرة ونواحي بغداد

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباذ وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتنعت عليه فخرب ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

استيلاء الملك الرحيم على شيراز

وفي سنة سبع وأربعين سار فولاذ -الذي كان بقلعة أصطخر من الديلم، وقد ذكرناه- إلى شيراز فملكها من يد أبي منصور فولاستون بن أبي كاليجار، وكان خطب بها للسلطان طغرلبك فخطب فولاذ بها للملك الرحيم ولأخيه أبي سعد يخادعهما بذلك، وكان أبو سعد بأرجان فاجتمع هو وأخوه أبو منصور على حصار شيراز في طاعة أخيهما الملك واشتد الحصار على فولاذ وعدمت الأقوات فهرب عنها إلى قلعة أصطخر وملك الأخوان شيراز وخطبا لأخيهما الملك الرحيم.

وثوب الأتراك ببغداد بالبساسيري

قد ذكرنا تأكد الوحشة بين البساسيري ورئيس الرؤساء. ثم تأكدت سنة سبع وأربعين وعظمت الفتنة بالجانب الشرقي بين العامة وبين أهل السنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الديوان حتى أذن لهم في ذلك وتعرضوا لبعض سفن البساسيري منحدرة إليه بواسط، وكشفوا فيها عن جرار خمر، فجاؤوا إلى أصحاب الديوان الذين أمروا بمساعدتهم واستدعوهم لكسرها فكسروها، واستوحش لذلك البساسيري ونسبه إلى رئيس الرؤساء. واستفتى الفقهاء في أن ذلك تعدّ على سفينته فأفتاه الحنفية بذلك. ووضع رئيس الرؤساء الأعيان على البساسيري بإذن من دار الخلافة، وأظهر معايبه. وبالغوا في ذلك، ثم قصدوا في رمضان دور البساسيري بإذن من دار الخلافة فنهبوها وأحرقوها، ووكلوا بحرمه وحاشيته وأعلن رئيس الرؤساء بذم البساسيري وأنه يكاتب المستنصر صاحب مصر فبعث القائم إلى الملك الرحيم فأمره بإبعاده فأبعده.

استيلاء السلطان طغرلبك على بغداد والخلعة والخطبة له

قد ذكرنا من قبل رجوع السلطان طغرلبك من غزو الروم إلى الري، ثم رجع إلى همذان، ثم سار إلى حلوان عازماً على الحج والاجتياز بالشام لإزالته من يد العلوية. وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وعظم الإرجاف ببغداد ونواحيها، وخيم الأتراك بظاهر البلد. وجاء الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد البساسيري عنه كما أمره القائم فسار إلى بلد دبيس بن مزيد لصهر بينهما. وبعث طغرلبك إلى لقائهما بالطاعة وإلى الأتراك بالمقاربة والوعد فلم يقبلوا، وطلبوا من القائم إعادة البساسيري لأنه كبيرهم. ولما وصل الملك الرحيم سأل من الخليفة إصلاح أمره مع السلطان طغرلبك فأشار القائم بأن يقوض الأجناد خيامهم ويخيموا بالحريم الخلافي، ويبعثوا جميعاً إلى طغرلبك بالطاعة، فقبلوا إشارته وبعثوا إلى طغرلبك بذلك فأجاب بالقبول والإحسان.

وأمر القائم بالخطبة لطغرلبك على منابر بغداد فخطب آخر رمضان من سنة سبع وأربعين، واستأذن في لقاء الخليفة وخرج إليه رؤساء الناس في موكب من القضاة والفقهاء والأشراف وأعيان الديلم. وبعث طغرلبك للقائم وزيره أبا نصر الكندري وأبلغه رسالة القائم واستخلفه له وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرلبك بغداد ونزل بباب الشماسية لخمس بقين من رمضان، وجاء هنالك قريش بن بدران صاحب الموصل وكان من قبل في طاعته.

القبض على الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه

ولما نزل طغرلبك بغداد وافترق أهل عسكره في البلد يقضون بعض حاجاتهم، فوقعت بينهم وبين بعض العامة منازعة فصاحوا بهم ورجموهم، وظن الناس أن الملك الرحيم قد اعتزم على قتال طغرلبك فتواثبوا بالغز من كل جهة إلا أهل الكرخ فإنهم سألوا من وقع إليهم من الغز. وأرسل عميد الملك وزير

طغرلبك عن عدنان بن الرضي نقيب العلويين، وكان مسكنه بالكرخ فشكره عن السلطان طغرلبك. ودخل أعيان الديلم وأصحاب الملك الرحيم إلى دار الخلافة نفياً للتهمة عنهم. وركب أصحاب طغرلبك فقاتلوا العامة وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً ونهبوا سائر الدروب ودور رئيس الرؤساء وأصحابه والرصافة، ودور الخلفاء، وكان بها أموال الناس نقلت إليها للحرمة فنهب الجميع، واشتد البلاء وعظم الخوف وأرسل طغرلبك إلى القائم بالعتاب ونسبه ما وقع إلى الملك الرحيم والديلم، وأنهم انحرفوا، وكانوا برآء من ذلك.

وتقدم إليهم الخليفة بالحضور عند طغرلبك مع رسوله، فلما وصلوا إلى الخيام نهبها الغز ونهبوا رسل القائم معهم، ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم ومن معه، وبعث بالملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وكان ذلك لست سنين من ملكه. ونهب في تلك الهيعة قريش بن بدران صاحب الموصل ومن معه من العرب، ونجا سلبياً إلى خيمة بدر بن المهلهل، واتصل بطغرلبك خبره فأرسل إليه وخلع عليه وأعاده إلى مخيمه، وبعث القائم إلى طغرلبك بإنكار ما وقع في إخفار ذمته في الملك الرحيم وأصحابه، وأنه يتحول عن بغداد فأطلق له بعضهم بلكسكسالربه وأنزع الإقطاعات من يد أصحابه الملك الرحيم فلحقوا بالبساسيري وكثر جمعه، وبعث طغرلبك إلى دبيس بالطاعة وإنفاذ البساسيري فخطب له في بلاده، وطرد البساسيري فسار إلى رحبة ملك، وكاتب المستنصر العلوي صاحب مصر.

وأمر طغرلبك بأخذ أموال الأتراك الجند وأهملهم وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا الجانب الغربي من تكريت إلى النيل، والجانب الشرقي إلى النهروانات وخرب السواد وانجلى أهله وضمن السلطان طغرلبك البصرة والأهواز من هزارشب بن شكر بن عياض بثلثمائة وستين ألف دينار، وأقطعه أرجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز دون ما سواها.

وأقطع أبا علي بن كاليجار ويسين وأعمالها وأمر أهل الكرخ بزيادة: الصلاة خير من النوم في نداء الصبح، وأمر بعمارة دار المملكة وانتقل إليها في شوال. وتوفي ذخيرة الدين أبو العباس محمد بن القائم باللّه في ذي القعدة من هذه السنة. ثم أنكح السلطان طغرلبك من القائم باللّه خديجة بنت أخيه داود واسمها أرسلان خاتون، وحضر للعقد عميد الملك الكندي وزير طغرلبك وأبو علي بن أبي كاليجار وهزارشب بن شكر بن عياض الكردي وابن أبي الشوك وغيرهم من أمراء الأتراك من عسكر طغرلبك. وخطب رئيس الرؤساء وولي العقد وقبل الخليفة بنفسه. وحضر نقيب النقباء أبو علي بن أبي تمام، ونقيب العلويين عدنان بن الرضي والقاضي أبو الحسن الماوردي وغيرهم.

انتقاض أبي الغنائم بواسط

كان رئيس الرؤساء سعى لأبي الغنائم بن المجلبان في ولاية واسط وأعمالها، فوليها وصادر أعيانها، وجند جماعة وتقوى بأهل البطيحة، وخندق على واسط، وخطب للمستنصر العلوي بمصر فسار أبو نصر عميد العراق لحربه فهزمه وأسر من أصحابه، ووصل إلى السور فحاصره حتى تسلم البلد. ومر أبو الغنائم ومعه الوزير بن فسانجس ورجع عميد العراق إلى بغداد بعد أن ولى واسط منصور بن الحسين فعاد ابن فسانجس إلى واسط وأعاد خطبة العلوي وقتل من وجده من الغز، ومضى منصور بن الحسين إلى المدار وبعث يطلب المدد فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء بحصار واسط فحاصرها، وقاتله ابن فسانجس فهزمه وضيق حصاره، واستأمن إليه جماعة من أهل واسط فملكها وهرب فسانجس واتبعوه فأدركوه وحمل إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين فشُهِّر وقتل.

الوقعة بين البساسيري وقطلمش

وفي سلخ شوال من سنة ثمان وأربعين سار قطلمش وهو ابن عم السلطان طغرلبك وجدَّ بني قليج أرسلان ملوك بلاد الروم، فسار ومعه قريش بن بدران صاحب الموصل لقتال البساسيري ودبيس، وسار بهم إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر العلوي صاحب مصر وبعث إليهم بالخلع. وكان معهم جابر بن ناشب وأبو الحسن وعبد الرحيم وأبو الفتح بن ورائر ونصر بن عمر ومحمد بن حماد.

مسير طغرلبك إلى الموصل

لما كان السلطان طغرلبك قد ثقلت وطأته على العامة ببغداد، وفشا الضرر والأذى فيهم من معسكره فكاتبه القائم يعظه ويذكره، ويصف له ما الناس فيه فأجابه السلطان بالاعتذار بكثرة العساكر. ثم رأى رؤيا في ليلته كأن النبي ﷺ يوبخه على ذلك، فبعث وزيره عميد الملك إلى القائم بطاعة أمره فيما أمر، وأخرج الجند من وراء العامة ورفع المصادرات. ثم بلغه خبر وقعة قطلمش مع البساسيري وانحراف قريش صاحب الموصل إلى

العلوية، فتجهز وسار عن بغداد ثلاثة عشر شهراً من نزوله عليها، ونهبت عساكره أوانا وعكبرا، وحاصر تكريت حتى رجع صاحبها نصر بن عيسى إلى الدعوة العباسية، وقتله السلطان، ورجع عنه إلى البواريج فتوفي نصر وخافت أمه غريبة بنت غريب بن حكن أن يملك البلد أخوه أبو العشام، فاستخلفت أبا الغنائم ابن المجلبان ولحقت بالموصل، ونزلت على دبيس بن مزيد.

وأرسل أبو الغنائم رئيس الرؤساء فأصلح حاله ورجع إلى بغداد وسلم له تكريت، وأقام السلطان بالبواريخ إلى سنة تسع وأربعين، وجاءه أخوه ياقوتي في العساكر فسار إلى الموصل، وأقطع مدينة بلد هزارشب بن شكر الكردي، وأراد العسكر نهبها فمنعهم السلطان، ثم أذن لهم في اللحاق إلى الموصل، وتوجه إلى نصيبين، وبعث هزارشب إلى البرية في ألف فارس ليصيب من العرب، فسار حتى قارب رحالهم، وأكمن الكمائن، وقاتلهم ساعة. ثم استطرهم واتبعوه فخرجت عليهم الكمائن فانهزموا وأثخن فيهم الغز بالقتل والأسر. وكان فيهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة، وحمل الأسرى إلى السلطان فقتلهم أجمعين. ثم بعث دبيس وقريش إلى هزارشب يستعطف لهم السلطان فقبل السلطان ذلك منهما، وورد أمر البساسيري إلى الخليفة فرحل ومعه الأتراك البغداديون، ومقبل ابن المقلد وجماعة من عقيل إلى الرحبة، وأرسل السلطان إليهما أبا الفتح بن ورام يستخبرهما فجاء بطاعتهما، ويمسير هزارشب إليهما فأذن له السلطان في المسير، وجاء إليهما واستحلفهما وحثهما على الحضور فخافا.

وأرسل قريش أبا السيد هبة الله بن جعفر، ودبيس ابنه منصوراً فأكرمهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما. وكان لقريش نهر الملك وبادرويا والأنبار وهيت ودجيل ونهر بيطر وعكبرا وأوانا وتكريت والموصل ونصيبين. ثم سار السلطان إلى ديار بكر فحاصر جزيرة ابن عمر وبعث إليه يستعطفه ويبذل له المال، وجاء إبراهيم نيال أخو السلطان وهو محاصر، ولقيه الأمراء والناس، وبعث هزارشب إلى دبيس وقريش يحذرهما فانحدر دبيس إلى بلده بالعراق. وأقام قريش عند البساسيري بالرحبة ومعه ابنه مسلم، وشكا قطلمش ما أصاب أهل سنجار منه عند هزيمته أمام قريش ودبيس، فبعث العساكر إليها، وحاصرها ففتحها عنوة واستباحها، وقتل أميرها علي ابن مرجي وشفع إبراهيم في البارقين فتركها وسلمها الله وسلم معها الموصل وأعمالها ورجع إلى بغداد في سنة تسع وأربعين فخرج رئيس الرؤساء للقائه عن القائم، وبلغه سلامه وهديته، وهي جام من ذهب فيه جواهر، وألبسه لباس الخليفة وعمامته فقبل السلطان ذلك بالشكر والخضوع والدعاء، وطلب لقاء الخليفة، فأسعف وجلس له جلوساً فخماً. وجاء السلطان في البحر فقرب له لما نزل من السهيرية من مراكب الخليفة، والقائم على سرير علوه سبعة أذرع متوشحاً البردة ويده القضيب، وقبالته كرسي لجلوس السلطان فقبل الأرض وجلس على الكرسي، وقال له رئيس الرؤساء عن القائم: أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك، ولاك ما ولاه الله من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية، فقبل الأرض، وأفيضت عليه الخلع وخوطب بملك المشرق والمغرب، وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ودفع إليه كتاب العهد، وخرج فبعث إلى القائم خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك متقين بخيولهم وسلاحهم، إلى ما في معنى ذلك من الثياب والطيب وغيرهما.

فتنة نيال مع أخيه طغرلبك ومقتله

كان إبراهيم نيال قد ملك بلاد الجبل وهمذان واستولى على الجهات من نواحيها إلى حلوان عام سنة سبع وثلاثين. ثم استوحش من السلطان طغرلبك بما طلب منه أن يسلم إليه مدينة همذان والقلاع فأبى من ذلك نيال وجمع جموعاً وتلاقيا فانهزم ينال وتحصن بقلعة سرماج فملكها عليه بعد الحصار، واستنزله منها، وذلك سنة إحدى وأربعين. وأحسن إليه طغرلبك وخيره بين المقام معه أو إقطاع الأعمال فاختار المقام. ثم لما ملك طغرلبك بغداد وخطب له بها سنة سبع وأربعين، خرج إليه البساسيري مع قريش بن بدران صاحب الموصل ودبيس بن مزيد صاحب الحلة، وسار طغرلبك إليهم من بغداد، ولحقه أخوه إبراهيم ينال فلما ملك الموصل سلمها إليه وجعلها لنظره مع سنجار والرحبة وسائر تلك الأعمال التي لقريش، ورجع إلى بغداد سنة تسع وأربعين.

ثم بلغه سنة خمسين بعدها أنه سار إلى بلاد الجبل فاستراب به وبعث إليه يستقدمه بكتابه وكتاب القائم مع العهد الكندي فقدم معه. وفي خلال ذلك قصد البساسيري وقريش بن بدران الموصل فملكاها وجفلوا عنها فاتبعهم إلى نصيبين، وخالفه أخوه إبراهيم ينال إلى همذان في رمضان سنة خمسين. يقال: إن العلوي صاحب مصر والبساسيري كاتبوه واستمالوه وأطمعوه في السلطنة، فسار السلطان في اتباعه من نصيبين، ورد وزيره عميد الملك الكندي وزوجته خاتون إلى بغداد، ووصل إلى همذان ولحق به من كان ببغداد من الأتراك فحاصر همذان في قلعة من

العسكر، واجتمع لأخيه خلق كثير من الترك وحلف لهم أن لا يصالح طغرلبك ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته. وجاءه محمد وأحمد ابنا أخيه أرباش بأمداد من الغز فقوي بهم، ووهن طغرلبك فأفرج عنه إلى الري، وكاتب إلى أرسلان ابن أخيه داود، وقد كان ملك خراسان بعد أبيه سنة إحدى وخمسين كما يذكر في أخبارهم، فزحف إليه في العساكر ومعه أخوه ياقوت وقاروت بك، ولقيهم إبراهيم فيمن معه فانهزم، وجيء به وبابني أخيه محمد وأحمد أسرى إلى طغرلبك فقتلهم جميعاً ورجع إلى بغداد لاسترجاع القائم.

دخول البساسيري بغداد وخلع القائم ثم عوده

قد ذكرنا أن طغرلبك سار إلى همذان لقتال أخيه وترك وزيره عميد الملك الكندي ببغداد مع الخليفة، وكان البساسيري وقريش بن بدران فارقا الموصل عند زحف السلطان طغرلبك إليهما، فلما سار عن بغداد لقتال أخيه بهمذان خالفه البساسيري وقريش إلى بغداد فكثر الإرجاف بذلك، وبعث عن دبيس بن مزيد ليكون حاجبه ببغداد ونزلوا بالجانب الشرقي، وطلب من القائم الخروج معه إلى أحيائه، واستدعى هزارشب من واسط للمدافعة، واستمهل في ذلك فقال العرب: لا نشير فأشيروا بنظركم، وجاء البساسيري ثامن ذي القعدة سنة خمسين في أربعمائة غلام على غاية من سوء الحال ومعه أبو الحسين بن عبد الرحيم، وجاء حسين بن بدران في مائة فارس وخيموا مفترقين عن البلد، واجتمع العسكر والقوم إلى عميد العراق، وأقاموا إزاء البساسيري وخطب البساسيري ببغداد للمستنصر العلوي صاحب مصر بجامع المنصور، ثم بالرصافة، وأمر بالأذان بحي على خير العمل، وخيم بالزاهر، وكان هوى البساسيري لمذاهب الشيعة، وترك أهل السنة للانحراف عن الأتراك فرأى الكندي المطاولة لانتظار السلطان، ورأى رئيس الرؤساء المناجزة وكان غير بصير بالحرب، فخرج لقتالهم في غفلة من الكندي، فانهزم وقتل من أصحابه خلق ونهب باب الأزج وهو باب الخلافة.

وهرب أهل الحريم الخلافي فاستدعى القائم العميد الكندي للمدافعة عن دار الخلافة فلم يرعهم إلا اقتحام العدو عليهم من الباب النوبي، فركب الخليفة ولبس السواد، والنهب قد وصل باب الفردوس، والعميد الكندي قد استأمن إلى قريش فرجع ونادى بقريش من السور فاستأمن إليه على لسان رئيس الرؤساء، واستأمن هو أيضاً معه، وخرجا إليه وسارا معه ونكر البساسيري على قريش نقضه لما تعاهدا عليه، فقال: إنما تعاهدنا على الشركة فيما يستولي عليه، وهذا رئيس الرؤساء لك والخليفة لي.

ولما حضر رئيس الرؤساء عند البساسيري ومحنه وسأله العفو فأبى منه، وحمل قريش القائم إلى معسكره على هيئته، ووضع خاتون بنت أخي السلطان طغرلبك في يد بعض الثقات من خواصه وأمره بخدمتها، وبعث القائم ابن عمه مهارش فسار به إلى بلده حديثة خان وأنزله بها. وأقام البساسيري ببغداد وصلى عيد النحر بالألوية المصرية وأحسن إلى الناس وأجرى أرزاق الفقهاء ولم يتعصب لمذهب. وأنزل أم القائم بدارها وسهل جرايتها، وولى محمود بن الأفرم على الكوفة، وسعى الفرات وأخرج رئيس الرؤساء من محبسه آخر ذي الحجة فصلبه عند التجيبي لخمسين سنة من تردده في الوزارة. وكان ابن ماكرلا قد قبل شهادته سنة أربع عشرة، وبعث البساسيري إلى المستنصر العلوي بالفتح والخطبة له بالعراق. وكان هنالك أبو الفرج ابن أخي أبي القائم المغربي، فاستهان بفعله وخوفه عاقبته، وأبطأت أجوبته مدة، ثم جاءت بغير ما أمل، وسار البساسيري من بغداد إلى واسط والبصرة فملكها، وأراد قصر الأهواز فبعث صاحبها هزارشب بن شكر فأصلح أمره على مال يحمله.

ورجع البساسيري إلى واسط في شعبان سنة إحدى وخمسين، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي إلى هزارشب، وقد كان ولى بغداد أباه على ما يذكر. ثم جاء الخبر إلى البساسيري بظفر طغرلبك بأخيه، وبعث إليه والي قريش في إعادة الخليفة إلى داره، ويقيم طغرلبك، وتكون الخطبة والسكة له فأبى البساسيري من ذلك، فسار طغرلبك إلى العراق، وانتهى إلى قصر شيرين، وأجفل الناس بين يديه. ورحل أهل الكرخ بأهليهم وأولادهم براً وبحراً، وكثر عيث بني شيبان في الناس، وارتحل البساسيري بأهله وولده سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين لحول كامل من دخوله وكثر الهرج في المدينة والنهب والإحراق. ورحل طغرلبك إلى بغداد بعد أن أرسل من طريقه الأستاذ أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران بالشكر على فعله في القائم وفي خاتون بنت أخيه زوجة القائم، وأن أبا بكر بن فورك جاء بإحضارهما والقيام بخدمتهما.

وقد كان قريش بعث إلى مهارش بأن يدخل معهم إلى البرية بالخليفة ليصد ذلك طغرلبك عن العراق، ويتحكم عليه بما يريد فأبى مهارش لنقض البساسيري عهوده، واعتذر بأنه قد عاهد الخليفة القائم بما لا يمكن نقضه ورحل بالخليفة إلى العراق، وجعل

طريقه على بدران بن مهلهل. وجاء أبو فورك إلى بدر فحمله معه إلى الخليفة وأبلغه رسالة طغرلبك وهداياه، وبعث طغرلبك للقائه وزيره الكندي والأمراء والحجاب بالخيام والسرادقات والمقربات بالمراكب الذهبية فلقوه في بلد بدر. ثم خرج السلطان فلقيه بالنهروان واعتذر عن تأخره بوفاة أخيه داود بخرسان وعصيان إبراهيم بهمذان، وأنه قتله على عصيان. وأقام حتى رتب أولاد داود في مملكته وقال: إنه يسير إلى الشام في اتباع البساسيري. وطلب صاحب مصر فقلده القائم سيفه إذ لم يجد سواه، وأبدى وجهه للأمراء فحيوه وانصرفوا. وتقدم طغرلبك إلى بغداد فجلس في الباب النوبي مكان الحاجب، وجاء القائم فأخذ طغرلبك بلجام بغلته إلى باب داره وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وسار السلطان إلى معسكره وأخذ في تدبير أموره.

مقتل البساسيري

ثم أرسل السلطان طغرلبك خمارتكين في ألفين إلى الكوفة، واستقر معه سرايا بن منيع في بني خفاجة، وسار السلطان طغرلبك في أثرهم فلم يشعر دبيس وقريش والبساسيري وقد كانوا نهبوا الكوفة إلا والعساكر قد طلعت عليهم من طريق الكوفة، فأجفلوا نحو البطيحة. وسار دبيس ليرد العرب إلى القتال فلم يرجعوا، ومضى معهم، ووقف البساسيري وقريش فقتل من أصحابهما جماعة وأسر أبو الفتح بن ورام ومنصور بن بدران وحماد بن دبيس، وأصاب البساسيري سهم فسقط عن فرسه، وأخذ رأسه لمتنكبرز وأتى العميد الكندري وحمله إلى السلطان، وغنم العسكر جميع أموالهم وأهليهم، وحمل رأس البساسيري إلى دار الخلافة فعلق قبالة النوبي في منتصف ذي الحجة. ولحق دبيس بالبطيحة ومعه زعيم الملك أبو الحسن عبد الرحيم، وكان هذا البساسيري من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث ونسبه في الترك. وهذه النسبة المعروفة له نسبة إلى مدينة بفارس حرفها الأول متوسط بين الفاء والباء، والنسبة إليه فسوي، ومنها أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح. وكان أولاً ينسب إليها فلذلك قيل فيه: هو بساسيري.

مسير السلطان إلى واسط وطاعة دبيس

ثم انحدر السلطان إلى واسط أول سنة اثنتين وخمسين وحضر عنده هزارسب بن شكر من الأهواز، وأصلح حال دبيس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، أحضرهما عند السلطان وضمن واسط أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة الأغر أبو سعد سابور بن المظفر، وأصعد السلطان إلى بغداد، واجتمع بالخليفة، ثم سار إلى بلد الجبل في ربيع سنة اثنين وخمسين. وأنزل ببغداد الأمير برسو شحنة، وضمن أبو الفتح المظفر بن الحسين في ثلاث سنين بأربعمائة ألف دينار، ورد إلى محمود الأخرم إمارة بني خفاجة، وولاه الكوفة وسقي الفرات وخواص السلطان بأربعة آلاف دينار في كل سنة.

وزارة القائم

ولما عاد القائم إلى بغداد ولى أبا تراب الأشيري على الأنهار وحضور المراكب، ولقبه حاجب الحجاب، وكان خدمه بالحديثة ثم سعى الشيخ أبو منصور في وزارة أبي الفتح بن أحمد بن دارست على أن يحمل مالاً فأجيب وأحضر من الأهواز في منتصف ربيع من سنة ثلاث وخمسين فاستوزره وكان من قبل تاجراً لأبي كاليجار، ثم ظهر عجزه في استيفاء الأموال فعزله، وعاد إلى الأهواز. وقدم أثر ذلك أبو نصر بن جهير وزير نصير الدولة بن مروان نازعاً منه إلى الخليفة القائم فقبله واستوزره، ولقبه فخر الدولة.

عقد طغرلبك على ابنة الخليفة

كان السلطان طغرلبك قد خطب من القائم ابنته على يد أبي سعد قاضي الري سنة ثلاث وخمسين، فاستنكف من ذلك. ثم بعث أبا محمد التميمي في الاستعفاء من ذلك وإلا فيشترط ثلاثمائة ألف دينار وواسط وأعمالها. فلما ذكر التميمي ذلك للوزير عميد الملك بنى الأمر على الإجابة قال: ولا يحسن الاستعفاء، ولا يليق بالخليفة طلب المال، وأخبر السلطان بذلك فسر به وأشاعه في الناس ولقب وزيره عميد الملك وأتى أرسلان خاتون زوجة القائم ومعه مائة ألف ألف دينار وما يناسبها من الجواهر والجوار، وبعث معهم قرامرد بن كاكويه وغيره من أمراء الري، فلما وصلوا إلى القائم استشاط وهم بالخروج من بغداد. وقال له العميد: ما جمع لك في الأول بين الامتناع والاقتراح وخرج مغضباً إلى النهروان فاستوقفه قاضي القضاة والشيخ أبو منصور بن يوسف. وكتب من الديوان إلى خمارتكين من أصحاب السلطان بالشكوى من عميد الملك وجاءه الجواب بالرفق. ولم يزل عميد الملك يريض الخليفة وهو يتمنع إلى أن رحل في جمادى من سنة أربع وخمسين. ورجع إلى السلطان وعرفه بالحال، ونسب

القضية إلى خمارتكين فتنكر له السلطان وهرب، واتبعه أولاد نيال فقتلوه بثأر أبيهم، وجعل مكانه سارتكين وبعث للوزير بشأنه.

وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف بالعتب، وطلب بنت أخي زوجة القائم فأجاب الخليفة حينئذ إلى الأصهار، وفوض إلى الوزير عميد الكندري عقد النكاح على ابنته للسلطان، وكتب بذلك إلى أبي الغنائم المجلبان فعقد عليها في شعبان من تلك السنة بظاهر تبريز. وحمل السلطان للخليفة أموالاً كثيرة وجواهر لولي العهد وللمخطوبة، وأقطع ما كان بالعراق لزوجته خاتون المتوفاة للسيدة بنت الخليفة. وتوجه السلطان في المحرم سنة خمس وخمسين من أرمينية إلى بغداد ومعه من الأمراء أبو علي بن أبي كاليجار وسرخاب بن بدر وهزار وأبو منصور بن قرامرد بن كاكويه، وخرج الوزير ابن جهير فتلقاه، وترك عسكره بالجانب الغربي، ونادى الناس بهم. وجاء الوزير ابن العميد لطلب المخطوبة فأفرد له القائم دوراً لسكناه وسكنى حاشيته، وانتقلت المخطوبة إليها وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان فقبل الأرض، وحمل لها مالاً كثيراً من الجواهر وأولم أياماً، وخلع على جميع أمرائه وأصحابه، وعقد ضمان بغداد على أبي سعد الفارسي بمائة وخمسين ألف دينار، وأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقين من المواريث والمكوس، وقبض على الأعرابي سعد ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر بن فضلان بمائتي ألف.

وفاة السلطان طغرلبك وملك ابن أخيه داود

ثم سار السلطان طغرلبك من بغداد في ربيع الآخر إلى بلد الجبل، فلما وصل الري أصابه المرض وتوفي ثامن رمضان من سنة خمس وخمسين، وبلغ خبر وفاته إلى بغداد فاضطربت، واستقدم القائم مسلم بن قريش صاحب الموصل ودبيس بن مزيد وهزارشب صاحب الأهواز وبني ورام وبدر بن مهلهل فقدموا، وأقام أبو سعد الفارسي ضامن بغداد سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلال، وخرج مسلم بن قريش من بغداد فنهب النواحي، وسار دبيس بن مزيد وبنو خفاجة وبنو ورام والأكراد لقتاله. ثم استتيب ورجع إلى الطاعة وتوفي أبو الفتح بن ورام مقدم الأكراد والجاوانية، وحمل العامة السلاح لقتال الأعراب فكانت سبباً لكثرة الذعار.

ولما مات طغرلبك بايع عميد الدولة الكندري بالسلطنة لسليمان بن داود، وجعفر بك، وكان ربيب السلطان طغرلبك خلف أخاه جعفر بك داود على أمه، وعهد إليه بالملك، فلما خطب له اختلف عليه الأمر وسار باغي سيان وأردم إلى قزوين فخطب لاخيه ألب أرسلان وهو محمد بن داود، وهو يومئذ صاحب خراسان ووزيره نظام الملك سار إلى المذكور، وسأل الناس إليه وشعر الكندري باختلال أمره فخطب بالري للسلطان ألب أرسلان وبعده لأخيه سليمان. وزحف ألب أرسلان في العساكر من خراسان إلى الري فلقيه الناس جميعاً ودخلوا في طاعته، وجاء عميد الملك الكندري إلى وزيره نظام الملك فخدمه وهاداه فلم يغن عنه، وخشي السلطان غائلته فقبض عليه سنة ست وخمسين وحبسه بمرو الروذ.

ثم بعث بعد سنة من محبسه بقتله في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين، وكان من أهل نيسابور كاتباً بليغاً. فلما ملك طغرلبك نيسابور، وطلب كاتباً فدله عليه الموفق والد أبي سهل فاستكتبه واستخلصه، وكان خصياً يقال: إن طغرلبك خصاه لأنه تزوج بامرأة خطبها له، وغطى عليه فظفر به فحاصره وأقره على خدمته. وقيل: أشاع عند أعدائه أنه تزوجها ولم يكن ذلك فخصى نفسه ليأمن غائلته، وكان شديد التعصب على الشافعية والأشعرية.

واستأذن السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، ثم أضاف إليهم الأشعرية فاستعظم ذلك أئمة السنة. وفارق خراسان أبو القاسم القشيري ثم أبو المعالي إلى مكة فأقام أربعة سنين يتردد بين الحرمين يدرس ويفتي حتى لقب إمام الحرمين. فلما جاءت دولة ألب أرسلان أحضرهم نظام الملك وزيره فأحسن إليهم وأعاد السطان ألب أرسلان السيدة بنت الخليفة التي كانت زوجة طغرلبك إلى بغداد، وبعث في خدمتها الأمير أيتكين السليماني، وولاه شحنة ببغداد، وبعث معها أيضاً أبا سهل محمد بن هبة اللّه المعروف بابن الموفق لطلب الخطبة ببغداد فمات في طريقه، وكان من رؤساء الشافعية بنيسابور.

وبعث السلطان مكانه العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين فمات أيضاً في طريقه، فبعث وزيره نظام الملك، وخرج عميد الملك ابن الوزير فخر الدولة بن جهير لتلقيهم، وجلس لهم القائم جلوساً فخماً في جمادى الأولى من سنة ست وخمسين، وساق الرسل بتقليد ألب أرسلان السلطنة، وسلمت إليهم الخلع بمشهد من الناس، ولقب ضياء الدولة، وأمر بالخطبة له على منابر بغداد، وأن يخاطب بالولد المؤيد حسب اقتراحه، فأرسل إلى الديوان لأخذ البيعة النقيب طراد الزينبي، فأرسل إليه بنقجوان من

أذربيجان وبايع وانتقض على السلطان ألب أرسلان من السلجوقية صاحب هراة وصغانيان، فسار إليهم وظفر بهم كما نذكر في أخبارهم ودولتهم عن أفرادها بالذكر. انتهى.

فتنة قطلمش والجهاد بعدها

كان قطلمش هذا من كبار السلجوقية وأقربهم نسباً إلى السلطان طغرلبك، ومن أهل بيته، وكان قد استولى على قومة وأقصراي وملطية، وهو الذي بعثه السلطان طغرلبك أول ما ملك بغداد سنة تسع وأربعين لقتال البساسيري وقريش بن بدران صاحب الموصل، ولقيهم على سنجار الري. فجهز ألب أرسلان العساكر من نيسابور في المحرم من سنة سبع وخمسين، وساروا على المفارقة فسبقوا قطلمش إلى الري، وجاء كتاب السلطان إليه ولقيه فلم يثبت ومضى منهزماً واستباح السلطان عسكره قتلاً وأسراً وأجلت الواقعة عنه قتيلاً، فحزن له السلطان ودفنه. ثم سار إلى بلاد الروم معتزماً على الجهاد، ومر بأذربيجان ولقيه طغرتكين من أمراء التركمان في عشيرة، وكان ممارساً للجهاد فحثه على قصده، وسلك دليلاً بين يديه فوصل إلى نجران على نهر أرس وأمر بعمل السفن لعبوره، وبعث عساكر لقتال خوي وسلماس من حصون أذربيجان، وسار هو في العساكر فدخل بلاد الكرخ وفتح قلاعها واحدة بعد واحدة كما نذكر في أخبارهم. ودوخ بلادهم وأحرق مدنهم وحصونهم، وسار إلى مدينة آني من بلاد الديلم فافتتحها وأثخن فيها وبعث بالبشائر إلى بغداد وصالحه ملك الكرخ على الجزية ورجع إلى أصبهان. ثم سار منها إلى كرمان فأطاعه أخوه قاروت بن داود جعفر بك. ثم سار إلى مرو وأصهر إليه خاقان ملك ما وراء النهر بابنته لابنه ملكشاه، وصاحب غزنة بابنته لابنه الآخر. انتهى.

العهد بالسلطنة لملكشاه بن ألب أرسلان

وفي سنة ثمان وخمسين عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه، واستخلف له الأمراء وخلع عليهم وأمر بالخطبة في سائر أعماله، وأقطع بلخ لأخيه سليمان وخوارزم لأخيه أزعزا. ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس ومازندران للأمير أبنايخ وبيغوا وجعل ولاية نقشوان ونواحيها لمسعود بن أزناس وكان وزيره نظام الملك قد ابتدأ سنة سبع وخمسين بناء المدرسة النظامية ببغداد، وتمت عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين، وعين للتدريس بها الشيخ إسحاق الشيرازي، واجتمع الناس لحضور درسه، وتخلف لأنه سمع أن في مكانها غصباً. وبقي الناس في انتظاره حتى يئسوا منه، فقال الشيخ أبو منصور: لا ينفصل هذا الجمع إلا عن تدريس، وكان أبو منصور الصباغ حاضراً فدرس وأقام مدرساً عشرين يوماً حتى سمع أبو إسحاق الشيرازي بالتدريس فاستقر بها.

وزراء الخليفة

كان فخر الدولة ابن جهير وزير القائم كما ذكرناه، ثم عزله سنة ستين وأربعمائة فلحق بنور الدولة دبيس بن مزيد بالقلوجة، وبعث القائم عن أبي يعلى والد الوزير أبي شجاع، وكان يكتب لهزارسب بن عوض صاحب الأهواز فاستقدمه ليوليه الوزارة، فقدم ومات في طريقه، وشفع دبيس بن مزيد في فخر الدولة بن جهير فأعيد إلى وزارته سنة إحدى وستين في صفر.

الخطبة بمكة

وفي سنة اثنتين وستين خطب محمد بن أبي هاشم بمكة للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وأسقط خطبة العلوي صاحب مصر وترك حي على خير العمل من الأذان، وبعث ابنه وافداً على السلطان بذلك فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة ورتب كل سنة عشرة آلاف دينار.

طاعة دبيس ومسلم بن قريش

كان مسلم بن قريش منتقضاً على السلطان، وكان هزارسب بن شكر بن عوض قد أغرى السلطان بدبيس بن مزيد ليأخذ بلاده فانتقض. ثم هلك هزارسب سنة اثنتين وستين بأصبهان منصرفاً من وفادته على السلطان بخراسان، فوفد دبيس على السلطان ومعه مشرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وخرج نظام الملك لتلقيهما وأكرمهما السلطان ورجعا إلى الطاعة.

الخطبة العباسية بحلب واستيلاء السلطان عليها

كان محمود بن صالح بن مراد قد استولى هو وقومه على مدينة حلب، وكانت للعلوي صاحب مصر. فلما رأى إقبال دولة

ألب أرسلان وقوتها خافه على بلده فحملهم على الدخول في دعوة القائم، وخطب له على منابر حلب سنة ثلاث وستين، وكتب بذلك إلى القائم، فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي بالخلع، ثم سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب ومر بديار بكر فخرج إليه صاحبها ابن مروان وخدمه بمائة ألف دينار. ومر بآمد فامتنعت عليه وبالرها كذلك. ثم نزل على حلب وبعث إليه صاحبها محمود مع نقيب النقباء طراد بالاستعفاء من الحضور فالح في ذلك وحاصره فلما اشتد عليه الحصار خرج ليلاً إلى السلطان، ومعه أمه منيعة بنت رتاب النميري ملقياً بنفسه فأكرمه السلطان وخلع عليه وأعاده إلى بلده فقام بطاعته.

واقعة السلطان مع ملك الروم وأسره

كان ملك الروم في القسطنطينية وهو أرمانوس قد خرج سنة اثنتين وستين إلى بلاد الشام في عساكر كثيفة، ونزل على منبج ونهبها وقتل أهلها، وزحف إليه محمود بن صالح بن مرداس وابن حسان الطائي في بني كلاب وطيئ ومن إليهم من جموع العرب فهزمهم، وطال عليه المقام على منبج وعزت الأقوات فرجع إلى بلاده، واحتشد وسار في مائتي ألف من الزنج والروم والروس والكرخ، وخرج في احتفال إلى أعمال خلاط ووصل إلى ملازجرد. وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوي من أذربيجان عند عوده من حلب فتشوق إلى الجهاد، ولم يتمكن من الاحتشاد، فبعث أثقاله وزوجته مع نظام الملك إلى همذان وسار فيمن حضره من العساكر، وكانوا خمسة عشر ألفاً ووطن نفسه على الاستماتة، فلقيت مقدمته عند خلاط جموع الروسية في عشرة آلاف فانهزموا وجيء بملكهم إلى السلطان فحبسه، وبعث بالأسلاب إلى نظام الملك ليرسلها إلى بغداد.

ثم تقارب العسكران وجنح السلطان للمهادنة فأبى ملك الروم فاعتزم السلطان وزحف وأكثر من الدعاء والبكاء. وعفر وجهه بالتراب. ثم حمل عليهم فهزمهم وامتلأت الأرض بأشلائهم وأسر الملك أرمانوس، جاء به بعض الغلمان أسيراً فضربه السلطان على رأسه ثلاثاً وبصق. ثم فاداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وعلى أن يطلق كل أسير عنده. وأن تكون عساكر الروم مدداً للسلطان متى يطلبها. وتم الصلح على ذلك لمدة خمسين سنة. وأعطاه السلطان عشرة آلاف دينار وخلع عليه وأطلقه، ووثب ميخائيل على الروم فملك عليهم مكان أرمانوس فجمع ما عنده من الأموال فكان مائتي ألف دينار، وجيء بطبق مملوء بجواهر قيمته تسعون ألف. ثم استولى أرمانوس بعد ذلك على أعمال الأرمن وبلادهم.

شحنة بغداد

قد ذكرنا أن السلطان ألب أرسلان ولى لأول ملكه أيتكين السليماني شحنة بغداد سنة ست وخمسين فأقام فيها مدة، ثم سار إلى السلطان في بعض مهماته، واستخلف ابنه مكانه فأساء السيرة، وقتل بعض المماليك الداوية فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، وخوطب بعزله. وكان نظام الملك يعني به فكتب فيه بالشفاعة، وورد سنة أربع وستين فقصد دار الخلافة وسأل العفو فلم يجب، وبعث إلى تكريت ليسوغها بإقطاع السلطان فبرز المرسوم من ديوان الخلافة بمنع ذلك. ولما رأى السلطان ونظام الملك إصرار القائم على عزله، بعث السلطان مكانه سعد الدولة كوهرايين اتباعا لمرضاة الخليفة. ولما ورد بغداد خرج الناس للقائه وجلس له القائم واستقر شحنة.

مقتل السلطان ألب أرسلان وملك ابنه ملكشاه

سار السلطان ألب أرسلان محمد إلى ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، وذلك سنة خمس وستين، وعبر على جسر عقده على جيحون في نيف وعشرين يوماً، وعسكره تزيد على مائتي ألف. وجيء له بمستحفظ القلاع، ويعرف بيوسف الخوارزمي فأمر بعقابه على ارتكابه فأفحش في سب السلطان فغضب وأمر بإطلاقه، ورماه بسهم فأخطأه، فسير إليه يوسف، وقام السلطان عن سريره فعثر ووقع فضربه بسكينة، وضرب سعد الدولة، ودخل السلطان خيمته جريحاً. وقتل الأتراك يوسف هذا، ومات السلطان من جراحته عاشر ربيع سنة خمس وستين لتسع سنين ونصف من ملكه، ودفن بمرو عند أبيه. وكان كريماً عادلا كثير الشكر لنعمة الله والصدقة، واتسع ملكه حتى قيل فيه سلطان العالم.

ولما مات وقد أوصى بالملك لابنه ملكشاه فجلس للملك، وأخذ له البيعة وزيره نظام الملك، وأرسل إلى بغداد فخطب له على منابرها. وكان ألب أرسلان أوصى أن يعطي أخوه قاروت بك أعمال فارس وكرمان وشيء عينه من المال، وكان بكرمان. وأن يعطي ابنه إياس بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو

خمسمائة ألف دينار، وعهد بقتال من لم يقض بوصيته. وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر فعبر الجسر في ثلاثة أيام. وزاد الجند في أرزاقهم سبعمائة ألف دينار، ونزل نيسابور وأرسل إلى ملوك الأطراف بالطاعة والخطبة فأجابوا. وأنزل أخاه إياس بن ألب أرسلان ببلخ وسار إلى الري. ثم فوض إلى نظام الملك وأقطعه مدينة طوس التي هي منشؤه وغيرها، ولقبه ألقاباً منها: أتابك ومعناها الأمير الوالد، فحمل الدولة بصرامة وكفاية وحسن سيرة، وبعث كوهرابين الشحنة إلى بغداد سنة ست وستين لاقتضاء العهد، فجلس له القائم وعلى رأسه حافده وولي عهده المقتدي بأمر الله، وسلم إلى سعد الدولة كوهرابين عهد السلطان ملكشاه بعد أن قرأ الوزير أوله في المحفل وعقد له اللواء بيده ودفعه إليه.

وفاة القائم ونصب المقتدي للخلافة

ثم توفي القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر افتصد منتصف شعبان من سنة سبع وستين ونام فانفجر فصاده، وسقطت قوته. ولما أيقن بالموت أحضر حافده أبا القاسم عبد الله ابن ابنه ذخيرة الدين محمد، وأحضر الوزير ابن جهير والنقباء والقضاة وغيرهم، وعهد له بالخلافة. ثم مات لخمس وأربعين سنة من خلافته وصلى عليه المقتدي، وبويع بعهد جده، وحضر بيعته مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة، وأبو إسحاق الشيرازي وأبو نصر بن الصباغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني، وغيرهم من الأعيان والأماثل. ولما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر ولم يكن للقائم عقب ذكر غيره لأن ابنه ذخيرة الدين أبا العباس محمداً توفي في حياته ولم يكن له غيره فاعتمد القائم لذلك.

ثم جاءت جاريته أرجوان بعد موته لستة أشهر بولد ذكر فعظم سرور القائم به، ولما كان حادثة البساسيري حمله أبو الغنائم بن المجلبان إلى حران وهو ابن أربع سنين، وأعاده عند عود القائم إلى داره. فلما بلغ الحلم عهد له القائم بالخلافة ولما تمت بيعته لقب المقتدي وأقر فخر الدولة بن جهير على وزارته بوصية جده القائم بذلك. وبعث ابن عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة في رمضان من سنة سبع وستين، وبعث معه من الهدايا ما يجل عن الوصف. وقدم سعد الدولة كوهرابين سنة ثمان وستين إلى بغداد شحنة، ومعه العميد أبو نصر ناظراً في أعمال بغداد، وقدم مؤيد الملك ابن نظام الملك سنة سبعين للإقامة ببغداد، ونزل بالدار التي بجوار مدرستهم.

عزل الوزير ابن جهير ووزارة أبي شجاع

كان أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري قد حج سنة تسع وستين، فورد بغداد منصرفاً من الحج، ووعظ الناس بالنظامية، وفي رباط شيخ الشيوخ، ونصر مذهب الأشعري فأنكر عليه الحنابلة، وكثر التعصب من الجانبين، وحدثت الفتنة والنهب عند المدرسة النظامية، فأرسل مؤيد الملك إلى العميد والشحنة فحضروا في الجند، وعظمت الفتنة ونسب ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جهير، وعظم ذلك على عضد الدولة فأعاد كوهرابين إلى الشحنة ببغداد وأوصاه المقتدي بعزل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرابين بالقبض على أصحابه ونمي الخبر إلى بني جهير فبادر عميد الدولة ابن الوزير إلى نظام الملك يستعطفه. ولما بلغ كوهرابين رسالة الملك إلى المقتدي أمر فخر الدولة بلزوم منزله. ثم جاء ابنه عميد الدولة، وقد استصلح نظام الملك في الشفاعة لهم، فأعيد عميد الملك إلى الوزارة دون أبيه فخر الدولة وذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين.

استيلاء تُتُش بن ألب أرسلان على دمشق وابتداء دولته نفيه فيها

كان أتسز- بهمزة وسين وزاي- بن أبق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه وقد سار سنة ثلاث وستين إلى فلسطين من الشام ففتح مدينة الرملة، ثم حاصر بيت المقدس وفتحها من يد العلويين أصحاب مصر، وملك ما يجاورها ما عدا عسقلان. ثم حاصر دمشق حتى جهدها الحصار فرجع وبقي يردد الغزوات إليها كل سنة. ثم حاصرها سنة سبع وستين وبها المعلى بن حمدرة من قبل المنتصر العبيدي فأقام عليها شهراً. ثم أقلع ديار أهل دمشق بالمعلى لسوء سيرته فهرب إلى بانياس ثم إلى صور، ثم أخذ إلى مصر وجلس بها ومات محبوساً واجتمع المصامدة بعد هربه من دمشق وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي ولقبوه زين الدولة. ثم اختلفوا عليه ووقعت الفتنة، وغلت الأسعار ورجع أتسز إلى حصارها فنزل له عنها انتصار على الأمان، وعوضه عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، وخطب فيها أتسز للمقتدي العباسي في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

وتغلب على أكثر الشام ومنع من الأذان بحي على خير العمل. ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها حتى أشرف على أخذها. ثم انهزم من غير قتال ورجع إلى دمشق وقد انتقض عليه أكثر بلاد الشام، فشكر لأهل دمشق صونهم لمخلفه وأمواله، ورفع عنهم خراج سنة. وبلغه أن أهل القدس وثبوا بأصحابه ومخلفه وحصروهم في محراب داود عليه السلام، فسار إليهم وقاتلوه فملكهم عنوة وقتلهم في كل مكان إلا من كان عند الصخرة.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تاج الدولة تتش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام وما يفتحه من نواحيها، فسار إلى حلب سنة إحدى وسبعين وحاصرها وضيق عليها، وكانت معه جموع كثيرة من التركمان. وكان صاحب مصر قد بعث عساكره مع قائده نصير الدولة لحصار دمشق فأحاطوا بها، وبعث أتسز إلى تتش وهو على حلب يستمده فسار إليه، وأجفلت العساكر المصرية عن دمشق، وجاء إليها تتش فخرج أتسز للقائه بظاهر البلد فتجنى عليه حيث لم يستعد للقائه، وقبض عليه وقتله لوقته، وملك البلد وأحسن السيرة فيها وذلك سنة إحدى وسبعين فيما قال الهمذاني. وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: إن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين. وقال ابن الأثير والشاميون في هذا الاسم: أفسلس والصحيح أنه أتسز وهو اسم تركي.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث قد أسار السيرة وأساء إلى الرعية وعسفهم، واطرح جانب الخليفة المقتدي وحواشيه فاستدعى المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وبعثه إلى السلطان ملك شاه والوزير نظام الملك بالشكوى من ابن العميد، فسار لذلك ومعه جماعة من أعيان الشافعية منهم أبو بكر الشاشي وغيره، وذلك سنة خمس وخمسين. وتنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة في ملبوسه ومركوبه، وكان أهل البلاد إذا مر بهم يتسايلون إليه ويزدحمون على ركابه، وينشدون على موكبه كل أحد ما يناسب ذلك، وصدر الأمر بإهانة ابن العميد ورفع يده عما يتعلق بحواشي المقتدي، وجرى بينه وبين إمام الحرمين مناظرة بحضرة نظام الملك ذكرها الناس في كتبهم. انتهى.

عزل ابن جهير عن الوزارة وإمارته على ديار بكر

ثم إن عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير عزله الخليفة المقتدي عن الوزارة ووصل يوم عزل رسول من قبل السلطان ونظام الملك يطلب بني جهير فأذن لهم وساروا بأهلهم إلى السلطان فلقاهم كرامة وبراً، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر مكان بني مروان وبعث معه العساكر سنة وأعطاه الآلة وأذن له أن يخطب فيها لنفسه، ويكتب اسمه في السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين ثم بعث إليه السلطان سنة سبع وسبعين بمدد العساكر مع الأمير أرتق بن أكسب جل أصحاب ماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان قد استمد فخر الدولة بن جهير بنواحيها، وكان معه جماعة من التركمان فتقدموا إلى قتل مشرف الدولة، وانهزم أمامهم وغنم التركمان من كان معه من أحياء العرب، ودخل آمد فحصره بها فخر الدولة وأرتق، فراسل أرتق وبذل له مالاً على الخروج من ناحيته، فأذن له وخرج. ورجع ابن جهير إلى ميافارقين ومعه بهاء الدولة منصور بن مزيد صاحب الحلة والنيل والجامعين وابنه سيف الدولة صدقة ففارقوه إلى العراق، وسار هو إلى خلاط.

وكان السلطان لما بلغه انهزام مشرف الدولة وحصاره بآمد بعث عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير في عسكره إلى الموصل ومعه قسيم الدولة آقسنقر جد نور الدين العادل، وكاتب أمراء التركمان بطاعته وساروا إلى الموصل فملكوها. وسار السلطان بنفسه إليها وقارن ذلك خلوص مشرف الدولة من حصار آمد فراسل مؤيد الدولة بن نظام الملك وهو على الرحبة، وأهدى له فسعى له عند السلطان وأحضره وأهدى للسلطان سوابق خيله وصالحه وأقره على بلاده، وعاد إلى خراسان. ولم يزل فخر الدولة بن جهير في طلب ديار بكر حتى ملكها. فأنفذ إليه زعيم الرؤساء القاسم سنة ثمان وسبعين، وحاصرها وضيق عليها حتى غدر بها بعض أهل العسكر من خارج وملكها. وعمد أهل البلد إلى بيوت النصارى بينهم فنهبوها بما كانوا عمال بني مروان، وكان لهم جور على الناس.

وكان فخر الدولة مقيماً على ميافارقين محاصراً لها، وجاءه سعد الدولة كوهرايين في العسكر مدداً من عند السلطان فخرج في حصارها وسقط بعض الأيام جانب من سورها فدهش أهل البلد وتنادوا بشعار السلطان ملك شاه، واقتحم فخر الدولة البلد واستولى على ما كان لبني مروان، وبعث بأموالهم إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء فلحقه بأصبهان سنة ثمان وسبعين. ثم بعث

فخر الدولة أيضاً عسكراً إلى جزيرة ابن عمر وحاصروها حتى جهدهم الحصار، فوثب طائفة من أهل البلد بعاملها، وفتحوا الباب، ودخل مقدم العسكر فملك البلد ودخل سنة ثمان وسبعين. وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر واستولى عليها فخر الدولة بن جهير، ثم أخذها السلطان من يده وسار إلى الموصل فتوفي بها، وكان مولده بها واستخدم لبرلة بن مقلة وسفر عنه إلى ملك الروم. ثم سار إلى حلب ووزر لمعز الدولة أبي هال بن صالح. ثم مضى إلى ملطية ثم إلى مروان بديار بكر، فوزر له ولولده. ثم سار إلى بغداد ووزر للخليفة كما مر في آخر ما ذكرنا، وتوفي سنة ثلاث وثمانين. انتهى.

خبر الوزارة

لما عزل الخليفة المقتدي عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين رتب في الديوان أبا الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء. ثم استوزر أبا شجاع محمد بن الحسين فلم يزل في الوزارة إلى سنة أربع وثمانين فتعرض لأبي سعد بن سمحاء اليهودي وكان وكيلاً للسلطان، ونظام الملك، وسار كوهرابين الشحنة إلى السلطان بأصبهان، فمضى اليهودي في ركابه، وسمع المقتدي بذلك فخرج توقيعه بإلزام أهل الذمة بالغيار فأسلم بعضهم وهرب بعضهم. وكان ممن أسلم أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا الكاتب وقرابته، ولما وصل كوهرابين وأبو سعد إلى السلطان وعظمت سعايتهما في الوزير أبي شجاع فكتب السلطان ونظام الملك إلى المقتدي في عزله فعزله، وأمره بلزوم بيته، وولى مكانه أبا سعد بن موصلايا الكاتب، وبعث المقتدي إليهما في عميد الدولة بن جهير فبعثا به إليه واستوزره سنة أربع وثمانين، وركب إليه نظام الدولة فهنأه بالوزارة في بيته، وتوفي الوزير أبو شجاع سنة ثمان وثمانين.

استيلاء السلطان على حلب

قد ذكرنا من قبل استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب، وخطبة صاحبها محمود بن صالح بن مرداس على منابره باسمه سنة ثلاث وستين. ثم عاد بعد ذلك إلى طاعة العلوية بمصر. ثم انتقضت دولة بني مرداس بها، وعادت رياستها شورى في مشيختها، وطاعتهم لمسلم بن قريش صاحب الموصل، وكبيرهم ابن الحثيثي. واستقر ملك سليمان بن قطلمش ببلاد الروم، وملك أنطاكية سنة سبع وسبعين. وتنازع مع مشرف الدولة ابن قريش ملك حلب وتزاحفا فقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش سنة تسع وسبعين. وكتب إلى أهل حلب يستدعيهم إلى طاعته فاستمهلوه إلى أن يكاتبوا السلطان ملك شاه. فإن الكل كانوا في طاعته وكتبوا إلى تتش أخي السلطان وهو بدمشق أن يملكوه فسار إليهم ومعه أرتق بن أكسب، كان قد لحق به عندما جاء السلطان إلى الموصل وفتحها خشية مما فعله في خلاص مسلم بن قريش من حصار آمد فأقطعه تتش بيت المقدس.

فلما جاء تتش إلى حلب وحاصر القلعة، وبها سالم بن مالك بن بدران ابن عم مشرف الدولة مسلم بن قريش، وكان ابن الحثيثي وأهل حلب قد كاتبوا السلطان ملك شاه أن يسلموا إليه البلد، فسار من أصبهان في جمادى سنة تسع وستين، ومر بالموصل ثم بحران فتسلمها وأقطعها محمد بن مسلم بن قريش، ثم بالرها فملكها من يد الروم، ثم بقلعة جعفر فحاصرها وملكها من يد بعض بني قشير، ثم بنبج فملكها ثم عبر الفرات إلى حلب فأجفل أخوه تتش إلى البرية ومعه أرتق. ثم عاد إلى دمشق وكان سالم بن مالك ممتنعاً بالقلعة فاستنزله منها وأقطعه قلعة جعبر فلم تزل بيده ويد بنيه حتى ملكها منهم نور الدين العادل، وبعث إلى السلطان بالطاعة على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة صاحب شيراز نصر بن علي بن منقذ الكناني وسلم إليه اللاذقية وكفرطاب وفامية، فأقر على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة أقسنقر جد نور الدين العادل، ورحل إلى العراق وطلب أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فحمله معه وأنزله بديار بكر فتوفي فيها بحال أملاق.

ودخل السلطان بغداد في ذي الحجة من سنة تسع وسبعين وأهدى إلى المقتدي وخلع عليه الخليفة، وقد جلس له في مجلس حفل ونظام الملك قائم يقدم أمراء السلطان واحداً بعد واحد آخر للسلام للخليفة، ويعرف بأسمائهم وأنسابهم ومراتبهم. ثم فوض الخليفة المقتدي إلى السلطان أمور الدولة، وقبل يده وانصرف. ودخل نظام الملك إلى مدرسته فجلس في خزانة الكتب وأسمع جزء حديث وأملى آخر. وأقام السلطان في بغداد شهراً ورحل في صفر من سنة ثمانين إلى أصبهان وجاء إلى بغداد مرة أخرى في رمضان من سنة أربع وثمانين ونزل بدار الملك وقدم عليه أخوه تاج الدولة تتش وقسيم الدولة أقسنقر من حلب، وغيرهما من أمراء النواحي. وعمل ليلة الميعاد من سنة خمس وثمانين، ولم ير أهل بغداد مثله وأخذ الأمراء في بناء الدور ببغداد لسكناهم عند قدومهم فلم تمهلهم الأيام لذلك.

فتنة بغداد

كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدء الخليقة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون من الرهاء، وأعيا على الحكام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويشخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب ومن أهل السنة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام. وتكرر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولم يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبعدهم عن بغداد والشوكة التي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم. وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خف من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة، ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي. وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم فاستمرت هذه العلة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدتها وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في ردائها لم تذهبه الأيام.

مقتل نظام الملك وأخباره

كان من أبناء الدهاقين بطوس أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق، فشب وقرأ بها وسمع الحديث الكبير وتعلق بالأحكام السلطانية وظهرت فيها كفايته، وكان يعرف بحسن الطوسي. وكان أميره الذي يستخدمه يصادره كل سنة فهرب منه إلى داود وحفري بك، وطلبه مخدومه الأمير فمنعه، وخدم أبا علي بن شادان متولي الأعمال ببلخ لحفري بك أخي السلطان طغرلبك، وهو والد السلطان ألب أرسلان. ولما مات أبو علي وقد عرف نظام الملك هذا بالكفاية والأمانة أوصى به ألب أرسلان فأقام بأمور دولته ودولة ابنه ملك شاه من بعده، وبلغ المبالغ كما مر واستولى على الدولة.

وولى أولاده الأعمال وكان فيمن ولاه منهم ابن ابنه عثمان جمال. وولّي على مرو، وبعث السلطان إليها شحنة من أعظم أمرائه، وقع بينه وبين عثمان نزاع فحملته الحداثة والأدلال بجاهه على أن قبض على الأمير وعاقبه، فانطلق إلى السلطان مستغيثاً، وامتعض لها السلطان وبعث إلى نظام الملك بالنكير مع خواصه وثقاته فحملته الدالة على تحقيق تعديد حقوقه على السلطان، وإطلاق القول في العتاب والتهديد بطوارق الزمن. وأرادوا طي ذلك عن السلطان فوشى به بعضهم. فلما كان رمضان من سنة خمس وثمانين، والسلطان على نهاوند عائداً من أصبهان إلى بغداد، وقد انصرف الملك يومه ذلك من خيمة السلطان إلى خيمته، فاعترضه صبي قيل إنه من الباطنية في صورة مستغيث فطعنه بسكينة فمات، وهرب الصبي فأدرك وقتل، وجاء السلطان إلى خيمة نظام الملك يومه، وسكن أصحابه وعسكره، وذلك لثلاثين سنة من وزارته سوى ما وزر لأبيه ألب أرسلان أيام إمارته بخراسان.

وفاة السلطان ملك شاه وملك ابنه محمود

لما قتل نظام الملك على نهاوند كما ذكرناه سار السلطان لوجهه، ودخل بغداد آخر رمضان من سنته، ولقيه الوزير عميد الدولة بن جهير واعتزم السلطان أن يولي وزارته تاج الملك وهو الذي سعى بنظام الملك، وكانت قد ظهرت كفايته. فلما صلى السلطان العيد عاد إلى بيته وقد طرقه المرض، وتوفي منتصف شوال، فكتمت زوجته تركمان خاتون موته وأنزلت أموالها وأموال أهل الدولة بحريم دار الخلافة، وارتحلت إلى أصبهان. وسلّوا السلطان معها في تابوته وقد بذلت الأموال للأمراء على طاعة ابنها محمود والبيعة له فبايعوه، وقدمت من طريق قوام الدولة كربوقا الذي ملك الموصل من بعد ذلك، فسار بخاتم السلطان لنائب القلعة وتسلمها. ولما بايعت لولدها محمود وعمره يومئذ أربع سنين بعثت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة له فأجابها على شرط أن يكون أثر من أمراء أبيه هو القائم بتدبير الملك، وأن يصدر عن رأي الوزير تاج الملك، ويكون له ترتيب العمال وجباية الأموال فأبت أولاً من قبول هذا الشرط، حتى جاءها الإمام أبو حامد الغزالي وأخبرها أن الشرع لا يجير تصرفاته فأذعنت لذلك، فخطب لابنها آخر شوال من السنة، ولقب ناصر الدولة والدين، وكتب إلى الحرمين الشريفين فخطب له بهما.

ثورة بَرْكَيارُق بملك شاه

كانت تركمان خاتون عند موت السلطان ملك شاه قد كتمت موته وبايعت لابنها محمود كما قلناه، وبعثت إلى أصبهان سراً في القبض على بركيارق ابن السلطان ملك شاه خوفاً من أن

ينازع ابنها محموداً فحبس. فلما ظهر موت ملك شاه وثب مماليك بركيارق نظام الملك على سلاح كان له بأصبهان وثاروا في البلد وأخرجوا بركيارق من محبسه وبايعوه وخطبوا له بأصبهان. وكانت أمه زبيدة بنت عم ملك شاه وهو ياقولي خائفة على ولدها من خاتون أم محمود، وكان تاج الملك قد تقدم إلى أصبهان وطالبه العسكر بالأموال فطلع إلى بعض القلاع لينزل منها المال وامتنع فيها خوفاً من مماليك نظام الملك. ولما وصلت تركمان خاتون إلى أصبهان جاءها فقبلت عذره. وكان بركيارق لما أقامت خاتون ابنها محموداً بأصبهان خرج فيمن معه من النظامية إلى الري واجتمع معه بعض أمراء أبيه وبعثت خاتون العساكر إلى قتاله، وفيهم أمراء ملك شاه. فلما تراءى الجمعان هرب كثير من الأمراء إلى بركيارق واشتد القتال فانهزم عسكر محمود وخاتون، وعادوا إلى أصبهان وسار بركيارق في أثرهم فحاصرهم بها.

مقتل تاج الملك

كان الوزير تاج الملك قد حضر مع عسكر خاتون وشهد وقعة بركيارق. فلما انهزموا سار إلى قلعة يزدجرد فحبس في طريقه، وحمل إلى بركيارق وهو محاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته فأجمع ان يستوزره، وأصلح هو النظامية وبذل لهم مائتي ألف دينار واسترضاهم بها. ونمي ذلك إلى عثمان نائب نظام الملك فوضع الغلمان الأصاغر عليه الطالبين ثأر سيدهم وأغراهم فقتلوه وقطعوه قطعاً وذلك في المحرم سنة ست وثمانين. ثم خرج إلى بركيارق من أصبهان وهو محاصر لها عز الملك أبو عبد الله بن الحسين بن نظام الملك وكان على خوارزم، ووفد على السلطان ملك شاه قبل مقتل أبيه. ثم كان ملكهما فأقام هو بأصبهان وخرج إلى بركيارق وهو يحاصرها فاستوزره وفوض إليه أمر دولته. انتهى.

الخطبة لبركيارق ببغداد

ثم قدم بركيارق بغداد سنة ست وثمانين، وطلب من المقتدي الخطبة فخطب له على منابرها ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير إليه الخلع فلبسها وتوفي المقتدي وهو مقيم ببغداد.

وفاة المقتدي ونصب المستظهر للخلافة

ثم توفي المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله في منتصف محرم سنة سبع وثمانين، وكان موته فجأة، أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم عليه فقرأه ووضعه. ثم قدم إليه طعام فأكل منه ثم غشي عليه فمات، وحضر الوزير فجهزوا جنازته وصلى عليه ابنه أبو العباس أحمد ودفن وذلك لتسع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وكانت له قوة وهمة لولا أنه كان مغلباً، وعظمت عمارة بغداد في أيامه، وأظن ذلك لاستفحال دولة بني طغرلبك. ولما توفي المقتدي وحضر الوزير أحضر ابنه أبا العباس أحمد الحاشية فبايعوه ولقبوه المستظهر، وركب الوزير إلى بركيارق وأخذ بيعته للمستظهر. ثم حضر بركيارق لثالثة من وفاته ومعه وزيره عز الملك بن نظام الملك وأخوه بهاء الملك، وأمر السلطان بأرباب المناصب فجمعوا وحضر النقيبان طراد العباسي والمعمر العلوي، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني والغزالي والشاشي وغيرهم فحبسوا في العراء وبايعوا.

أخبار تتش وانتقاضه وحروبه ومقتله

قد ذكرنا فيما تقدم أن تتش بن السلطان ألب أرسلان استقل بملك دمشق وأعمالها، وأنه وفد على السلطان ملك شاه ببغداد قبل موته وانصرف، وبلغه خبر وفاته بهيت فملكها وسار إلى دمشق فجمع العساكر، وزحف إلى حلب فأطاعه صاحبها قسيم الدولة أقسنقر. وسار معه، وكتب إلى ناعيسان صاحب أنطاكية وإلى برار صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تتش حتى يصلح حال أولاد ملك شاه فقبلوا منه، وخطبوا له في بلادهم وساروا معه فحضر الرحبة وملكها في المحرم سنة ست وثمانين، وخطب فيها لنفسه. ثم فتح نصيبين عنوة وعاث فيها وسلمها لمحمد بن مشرف الدولة وسار يريد الموصل ولقيه الكافي فخر الدولة بن جهير وكان في جزيرة ابن عمر فاستوزره وبعث إلى إبراهيم بن مشرف الدولة مسلم بن قريش وهو يومئذ ملك الموصل يأمره بالخطبة له، وتسهيل طريقه إلى بغداد فأبى من ذلك وزحف إليه تتش وهو في عشرة آلاف وأقسنقر على ميمنته وتوزران على ميسرته، وإبراهيم في ستين ألفاً والتقوا فانهزم إبراهيم وأخذ أسيراً وقتل جماعة من أمراء العرب صبراً، وملك تاج الدولة تتش الموصل، وولى عليها علي بن مشرف الدولة. وفوض إليه أمر صفية عمة تتش وبعث إلى بغداد يطلب مساعدة

كوهرايين الشحنة فجاء العذر بانتظار الرسل من العسكر، فسار إلى ديار بكر وملكها، ثم إلى أذربيجان، وبلغ خبره إلى بركيارق، وقد استولى على همذان والري فسار لمدافعته، فلما التقى العسكران جنح أقسنقر إلى بركيارق وفاوض توران في ذلك، وأنهما إنما اتبعا تتش حتى يظهر أمر أولاد ملكشاه، فوافقه على ذلك، وسارا معاً إلى بركيارق فانهزم تتش وعاد إلى دمشق، واستفحل بركيارق وجاءه كوهرايين يعتذر عن مساعدته لتتش في الخطبة فلم يقبله، وعزله وولى الأمير نكبرد شحنة بغداد مكانه. ثم خطب لبركيارق ببغداد كما قدمناه.

ومات المقتدي ونصب المستظهر، ولما عاد تتش من أذربيجان إلى الشام جمع العساكر وسار إلى حلب لقتال أقسنقر، وبعث بركيارق كربوقا الذي صار أمير الموصل مدداً لأقسنقر، ولقيهم تتش قريباً من حلب فهزمهم وأسر أقسنقر فقتله صبراً. ولحق توران وكربوقا بحلب، وحاصرهما تتش فملكها وأخذهما أسيرين، وبعث إلى حران والرها في الطاعة، وكانتا لتوران فامتنعوا، فبعث برأسه إليهم وأطاعوه، وحبس كربوقا في حمص إلى أن أطاعه رضوان بعد قتل أبيه تتش.

ثم سار تتش إلى الجزيرة فملكها، ثم ديار بكر ثم خلاط وأرمينية، ثم أذربيجان. ثم سار إلى همذان فملكها، وكان بها فخر الدولة نظام الملك، سار من حران لخدمة بركيارق فلقيه الأمير تاج من عسكر محمود بن ملكشاه بأصبهان، فنهب ماله ونجا بنفسه إلى همذان، وصادف بها تتش وشفع فيه باغسيان وأشار بوزارته فاستوزره، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من المستظهر، وبعث يوسف بن أبق التركماني شحنته إلى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخولها.

وكان بركيارق قد سار إلى نصيبين وعبر دجلة فوق الموصل إلى أربل، ثم إلى بلد سرخاب بن بدر حتى إذا كان بينه وبين عمه تسعة فراسخ، وهو في ألف رجل وعمه في خمسين ألفاً، فبيته بعض الأمراء من عسكر عمه فانهزم إلى أصبهان، وبها محمود ابن أخيه، وقد ماتت أمه تركمان خاتون فأدخله أمراء محمود، واحتاطوا عليه. ثم مات محمود سلخ شوال من سنة سبع وثمانين، واستولى بركيارق على الأمر، وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة، واستمال الأمراء فرجعوا إليه وكثر جمعه. وكان تتش بعد هزيمة بركيارق قد اختلف عليه الأمراء وراسل أمراء أصبهان يدعوهم إلى طاعته فواعدوه انتظار بركيارق، وكان قد أصابه الجدري، فلما أبلّ نبذوا إليه عهده، وساروا مع بركيارق من أصبهان، وأقبلت إليهم العساكر من كل مكان وانتهوا إلى ثلاثين ألفاً والتقوا قريباً من الري فانهزم تتش وقتله بعض أصحاب أقسنقر، وكان قد حبس وزيره فخر الملك بن نظام الملك فأطلق ذلك اليوم، واستفحل أمر بركيارق وخطب له ببغداد.

ظهور السلطان ملكشاه والخطبة له ببغداد

كان السلطان بركيارق قد ولى على خراسان وأعمالها أخاه لأبيه سنجر فاستقل بأعمال خراسان كما يذكر في أخبار دولتهم عند انفرادها بالذكر. وإنما نذكر هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة والخطبة لهم ببغداد، لأن مساق الكلام هنا إنما هو عن أخبار دولة بني العباس، ومن وزر لهم أو تغلب خاصة. وكان لسنجر بن ملكشاه أخ شقيق اسمه محمد. ولما هلك السلطان ملكشاه سار مع أخيه محمود وتركمان خاتون إلى أصبهان. فلما حاصرهم بركيارق لحق به أخوه محمد هذا وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعه دجلة وأعمالها وبعث معه قطلغ تكين أتابك. فلما استولى على أمره قتله أنفة من حجره.

ثم لحق به مؤيد الملك بن عبيد الله بن نظام الملك، كان مع الأمير أنز وداخله في الخلاف على السلطان بركيارق. فلما قتل أنز كما نذكر في أخبارهم لحق مؤيد الملك بمحمد بن السلطان ملك شاه، وأشار عليه ففعل وخطب لنفسه. واستوزره مؤيد الملك، وقارن ذلك أن السلطان بركيارق قتل خاله مجد الملك البأرسلاني فاستوحش منه أمراؤه، ولحقوا بأخيه محمد وسار بركيارق إلى الري واجتمع له بها عساكر وجاء عز الملك منصور بن نظام الملك في عساكر. وبينما هو في الري إذ بلغه مسير أخيه محمد إليه فأجفل راجعاً إلى أصبهان فمنعه أهلها الدخول، فسار إلى خوزستان. وجاء السلطان محمد إلى الري أول ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين، ووجد أم بركيارق بها وهي زبيدة خاتون فحبسها مؤيد الملك وقتلها، واستفحل ملك محمد، وجاءه سعد الدولة كوهرايين شحنة بغداد وكان مستوحشاً من بركيارق، وجاء معه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب ابن بدر صاحب كركور فلقوه جميعاً بقم وسار كربوقا وجكرمش معه إلى أصبهان، ورد كوهرايين إلى بغداد في طلب الخطبة من الخليفة، وأن يكون شحنة بها فأجابه المستظهر إلى ذلك وخطب له منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ولقب غياث الدنيا والدين.

إعادة الخطبة لبركيارق

لما سار بركيارق مجفلاً من الري إلى خوزستان أمام أخيه

محمد، وأمير عسكره يومئذ نيال بن أنوش تكين الحسامي، ومعه جماعة من الأمراء، أجمع المسير إلى العراق، فسار إلى واسط، وجاءه صدقة بن مزيد صاحب الحلة. ثم سار إلى بغداد فخطب له بها منتصف صفر من سنة ثلاث وتسعين. ولحق سعد الدولة كوهرابين ببعض الحصون هنالك ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره من الأمراء، وأرسل إلى السلطان محمد ووزيره مؤيد الملك يستحثهما في الوصول، فبعث إليه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب الجزيرة فلم يرضه، وطلب جكرمش العود إلى بلده فأطلقه. ثم نزع كوهرابين ومن معه من الأمراء إلى بركيارق بإغزاء كربوقا صاحب الموصل، وكاتبوه فخرج إليهم ودخلوا معه بغداد واستوزره الأغر أبو المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وقبض على عميد الدولة ابن جهير وزير الخليفة وطالبه بأموال ديار بكر والموصل في ولايته وولاية أبيه، وصادره على مائة وستين ألف دينار فحملها إليه وخلع المستظهر على السلطان بركيارق واستقر أمره.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد وقتل كوهرابين والخطبة لمحمد

ثم سار بركيارق من بغداد إلى شهرزور لقتال أخيه محمد، واجتمع إليه عسكر عظيم من التركمان، وكاتبه رئيس همذان بالمسير إليه فعدا عنه، ولقي أخاه محمداً على فراسخ من همذان ومحمد في عشرين ألف مقاتل، ومعه الأمير سرخو شحنة أصبهان وعلى ميمنته أمير آخر وابنه أياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية، ومع بركيارق في القلب وزيره أبو المحاسن، وفي ميمنته كوهرابين وصدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر. وفي ميسرته كربوقا وغيره من الأمراء. فحمل كوهرابين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد فانهزموا حتى نهبت خيامهم. ثم حملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت، وحمل محمد معهم فانهزم بركيارق، ورجع كوهرابين للمنهزمين فكبا به فرسه وقتل، وافترقت عساكر بركيارق وأسر وزيره أبو المحاسن فأكرمه مؤيد الملك وأنزله وأعاده إلى بغداد ليخاطب المستظهر في إعادة الخطبة للسلطان محمد ففعل، وخطب له ببغداد منتصف رجب سنة ثلاث وتسعين.

وابتداء أمر كوهرابين أنه كان لامرأة بخوزستان وصار خادماً للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة. وحظي عنده وكان يستعرض حوائج تلك المرأة وأصاب أهلها منه خيراً. وأرسله أبو كاليجار مع ولده أبي نصر إلى بغداد، فلما قبض عليه السلطان طغرلبك مضى معه إلى محبسه بقلعة طبرك. ولما مات أبو نصر سار إلى خدمة السلطان ألب أرسلان فحظي عنده وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد، وكان حاضراً معه يوم قتله يوسف الخوارزمي ووقاه بنفسه. ثم بعثه ابنه ملك شاه إلى بغداد لإحضار الخلع والتقليد، واستقر شحنة ببغداد إلى أن قتل، ورأى ما لم يره خادم قبله من نفوذ الكلمة وكمال القدرة وخدمة الأمراء والأعيان وطاعتهم. انتهى.

مصاف بركيارق مع أخيه سنجر

ولما انهزم السلطان بركيارق من أخيه محمد لحق بالري واستدعى شيعته وأنصاره من الأمراء فلحقوا به. ثم ساروا إلى أسفراين وكاتب الأمير داود حبشي بن التونطاق يستدعيه وهو صاحب خراسان وطبرستان ومنزله بالدامغان، فأشار عليه باللحاق بنيسابور حتى يأتيه. فدخل نيسابور وقبض على رؤسائها، ثم أطلقهم وأساء التصرف. ثم أعاد الكتاب إلى داود حبشي بالاستدعاء فاعتذر بأن السلطان سنجر زحف إليه في عساكر بلخ. ثم سأل منه المدد فسار بركيارق إليه في ألف فارس وهو في عشرين ألفاً والتقوا بسنجر عند النوشجان وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته كوكر، ومعه في القلب رستم. فحمل بركيارق على رستم فقتله وانهزم أصحابه ونهب عسكرهم، وكادت الهزيمة تتم عليهم. ثم حمل برغش وكوكر على عسكر بركيارق وهم مشتغلون بالنهب فانهزموا، وانهزم بركيارق. وجاء بعض التركمان بالأمير داود حبشي أسيراً إلى برغش فقتله ولحق بركيارق بجرجان ثم بالدامغان، وقطع البرية إلى أصبهان بمراسلة أهلها فسبقه أخوه محمد إليها فعاد أسيرهم. انتهى.

عزل الوزير عميد الدولة ابن جهير ووفاته

قد ذكرنا أن وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن أسر في المصاف الأول بين بركيارق ومحمد، وأن مؤيد الملك بن نظام الملك وزير محمد أطلقه واصطنعه وضمنه عمارة بغداد، وحمله طلب الخطبة لمحمد ببغداد من المستظهر فخطب له، وكان فيما حمله للمستظهر عزل وزيره عميد الدولة بن جهير. وبلغ ذلك عميد الدولة فأرسل من يعترض الأغر ويقتله فامتنع بعقر بابل. ثم صالحه ذلك الذي اعترضه وطلب لقاءه فلقيه، ودس الأغر إلى أبي الغازي بن أرتق، وكان وصل معه وسبقه إلى بغداد فرجع إليه ليلاً ويئس منه ذلك الذي اعترضه، ووصل الأغر بغداد، وبلغ إلى

المستظهر رسالة مؤيد الدولة في عزل عميد الدولة فقبض عليه في رمضان من سنة ثلاث وتسعين، وعلى اخوته، وصودر على خمسة وعشرين ألف دينار، وبقي محبوساً بدار الخلافة إلى أن هلك في محبسه.

المصاف الثاني بين بركيارق وأخيه محمد ومقتل مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

قد ذكرنا أن بركيارق لما انهزم أمام أخيه محمد في المصاف الأول سار إلى أصبهان، ولم يدخلها فمضى إلى عسكر مكرم إلى خوزستان وجاءه الأميران زنكي وألبكي ابنا برسق. ثم سار إلى همذان فكاتبه أياز من كبار أمراء محمد بما كان استوحش منه فجاءه في خمسة آلاف فارس وأغراه باللقاء فارتحل لذلك. ثم استأمن إليه سرخاب بن كنخسرو صاحب آوة فاجتمع له خمسون ألفاً من المقاتلة، وبقي أخوه في خمسة عشر ألفاً. ثم اقتتلوا أول جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين، وأصحاب محمد يغدون على محمد شيئاً فشيئاً مستأمنين. ثم انهزم آخر النهار وأسر وزيره مؤيد الملك، وأحضره عند بركيارق غلام لمجد الملك البارسلاني ثار منه مولاه، فلما حضر وبخه بركيارق وقتله وبعث الوزير أبو المحاسن من يسلم إليه أمواله، وصادر عليها قرابته في بغداد وفي غير بغداد وفي بلاد العجم. ويقال: كان فيما أخذ له قطعة من البلخش زنة إحدى وأربعين مثقالاً.

ثم سار بركيارق إلى الري ولقيه هناك كربوقا صاحب الموصل، ونور الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، واجتمعت إليه نحو من مائة ألف فارس حتى ضاقت بهم البلاد ففرق العساكر. وعاد دبيس إلى أبيه وسار كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتا، كان خرج على السلطان هنالك وسار أياز إلى همذان ليقضي الصوم عند أهله ويعود، فبقي بركيارق في خف من الجنود. وكان محمد أخوه لما انهزم لجهات همذان سار إلى شقيقه بخراسان فانتهى إلى جرجان، وبعث يطلب منه المدد فأمده بالمال أولاً. ثم سار إليه بنفسه إلى جرجان وسار معه إلى الدامغان وخرب عسكر خراسان ما مروا به من البلاد، وانتهوا إلى الري، واجتمعت إليهم النظامية وبلغهم افتراق العساكر عن بركيارق فأغذوا إليه السير فرحل إلى همذان فبلغه أن أياز راسل محمداً، فقصد خوزستان وانتهى إلى تستر، واستدعى بني برسق فقعدوا عنه لما بلغهم مراسلة أياز للسلطان، فسار بركيارق نحو العراق، وكان أياز راسل محمداً في الكون معه فلم يقبله فسار من همذان، ولحق بركيارق إلى حلوان وساروا جميعاً إلى بغداد.

واستولى محمد على مخلف أياز بهمذان وحلوان وكان شيئاً مما لا يعبر عنه. وصادر جماعة من أصحاب أياز من أهل همذان، ووصل بركيارق إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة أربع وتسعين، وبعث المستظهر لتلقيه أمين الدولة بن موصلايا في المراكب، وكان بركيارق مريضاً فلزم بيته، وبعث المستظهر في عيد الأضحى إلى داره منبراً خطب عليه باسمه، وتخلف بركيارق عن شهود العيد لمرضه، وضاقت عليه الأموال فطلب الإعانة من المستظهر، وحمل إليه خمسين ألف دينار بعد المراجعات، ومد يده إلى أموال الناس وصادرها فضجوا، وارتكب خطيئة شنعاء في قاضي جبلة وهو أبو محمد عبد الله بن منصور. وكان من خبره أن أباه منصوراً كان قاضياً بجبلة في ملكة الروم، فلما ملكها المسلمون وصارت في يد أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس أقره على القضاء بها. وتوفي فقام ابنه أبو محمد هذا مقامه ولبس شعار الجندية وكان شهماً، فهمّ ابن عمار بالقبض عليه، وشعر فانتقض وخطب للخلفاء العباسية. وكان ابن عمار يخطب للعلوية بمصر، وطالت منازلة الفرنج بحصن جبلة إلى أن ضجر أبو محمد هذا، وبعث إلى صاحب دمشق وهو يومئذ طغتكين الأتابك أن يسلم إليه البلد، فبعث ابنه تاج الملوك موري وتسلم منه البلد، وجاء به إلى دمشق وبذل لهم فيه ابن عمار ثلاثين ألف دينار دون أمواله، فلم يرضوا بإخفار ذمتهم وسار عنهم إلى بغداد، ولقي بها بركيارق فأحضره الوزير أبو المحاسن وطلبه في ثلاثين ألف دينار، فأجاب وأحالهم على منزله بالأنبار، فبعث الوزير من أتاه بجميع ما فيه، وكان لا يعبرّ فكانت من المنكرات التي أتاها بركيارق. ثم بعث الوزير إلى صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد صاحب حلب يطلب منه ألف ألف دينار متخلفة من مال الجباية، وتهدده عليها فغضب وانتقض وخطب لمحمد، وبعث إليه بركيارق الأمير أياز يستقدمه فلم يجب، وبعث إلى الكوفة وطرد عنها نائب بركيارق واستضافها إليه.

استيلاء محمد على بغداد

قد ذكرنا استيلاء محمد على همذان في آخر ذي الحجة من سنة أربع وتسعين، ومعه أخوه سنجر. وذهب بركيارق إلى بغداد فاستولى عليها وأساء السيرة بها، وبلغ الخبر إلى محمد فسار من همذان في عشرة آلاف فارس، ولقيه بحلوان أبو الغازي بن أرتق شحنته ببغداد في عساكره وأتباعه. وكان بركيارق في شدة من

المرض، وقد أشرف على الهلاك فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي حتى إذا وصل محمد بغداد وترآى الجمعان من عُدوتَي دجلة ذهب بركيارق وأصحابه إلى واسط ودخل محمد بغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالانتقاض مما وقع به بركيارق، وخطب له على منابر بغداد، وجاءه صدقة بن منصور صاحب الحلة فأخرج الناس للقائه ونزل سنجر بدار كوهرايين، واستوزر محمد بعد مؤيد الملك خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين، فقدم إليه في المحرم سنة خمس وتسعين. انتهى.

المصاف الثالث والرابع وما تخلل بينهما من الصلح ولم يتم

ثم ارتحل السلطان وأخوه سنجر عن بغداد منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين، وقصد سنجر خراسان ومحمد همذان، فاعترض بركيارق خاص الخليفة المستظهر، وأبلغه القبيح فاستدعى المستظهر محمداً لقتال بركيارق فجاء إليه وقال: أنا أكفيكه: ورتب أبا المعالي شحنة ببغداد، وكان بركيارق بواسط كما قلنا، فلما أبلّ من مرضه عبر إلى الجانب الشرقي بعد جهد وصعوبة لفرار الناس من واسط لسوء سيرتهم. ثم سار إلى بلاد بني برسق حتى أطاعوا واستقاموا وساروا معه فاتبع أخاه محمداً إلى نهاوند وتصافوا يومين ومنعهما شدة البرد من القتال. ثم اجتمع أياز والوزير الأغر من عسكر بركيارق وبلد أجي وغيرهم من الأمراء من عسكر محمد. وتفاوضوا في شكوى ما نزل بهم من هذه الفتنة، ثم اتفقوا على أن تكون السلطنة بالعراق لبركيارق ويكون لمحمد من البلاد الجيرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل على أن يمده بركيارق بالعسكر متى احتاج إليه على من يمتنع عليه منها. وتحالفا على ذلك وافترقا في ربيع الأول سنة خمس وتسعين، ثم سار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى قزوين، وبدا له في الصلح واتهم الأمراء الذين سعوا فيه، وأسرّ إلى رئيس قزوين أن يدعوهم إلى صنيع عنده، وغدر بهم محمد فقتل بعضاً وسمل بعضاً وأظهر الفتنة. وكان الأمير ينال بن أنوش تكين قد فارق بركيارق، وأقام مجاهداً للباطنية في الجبال والقلاع فلقي محمداً وسار معه إلى الري، وبلغ الخبر إلى بركيارق فأخذ إليه السير في ثمان ليال واصطفوا في التاسع وكلا الفريقين في عشرة آلاف مقاتل. وحمل سرخاب بن كنجسر والديلمي صاحب آوة من أصحاب بركيارق على نيال بن أنوش تكين فهزمه، وانهزم معه عسكر محمد، وافترقوا فلحق فريق بطبرستان وآخر بقزوين، ولحق محمد بأصبهان في سبعين فارساً، واتبعه أياز والبكي بن برسق فنجا إلى البلد وبها نوابه، فلمّ ما تشعّث من السور، وكان من بناء علاء الدين بن كاكويه سنة تسع وعشرين لقتال طغرلبك وحفر الخنادق وأبعد مهواها وأجرى فيها المياه، ونصب المجانيق، واستعد للحصار.

وجاء بركيارق في جمادى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الرجل والأتباع، فحاصرها حتى جهدهم الحصار وعدمت الأقوات والعلوفة، فخرج محمد عن البلد في عيد الأضحى من سنته في مائة وخمسين فارساً، ومعه نيال، ونزل في الأمراء، وبعث بركيارق في اتباعه الأمير أياز. وكانت خيل محمد ضامرة من الجوع، فالتفت إلى أياز يذكره العهود فرجع عنه بعد أن نهب منه خيلاً ومالاً، وأخذ علمه وجنده وعاد إلى بركيارق. ثم شد بركيارق في حصار أصبهان، وزحف بالسلاليم والدبابات، وجمع الأيدي على الخندق فطمّه، وتعلق الناس بالسور فاستمات أهل البلد ودفعوهم. وعلم بركيارق امتناعها فرحل عنها ثامن عشر ذي الحجة. وجمر عسكراً مع ابنه ملكشاه وترشك الصوالي على البلد القديم الذي يسمى شهرستان، وسار إلى همذان بعد أن كان قتل على أصبهان وزيره الأغر أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، اعترضه في ركوبه من خيمته إلى خدمة السلطان متظلم فطعنه وأشواه، ورجع إلى خيمته فمات، وذهب للتجار الذين كانوا يعاملونه أموال عظيمة لأن الجباية كانت ضاقت بالفتن، فاحتاج إلى الاستدانة، ونفر منه التجار لذلك. ثم عامله بعضهم فذهب ما لهم بموته، وكان أخوه العميد المهذب أبو محمد قد سار إلى بغداد لينوب عنه حين عقد الأمراء الصلح بين بركيارق ومحمد، فقبض عليه الشحنة ببغداد أبو الغازي بن أرتق وكان على طاعة محمد.

الشِّحْنة ببغداد والخطبة لبركيارق

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة ببغداد وولاه عليها السلطان محمد عند استيلائه في المصاف الأول، وكان طريق خراسان إليه فعاد بعض الأيام منها إلى بغداد، وضرب فارس من أصحابه بعض الملاحين بسهم في ملاحاة وقعت بينهم عند العبور فقتله فثارت بهم العامة وأمسكوا القاتل، وجاؤوا به إلى باب النوبة في دار الخلافة ولقيهم ولد أبي الغازي فاستنقذه من أيديهم فرجموه، وجاء إلى أبيه مستغيثاً وركب إلى محلة الملاحين فنهبها وعطف عليه العيارون فقتلوا من أصحابه، وركبوا السفين للنجاة فهرب الملاحون وتركوهم فغرقوا، وجمع أبو الغازي التركماني لنهب

الجانب الغربي، فبعث إليه المستظهر قاضي القضاة والكيا الهراسي مدرس النظامية بالامتناع من ذلك فاقتصر أبو الغازي أثناء ذلك متمسكاً بطاعة السلطان محمد. فلما انهزم محمد وانطلق من حصار أصبهان واستولى بركيارق على الري بعث في منتصف ربيع الأول من سنة ست وتسعين من همذان كمستكين القيصراني شحنة إلى بغداد. فلما سمع أبو الغازي بعث إلى أخيه سقمان يحصن كيفا يستدعيه للدفاع.

وجاءه سقمان ومر بتكريت فنهبها، ووصل كمستكين ولقيه شيعة بركيارق وأشاروا عليه بالمعاجلة، ووصل إلى بغداد منتصف ربيع. وخرج أبو الغازي وأخوه سقمان إلى دجيل ونهبا بعض قراها، واتبعهما طائفة من عسكر كمستكين. ثم رجعوا عنهما وخطب للسلطان بركيارق ببغداد وبعث كمستكين إلى سيف الدولة صدقة بالحلة عنه وعن المستظهر بطاعة بركيارق فلم يجب، وكشف القناع وسار إلى جسر صرصر فقطعت الخطبة على منابر بغداد فلم يذكر أحد عليها من السلاطين، واقتصر على الخليفة فقط.

وبعث سيف الدولة صدقة إلى أبي الغازي وسقمان بأنه جاء لنصرتهما فعادوا إلى دجيل وعاثوا في البلاد، واجتمع لذلك حشد العرب والأكراد مع سيف الدولة، وبعث إليه المستظهر في الإصلاح، وخيموا جميعاً بالرملة وقاتلهم العامة وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج رؤساء الرياسة ابن الموصلايا إلى سيف الدولة بكف الأيدي عن الفساد، فاشترطوا خروج كمستكين القيصراني شحنة بركيارق وإعادة الخطبة للسلطان محمد، فتم الأمر على ذلك، وعاد سيف الدولة إلى الحلة وعاد القيصراني إلى واسط، وخطب بها لبركيارق فسار إليه صدقة وأبو الغازي، وفارقها القيصراني فاتبعه سيف الدولة. ثم استأمن ورجع إليه فأكرمه وخطب للسلطان محمد بواسط، وبعده لسيف الدولة وأبي الغازي واستناب كل واحد ولده، ورجع أبو الغازي إلى بغداد وسيف الدولة إلى الحلة، وبعث ولده منصورا إلى المستظهر يخطب رضاه بما كان منه في هذه الحادثة فأجيب إلى ذلك.

استيلاء نيال على الري بدعوة السلطان محمد ومسيره إلى العراق

كانت الخطبة بالري للسلطان بركيارق، فلما خرج السلطان محمد من الحصار بأصبهان، بعث نيال بن أنوش تكين الحسامي إلى الري ليقيم الخطبة له بها فسار ومعه أخوه علي، وعسف الرعايا. ثم بعث السلطان بركيارق إليه برسق بن برسق في العساكر فقاتله على الري، وانهزم نيال وأخوه منتصف ربيع من سنة ست وتسعين، وذهب علي إلى قزوين وسلك نيال على الجبال إلى بغداد وتقطع أصحابه في الأوعار وقتلوا، ووصل إلى بغداد في سبعمائة رجل، وأكرمه المستظهر واجتمع هو وأبو الغازي وسقمان ابنا أرتق بمشهد أبي حنيفة، فاستحلفوه على طاعة السلطان محمد، وساروا إلى سيف الدولة صدقة واستحلفوه على ذلك.

واستقر نيال ببغداد في طاعة السلطان محمد، وتزوج أخت أبي الغازي كانت تحت تاج الدولة تُتش. وعسف بالناس وصادر العمال واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل. وبعث إليه المستظهر مع القاضي الدامغاني بالنهي عن ذلك وتقبيح فعله، ثم مع أبلغاري فأجاب وحلف على كف أصحابه ومنعهم. واستمر على قبح السيرة فبعث المستظهر إلى سيف الدولة صدقة يستدعيه لكف عدوانه، فجاء إلى بغداد في شوال من سنة ست وتسعين، وخيم بالمنجمي ودعا نيالاً للرحلة عن العراق على أن يدفع إليه. وعاد إلى الحلة وسار نيال مستهل ذي القعدة إلى أوانا ففعل من النهب والعسف أقبح مما فعل ببغداد، فبعث المستظهر إلى صدقة في ذلك، فأرسل ألف فارس، وساروا إليه مع جماعة من أصحاب المستظهر وأبي الغازي الشحنة، وذهب نيال أمامهم إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد ورجع أبو الغازي والعساكر عنه.

المصاف الخامس بين السلطانين

كانت كنجة وبلاد أرزن للسلطان محمد وعسكره مقيم بها مع الأمير غز علي، فلما طال حصاره بأصبهان جاؤوا لنصرته، ومعهم منصور بن نظام الملك ومحمد بن أخيه مؤيد الملك، ووصلوا إلى الري آخر ذي الحجة سنة خمس وتسعين، وفارقه عسكر بركيارق. ثم خرج محمد من أصبهان فساروا إليه ولقوه بهمذان، ومعه نيال وعلي ابنا أنوش تكين فاجتمعوا في ستة آلاف فارس. وسار نيال وأخوه على الري وأزعجتهم عنها عساكر بركيارق كما مر. ثم جاءهم الخبر في همذان بزحف بركيارق إليهم، فسار محمد إلى بلاد شروان. ولما انتهى إلى أردبيل بعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي، وكان أميراً على بيلقان من أذربيجان، وكان أبوه إسماعيل خال بركيارق، وانتقض عليه أول أمره فقتله فكان مودود يطالبه بثأر أبيه، وكانت أخته تحت محمد فبعث إليه وجاءه إلى بيلقان. وتوفي مودود إثر قدومه منتصف

ربيع من سنة ست وتسعين، فاجتمع عسكره على الطاعة لمحمد وفيهم سقمان القطبي صاحب خلاط وأرمينية ومحمد بن غاغيسا، كان أبوه صاحب انطاكية. وكان ألب أرسلان ابن السبع الأحمر.

ولما بلغ بركيارق اجتماعهم لحربه أخذ السير إليهم فوصل وقاتلهم على باب خوي من أذربيجان من المغرب إلى العشاء. ثم حمل أياز من أصحاب بركيارق على عسكر محمد فانهزموا، وسار إلى خلاط ومعه سقمان القطبي ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم، ثم سار إلى..... وبها منوجهر أخو فضلون الروادي. ثم سار إلى تبريز ولحق محمد بن يزيد الملك بديار بكر، وسار منها إلى بغداد وكان من خبره أنه كان مقيماً ببغداد مجاوراً للمدرسة النظامية فشكا الجيران منه إلى أبيه، فكتب إلى كوهرايين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة. ثم سار سنة اثنتين وتسعين إلى محمد الملك الباسلاني وأبوه حينئذ بكنجة عند السلطان محمد قبل أن يدعو لنفسه. ثم سار بعد أن قتل محمد الملك إلى والده مؤيد الملك، وهو وزير السلطان محمد. ثم قتل أبوه واتصل هو بالسلطان، وحضر هذه الحروب كما ذكرنا. وأما السلطان بركيارق بعد هزيمة محمد فإنه نزل جبلاً بين مراغة وتبريز وأقام به حولاً، وكان خليفة المستظهر سديد الملك أبو المعالي كما ذكرناه. ثم قبض عليه منتصف رجب سنة ست وتسعين وحبس بدار الخليفة مع أهله كانوا قد وردوا عليه من أصبهان. وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة لأنه كان يتصرف في أعمال السلاطين، وليست فيها هذه القوانين. ولما قبض عاد أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا إلى النظر في الديوان وبعث المستظهر عن زعيم الرؤساء أبي القاسم بن جهير من الحلة، وكان ذهب إليها في السنة قبلها مستجيراً بسيف الدولة صدقة لأن خاله أمين الدولة أبا سعد بن الموصلايا كان الوزير الأعز وزير بركيارق يشيع عنه أنه الذي يحمل المستظهر على موالاة السلطان محمد، والخطبة له دون بركيارق، فاعتزل أمين الدولة الديوان وسار ابن أخته هذا أبو القاسم بن جهير مستجيراً بصاحب الحلة فاستقدمه الخليفة الآن. وخرج أرباب الدولة لاستقباله، وخلع عليه للوزارة ولقبه قوام الدولة، ثم عزله على رأس المائة الخامسة. واستجار سيف الدولة صدقة بن منصور ببغداد فأجاره وبعث عنه إلى الحلة وذلك لثلاث سنين ونصف من وزارته، وناب في مكانه القاضي أبو الحسن بن الدامغاني أياماً. ثم استوزر مكانه أبا المعالي بن محمد بن المطلب في المحرم سنة إحدى وخمسمائة، ثم عزله سنة اثنتين بإشارة السلطان محمد، وأعاده بإذنه على شرطية العدل وحسن السيرة، وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمة. ثم عزل في رجب من سنة اثنتين وخمسين، واستوزر أبا القاسم بن جهير سنة تسع وخمسين، واستوزر بعده الربيع أبا منصور بن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد

ولما تطاولت الفتنة بين السلطانين، وكثر النهب والهرج وخربت القرى، واستطال الأمر عليهم وكان السلطان بركيارق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق جميعه إلا تكريت. وأما البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا، والخطبة بالبصرة لهما جميعاً. وأما خراسان من جرجان إلى ما وراء النهر، فكان يخطب فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد. فلما استبصر بركيارق في ذلك، ورأى تحكم الأمراء عليه، وقلة المال، جنح إلى الصلح وبعث القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمذاني، المعروف بصاحب قراتكين إلى أخيه محمد في الصلح، فوصلا إليه بمراغة وذكّراه ووعظاه فأجاب إلى الصلح على أن السلطان لبركيارق، ولا يمنع محمداً من اتخاذ الآلة، ولا يذكر أحد منهما مع صاحبه في الخطبة في البلاد التي صارت إليه وتكون المكاتبة من وزيريهما في الشؤن لا يكاتب أحدهما الآخر، ولا يعارض أحد من العسكر في الذهاب إلى أيهما شاء، ويكون للسلطان محمد من نهر إسبندرو إلى الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، وأن يدخل سيف الدولة صدقة بأعماله في خلفه وبلاده والسلطنة كلها، وبقية الأعمال والبلاد كلها للسلطان بركيارق.

وبعث محمد إلى أصحابه بأصبهان بالإفراج عنها لأصحاب أخيه، وجاؤوا بحريم محمد إليه بعد أن دعاهم السلطان بركيارق إلى خدمته فامتنعوا فأكرمهم، وحمل حريم أخيه وزودهم بالأموال، وبعث العساكر في خدمتهم. ثم بعث السلطان بركيارق إلى المستظهر بما استقر عليه الحال في الصلح بينهم، وحضر أبو الغازي بالديوان وهو شحنة محمد وشيعته، إلا أنه وقف مع الصلح، فسأل الخطبة لبركيارق فأمر بها المستظهر، وخطب له على منابر بغداد وواسط في جمادى سنة سبع وتسعين، ونكر الأمير صدقة صاحب الحلة الخطبة لبركيارق وكان شيعة لمحمد. وكتب إلى الخليفة بالنكير على أبي الغازي وأنه سائر لإخراجه عن بغداد، فجمع أبو الغازي التركمان، وفارق بغداد إلى عقرقوبا وجاء سيف الدولة صدقة ونزل مقابل التاج وقبل الأرض وخيم بالجانب الغربي. وأرسل

إليه أبو الغازي يعتذر عن طاعة بركيارق بالصلح الواقع، وأن إقطاعه بحلوان في جملة بلاده التي وقع الصلح عليها وبغداد التي هو شحنه فيها قد صارت له فقبل ورضي، وعاد إلى الحلة وبعث المستظهر في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين الخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والخطير وزير بركيارق، وبعث معهما العهد له بالسلطنة واستحلفه الرسل على طاعة المستظهر ورجعوا.

وفاة السلطان بركيارق وملك ابنه ملك شاه

كان السلطان بركيارق بعد الصلح وانعقاده أقام بأصبهان أشهراً وطرقه المرض فسار إلى بغداد، فلما بلغ بلد يزدجرد اشتد مرضه وأقام بها أربعين يوماً حتى أشفى على الموت، فأحضر ولده ملك شاه وجماعة الأمراء، وولاه عهده في السلطنة، وهو ابن خمس سنين وجعل الأمير أياز أتابكه، وأوصاهم بالطاعة لهما واستحلفهم على ذلك، وأمرهم بالمسير إلى بغداد وتخلف عنهم ليعود إلى أصبهان فتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين. وبلغ الخبر إلى ابنه ملك شاه والأمير أياز على اثني عشر فرسخاً من بلد يزدجرد فرجعوا، وحضروا لتجهيزه وبعثوا به إلى أصبهان للدفن بها في تربة أعدها، وأحضر أياز السرادقات والخيام والخفر والشمسة، وجميع آلات السلطنة فجعلها لملك شاه. وكان أبو الغازي شحنة ببغداد وقد حضر عند السلطان بركيارق بأصبهان في المحرم وحثه على المسير إلى بغداد، فلما مات بركيارق سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز ووصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر في خمسة آلاف فارس، وركب الوزير أبو القاسم علي بن جهير لتلقيهم فلقيهم بديالي، وأحضر أبو الغازي والأمير طُمايدل بالديوان وطلبوا الخطبة لملك شاه بن بركيارق فأجاب المستظهر إلى ذلك وخطب له ولقب بألقاب جده ملك شاه ونثرت الدنانير عند الخطبة.

وصول السلطان محمد إلى بغداد واستبداده بالسلطنة والخطبة ومقتل أياز

كان محمد بعد صلحه مع أخيه بركيارق قد اعتزم على المسير إلى الموصل ليتناولها من يد جكرمس لما كانت من البلاد التي عقد عليها وكان بتبريز ينتظر وصول أصحابه من أذربيجان، فلما وصلوا استوزر سعد الملك أبا المحاسن لحسن أثره في حفظ أصبهان. ثم رحل في صفر سنة ثمان وتسعين يريد الموصل وسمع جكرمس فاستعد للحصار وأمر أهل السواد بدخول البلد. وجاء محمد فحاصره وبعث إليه كتب أخيه بأن الموصل والجزيرة من قسمته، وأراه أيمانه بذلك، ووعده بأن يقره على ولايتها فقال جكرمس: قد جاءتني كتب بركيارق بعد الصلح بخلاف هذا فاشتد محمد في حصاره، وقتل بين الفريقين خلق، ونقب السور ليلة فأصبحوا وأعادوه، ووصل الخبر إلى جكرمس بوفاة بركيارق عاشر جمادى فاستشار أصحابه ورأى المصلحة في طاعة السلطان محمد فأرسل إليه بالطاعة، وأن يدخل إليه وزيره سعد الملك فدخل، وأشار عليه بالحضور عند السلطان فحضر، وأقبل السلطان عليه ورده لجيشه لما توقع من ارتياب أهل البلد بخروجه، وأكثر من الهدايا والتحف للسلطان ولوزيره.

ولما بلغه وفاة أخيه بركيارق سار إلى بغداد ومعه سقمان القطبي نسبة إلى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوتا بن داود، وداود هو حقربيك وأبو ألب أرسلان، وسار معه جكرمس وصاحب الموصل وغيرهما من الأمراء. وكان سيف الدولة صاحب الحلة قد جمع عسكراً خمسة عشر ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف رجل، وبعث ولديه بدران ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على بغداد. ولما سمع الأمير أياز بقدومه، خرج هو وعسكره وخيموا خارج بغداد واستشار أصحابه فصمموا على الحرب، وأشار وزيره أبو المحاسن بطاعة السلطان محمد وخوّفه عاقبة خلافه وسفه آراءهم في حربه، وأطمعه في زيادة الإقطاع، وتردد أياز في أمره وجمع السفن عنده، وضبط المثار ووصل السلطان محمد آخر جمادى من سنة ثمان وتسعين، ونزل بالجانب الغربي وخطب له هنالك، وللملك شاه بالجانب الشرقي. واقتصر خطيب جامع المنصور على الدعاء للمستظهر ولسلطان العالم فقط. وجمع أياز أصحابه لليمين فأبوا من المعاودة وقالوا: لا فائدة فيها والوفاء إنما يكون بواحدة فارتاب أياز بهم، وبعث وزيره المصفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد في الصلح، وتسليم الأمر فلقي أولاً وزيره سعد الملك أبا المحاسن سعد بن محمد وأخبر فأحضره عند السلطان محمد وأدى رسالة أياز والعذر عما كان منه أيام بركيارق فقبله السلطان وأعتبه، وأجابه إلى اليمين.

وحضر من الغد القاضي والنقيبان واستحلف الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي -وزير أياز بمحضرهم- لملك شاه ولأياز وللأمراء الذين معه، فقال: أما ملك شاه فهو ابني وأما أياز والأمراء فأحلف لهم إلا نيال بن أنوش، وسار واستحلفه الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي والنقيبين. ثم حضر أياز

من الغد ووصل سيف الدولة صدقة وركب السلطان للقائهما وأحسن إليهما، وعمل أياز دعوة في داره وهي دار كوهرايين وحضر عنده السلطان وأتحفه بأشياء كثيرة منها حبل البلخش الذي كان أخذه من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك. وحضر مع السلطان سيف الدولة صدقة بن مزيد. وكان أياز قد تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان، وحضر عندهم بعض الصفاعين فأخذوا معه في السخرية وألبسوه درعاً تحت قميصه، وجعلوا يتناولونه بأيديهم فهرب منهم إلى خواص السلطان، ورآه السلطان متسلحاً فأمر بعض غلمانه فالتمسوه وقد وجدوا السلاح فارتاب ونهض من دار أياز.

ثم استدعاه بعد أيام ومعه جكرمس وسائر الأمراء فلما حضر وقف عليهم بعض قواده وقال لهم: إن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصد ديار بكر ليملكها فأشيروا بمن نسيره لقتاله، فأشاروا جميعاً بالأمير أياز، وطلب هو مسير سيف الدولة صدقة معه فاستدعى أياز وصدقة ليفوضهم في ذلك فنهضوا إليه، وقد أعد جماعة من خواصه لقتل أياز فلما دخلوا ضرب أياز فقطع رأسه ولف شلوه في مشلح وألقي على الطريق. وركب عسكره فنهبوا داره وأرسل السلطان لحمايتها فافترقوا واختفى وزيره. ثم حمل إلى دار الوزير سعد الملك وقتل في رمضان من سنته. وكان من بيت رياسة بهمذان وكان أياز من مماليك السلطان ملك شاه، وصار بعد موته في جملة أمير آخر فاتخذه ولداً، وكان شجاعاً حسن الرأي في الحرب واستبد السلطان محمد بالسلطنة وأحسن السيرة، ورفع الضرائب، وكتب بها الألواح ونصبت في الأسواق وعظم فساد التركمان بطريق خراسان، وهي من أعمال العراق فبعث أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد بدل ابن أخيه بهرام بن أرتق على ذلك البلد فحماه وكف الفساد منه. وسار إلى حصن من أعمال سرخاب بن بدر فحصره وملكه. ثم ولى السلطان محمد سنقر البرسقي شحنة بالعراق وكان معه في حروبه وأقطع الأمير قاياز الكوفة وأمر صدقة صاحب الحلة أن يحمي أصحابه من خفاجة. ولما كان شهر رمضان من سنة ثمانية وتسعين عاد السلطان محمد إلى أصبهان وأحسن فيهم السيرة وكف عنهم الأيدي العادية.

الشحنة ببغداد

كان السلطان قد قبض سنة اثنتين وخمسين على أبي القاسم الحسين بن عبد الواحد صاحب المخزن، وعلي بن الفرج ابن رئيس الرؤساء واعتقلهما وصادرهما على مال يحملانه، وأرسل مجاهد الدين لقبض المال، وأمره بعمارة دار الملك فاضطلع بعمارتها، وأحسن السيرة في الناس وقدم السلطان أثر ذلك إلى بغداد فشكر سيرته، وولاه شحنة بالعراق وعاد إلى أصبهان.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة من سنة إحدى وخمسمائة، وقد كان عهد لولده محمود وهو يومئذ غلام محتلم، وأمره بالجلوس على التخت بالتاج والسوارين وذلك لاثنتي عشرة سنة ونصف من استبداده بالملك واجتماع الناس عليه بعد أخيه. وولي بعده ابنه محمود وبايعه أمراء السلجوقية، ودبر دولته الوزير الرسب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير أبيه، وبعث إلى المستظهر في الخطبة فخطب له على منابر بغداد منتصف المحرم سنة اثنتي عشرة، وكان أقسنقر البرسقي مقيماً بالرحبة استخلف بها ابنه مسعوداً، وسار إلى السلطان محمد يطلب الزيادة في الإقطاع والولاية ولقيه خبر وفاته قريباً من بغداد فمنعه بهروز الشحنة من دخولها، وسار إلى أصبهان فلقيه بحلوان توقيع السلطان محمود بأن يكون شحنة بغداد لسعي الأمراء له في ذلك تعصباً على مجاهد الدين بهروز وغيره منه لمكانه عند السلطان محمد.

ولما رجع أقسنقر إلى بغداد هرب مجاهد الدين بهروز إلى تكريت وكانت من أعماله. ثم عزل السلطان محمود أقسنقر وولى شحنة بغداد الأمير منكبرس حاكماً في دولته بأصبهان، فبعث نائباً عنه ببغداد والعراق الأمير حسين بن أرويك أحد أمراء الأتراك. ورغب البرسقي من المستظهر بالعدة فلم يتوقف فسار أقسنقر إليه وقاتله وانهزم الأمير حسين وقتل أخوه وعاد إلى عسكر السلطان وذلك في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة.

وفاة المستظهر وخلافة المسترشد

ثم توفي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله أبو القاسم عبد الله بن القائم بالله في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة لأربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر من خلافته، وبويع بعده ابنه المسترشد بالله الفضل، وكان ولي عهده منذ ثلاث وعشرين سنة وبايعه أخوه عبد الله محمد وهو المقتدي، وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وتولى أخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني،

وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد عليها، ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا للمسترشد، وأحمد بن أبي داود للواثق والقاضي أبو علي إسماعيل بن إسحاق للمعتضد. ثم عزل المسترشد قاضي القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الرسب أبي منصور، خاطبه أبوه وزير السلطان محمود وابنه محمد في شأنه فاستوزره، ثم عزله سنة عشر واستوزر مكانه جلال الدين عميد الدولة أبا علي بن صدقة، وهو عم جلال الدين أبي الرضي بن صدقة وزير الراشد.

ولما شغل الناس ببيعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن في السفن مع ثلاثة نفر وانحدروا إلى المدائن، ومنها إلى الحلة فأكرمه دبيس، وأهمّ ذلك المسترشد وبعث إلى دبيس في إعادته مع النقيب علي بن طراد الرئيني فاعتذر بالذمام، وأنه لا يكرهه فخطب النقيب أبا الحسن أخا الخليفة في الرجوع فاعتذر بالخوف، وطلب الأمان. ثم حدث من البرسقي ودبيس ما نذكره فتأخر ذلك إلى صفر من سنته وهي سنة ثلاث عشرة، فسار أبو الحسن بن المستظهر إلى واسط وملكها، فبادر المسترشد إلى ولاية العهد لابنه جعفر المنصور ابن اثنتي عشرة سنة، فخطب له وكتب إلى البلاد بذلك، وكتب إلى دبيس بمعاجلة أخيه أبي الحسن فإنه فارق ذمامه فبعث دبيس العساكر إلى واسط فهرب منها، وصادفوه عند الصبح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد والأتراك عنه، وقبض عليه بعض الفرق وجاؤوا به إلى دبيس فأكرمه المسترشد وأمنه وأنزله أحسن نزل.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود ثم مصالحته واستقرار جكرمس شحنة ببغداد

كان السلطان محمد قد أنزل ابنه مسعوداً بالحلة وجعل معه حيوس بك أتابك، فلما ملك السلطان محمود بعد وفاة أبيه، ثم ولي المسترشد الخلافة بعد أبيه، وكان دبيس صاحب الحلة ممرضاً في طاعته، وكان أقسنقر البرسقي شحنة بالعراق كما ذكرناه، أراد قصد الحلة وأخلى دبيس عنها، وجمع لذلك جموعاً من العرب والأكراد، وبرز من بغداد في جمادى سنة اثنتي عشرة، وبلغ الخبر إلى الملك مسعود بالموصل وأن العراق خال من الحامية، فأشار عليه أصحابه بقصد العراق للسلطنة فلا مانع دونها. فسار في جيوش كثيرة ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وسيأتي خبره، وقسيم الدولة زنكي بن أقسنقر ابن الملك العادل، وصاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب أربل، وكربادي بن خراسان التركماني صاحب البواريخ.

ولما قربوا من العراق خافهم أقسنقر البرسقي بمكان حيوس بك من الملك المسعود، وأما هو فقد كان أبوه محمد جعله أتابك لابنه مسعود فسار البرسقي لقتالهم، وبعثوا إليه الأمير كربادي في الصلح، وأنهم إنما جاؤوا بمدة له على دبيس فقبل، وتعاهدوا ورجعوا إلى بغداد كما مر خبره، وسار البرسقي لقتاله فاجتمع مع دبيس بن صدقة واتفقا على المعاضدة، وسار الملك مسعود ومن معه إلى المدائن للقاء دبيس ومنكبرس. ثم بلغهم كثرة جموعهما فعاد الملك مسعود والبرسقي وحيوس بك، وعبروا نهر صرصر وحفظ المخاضات وأفحش الطائفتان في نهب السواد واستباحته بنهر الملك ونهر صرصر ونهر عيسى ودجيل. وبعث المسترشد إلى الملك مسعود والبرسقي بالنكير عليهم فأنكر البرسقي وقوع شيء من ذلك، واعتزم على العود إلى بغداد، وبلغه أن دبيس ومنكبرس قد جهز العساكر إليها مع منصور أخي دبيس وحسن بن أوويك ربيب منكبرس فأغذ السير وخلف ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر، واستصحب عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وجاؤوا بغداد ليلاً فمنعوا عساكر منكبرس ودبيس من العبور.

ثم انعقد الصلح بين منكبرس والملك مسعود وكان سببه أن حيوس بك كاتب السلطان محمود وهو بالموصل في طلب الزيادة له وللملك مسعود، فجاء كتاب الرسول بأنه أقطعهم أذربيجان، ثم بلغه قصدهم بغداد فاتهمهم بالانتقاض وجهز العساكر إلى الموصل وسقط الكتاب بيد منكبرس، وكان على أم الملك مسعود فبعث به إلى حيوس بك، وداخله في الصلح والرجوع عما هم فيه فاصطلحوا واتفقوا. وبلغ الخبر إلى البرسقي فجاء إلى الملك مسعود وأخذ ماله وتركه، وعاد إلى بغداد فخيم بجانب منها، وجاء الملك مسعود وحيوس بك فخيما في جانب آخر، وأصعد دبيس ومنكبرس فخيما كذلك، وتفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه وسار عن العراق إلى الملك مسعود فأقام معه، واستقر منكبرس شحنة ببغداد وعاد دبيس إلى الحلة، وأساء منكبرس السيرة في بغداد بالظلم والعسف، وانطلاق أيدي أصحابه بالفساد حتى ضجر الناس، وبعث عنه السلطان محمود فسار إليه وكفى الناس شره.

انتقاض الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل قد أقطعه أبوه السلطان محمد سنة أربع وخمسين وخمسمائة ساوة وآوة وزنجان، وجعل أتابكه الأمير شركير، وكان قد افتتح كثيراً من قلاع الإسماعيلية فاتسع ملك طغرل بها، ولما مات السلطان محمد بعث السلطان محمود الأمير كتبغري أتابك طغرل، وأمره أن يحمله إليه، وحسن له المخالفة فانتقض سنة ثلاث عشرة، فبعث إليه السلطان بثلاثين ألف دينار وتحف وودعه بأقطاع كثيرة، وطلبه في الوصول فمنعه كتبغري وأجاب بأننا في الطاعة، ومعنا العساكر وإلى أي جهة أراد السلطان قصدنا. فاعتزم السلطان على السير إليهم وسار من همذان في جمادى سنة ثلاث عشرة في عشرة آلاف غازياً وجاء النذير إلى كتبغري بمسيره، فأجفل هو وطغرل إلى قلعة سرجهان، وجاء السلطان إلى العسكر بزنجان فنهبه وأخذ من خزانة طغرل ثلاثمائة ألف دينار، وأقام بزنجان وتوجه منها إلى الري وكتبغري من سرجهان بكنجة، وقصده أصحابه وقويت شوكته وتأكدت الوحشة بينه وبين أخيه السلطان محمود.

الفتنة بين السلطان محمود وعمه سنجر صاحب خراسان والخطبة ببغداد لسنجر

كان الملك سنجر أميراً على خراسان وما وراء النهر منذ أيام شقيقه السلطان محمد الأولي مع بركيارق. ولما توفي السلطان محمد جزع له جزعاً شديداً حتى أغلق البلد للعزاء، وتقدم للخطبة بذكر آثاره ومحاسن سيره من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك. وبلغه ملك ابنه محمود مكانه وتغلب الأمراء عليه، فنكر ذلك واعتزم على قصد بلد الجبل والعراق، وأتى له محمود ابن أخيه، وكان يلقب بناصر الدين فتلقب بمعز الدين لقب أبيه ملك شاه. وبعث إليه السلطان محمود بالهدايا والتحف مع شرف الدولة أنوشروان بن خالد، وفخر الدولة طغايرك بن أكفرين وبذل عن مازندان مائتي ألف دينار كل سنة فتجهز لذلك، ونكر على محمود تغلب وزيره أبي منصور وأمير حاجب علي بن عمر عليه، وسار وعلى مقدمته الأمير أنز، وجهز السلطان محمود علي بن عمر حاجبه وحاجب أبيه في عشرة آلاف فارس، وأقام هو بالري. فلما قارب الحاجب مقدمة سنجر مع الأمير أنز بجرجان راسله بالين والخشونة، وأن السلطان محمداً وصانا بتعظيم أخيه سنجر واستحلفنا على ذلك إلا أنا لا نقضي على زوال ملكنا.

ثم تهدده بكثرة العساكر وقوتها فرجع أنز عن جرجان، واتبعه بعض العساكر فنالوا منه. وعاد علي بن عمر إلى السلطان محمود فشكره، وأشار عليه أصحابه بالمقام بالري فلم يقبل. ثم ضجر وسار إلى حرقان وتوافت إليه الأمداد من العراق، منكبرس شحنة بغداد في عشرة آلاف فارس، ومنصور أخو دبيس وأمراء البلخية وغيرهم. وسار إلى همذان فأقام بها وتوفي بها وزيره الربيب، واستوزر مكانه أبا طالب السميري. ثم جاء السلطان سنجر إلى الري في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد، والأمير أنز والأمير قماج، واتصل به علاء الدولة كرساسف بن قرامرد بن كاكويه صاحب يزد وكان صهر محمد وسنجر على أختهما. واختص بمحمد ودعاه محمود فتأخر عنه فأقطع بلده لقراجا الساقي الذي ولي بعد ذلك فارس.

وسار علاء الدولة إلى سنجر وعرفه حال السلطان محمود واختلاف أصحابه وفساد بلاده، فزحف إليه السلطان محمود من همذان في ثلاثين ألفاً، ومعه علي بن عمر أمير حاجب ومنكبرس وأتابكة غز غلي وبنو برسق وسنجق البخاري وقراجا الساقي ومعه تسعمائة حمل من السلاح والتقيا على ساوة في جمادى سنة ثلاث عشرة فانهزمت عساكر السلطان سنجر أولاً وثبت هو بين الفيلة والسلطان محمود، واجتمع أصحابه إليه. وبلغ الخبر إلى بغداد فأرسل دبيس بن صدقة إلى المسترشد في الخطبة للسلطان سنجر فخطب له آخر جمادى، وقطعت خطبة محمود بعد الهزيمة إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميري والأمير علي بن عمر وقراجا، واجتمعت عليه العساكر وقوي أمره.

وسار السلطان سنجر من همذان ورأى قلة عساكره فراسل ابن أخيه في الصلح، وكانت والدته وهي جدة محمود تحرضه على ذلك فأجاب إليه. ثم وصل إليه أقنسقر البرسقي الذي كان شحنة ببغداد، وكان عند الملك مسعود من يوم انصرافه عنها، وجاء رسوله من عند السلطان محمود بأن الصلح إنما يوافق عليه الأمراء بعد عود السلطان سنجر إلى خراسان، فأنف من ذلك وسار من همذان إلى الكرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح وأن يكون ولي عهده فأجاب إلى ذلك، وتحالفا عليه. وجاء السلطان محمود إلى عمه سنجر ونزل في بيت والدته وهي جدة محمود، وحمل إليه هدية حفلة. وكتب السلطان سنجر إلى أعماله بخراسان وغزنة وما وراء النهر وغيرها من الولايات بأن يخطب للسلطان محمود، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك، وأعاد عليه جميع البلاد سوى

الري لئلا تحدث محموداً نفسه بالانتقاض.

ثم قتل السلطان محمود الأمير منكبرس شحنة بغداد لأنه لما انهزم محمود وسار إلى بغداد ليدخلها منعه دبيس فعاث في البلاد، ورجع وقد استقر في الصلح فقصد السلطان مستجيراً به فأبى من إجارته ومؤاخذته، وبعثه إلى السلطان محمود فقتله صبراً لما كان يستبد عليه بالأمور. وسار شحنة إلى بغداد على زعمه فحقد له ذلك، وأمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز شحنة بالعراق، وكان بها نائب دبيس بن صدقة فعزل به. ثم قتل السلطان محمود حاجبه علي بن عمر وكان قد استخلفه ورفع منزلته فكثرت السعاية فيه فهرب إلى قلعة عند الكرخ، كان بها أهله وماله. ثم لحق بخوزستان وكان بيد بني برسق فاقتضى عهودهم وسار إليهم. فلما كان على تستر بعثوا من يقبض عليه فقاتلهم فلم يقر عنه وأسروه واستأذنوا السلطان محموداً في أمره فأمر بقتله وحمل رأسه إليه.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والفتنة بينهما

كان الملك مسعود قد استقر بالموصل وأذربيجان منذ صالحه السلطان محمود عليها بأول ملكه، وكان أقسنقر البرسقي مع الملك مسعود منذ فارق شحنة بغداد، وأقطعه مراغة مضافة إلى الرحبة وكان دبيس يكاتب حيوس بك الأتابك في القبض عليه وبعثه إلى مولاه السلطان محمود، ويبذل لهم المال على ذلك. وشعر بذلك البرسقي ففارقه السلطان محمود، وعاد إلى جميل رأيه فيه. وكان دبيس مع ذلك يغري الأتابك حيوس بك بالخلاف على السلطان محمود، ويعدهم من نفسه المناصرة لينال باختلافهم في تمهيد سلطانه ما ناله أبوه باختلاف بركيارق ومحمد. وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري وهي العلامة على مراسيمه، ومنها هباته. وجاء والده أبو إسماعيل من أصبهان فعزل الملك مسعود وزيره أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستوزره مكانه سنة ثلاث عشرة فحسن له الخلاف الذي كان دبيس يكاتبهم فيه ويحسنه لهم. وبلغ السلطان محموداً خبرُهم فكتب يحذرهم فلم يقبلوا وخلعوا، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس، وذلك سنة أربع عشرة.

وكانت عساكر السلطان محمود مفترقة فبادروا إليه والتقوا في عقبة أستراباذ منتصف ربيع الأول، والبرسقي في مقدمة محمود، وأبلى يومئذ، واقتتلوا يوماً كاملاً وانهزمت عساكر مسعود في عشيته وأسر جماعة منهم، وفيهم الوزير الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فأمر السلطان بقتله لسنة من وزارته، وقال: هو فاسد العقيدة، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في الكيمياء. وقصد الملك مسعود بعد الهزيمة جبلاً على اثني عشر فرسخاً من مكان الوقعة فاختفى فيه، وبعث يطلب الأمان من أخيه فبعث إليه البرسقي يؤمنه ويحضره.

وكان بعض الأمراء قد لحق به في الجبل وأشار عليه باللحاق بالموصل، واستمد دبيساً فسار لذلك وأدركه البرسقي على ثلاثين فرسخا من مكانه وأمنه على أخيه، وأعاده إليه فأريب العساكر للقائه وبالغ في إكرامه وخلطه بنفسه. وأما أتابكة حيوس بك فلما افتقد السلطان مسعود سار إلى الموصل وجمع العساكر، وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب. ثم جاء السلطان بهمذان فأمنه وأحسن إليه. وأما دبيس فلما بلغه خبر الهزيمة عاث في البلاد وأخربها وبعث إليه المسترشد بالنكير فلم يقبل، فكتب بشأنه إلى السلطان محمود وخاطبه السلطان في ذلك فلم يقبل، وسار إلى بغداد وخيم إزاء المسترشد وأظهر أنه يثأر منهم بأبيه.

ثم عاد عن بغداد ووصل السلطان في رجب، فبعث دبيس إليه زوجته بنت عميد الدولة بن جهير بمال وهدايا نفيسة وأجيب إلى الصلح على شروط امتنع منها فسار إليه السلطان في شوال ومعه ألف سفينة. ثم استأمن إلى السلطان فأمنه وأرسل نساءه إلى البطيحة. وسار إلى أبي الغازي مستجيراً به، ودخل السلطان الحلة وعاد عنها ولم يزل دبيس عند أبي الغازي. وبعث أخاه منصوراً إلى أصحابه من أمراء النواحي ليصلح حاله مع السلطان فلم يتم ذلك. وبعث إليه أخوه منصور يستدعيه إلى العراق، فسار من قلعة جعبر إلى الحلة سنة خمس عشرة وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان بالاعتذار والوعد بالطاعة، فلم يقبل منه، وسارت إليه العساكر مع سعد الدولة بن تتش ففارق الحلة ودخلها سعد وأنزل بالحلة عسكراً وبالكوفة آخر. ثم راجع دبيس الطاعة على أن يرسل أخاه منصوراً رهينة فقبل، ورجع العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة.

إقطاع الموصل للبريقي وميافارقين لأبي الغازي

ثم أقطع السلطان محمود الموصل وأعمالها، والجزيرة وسنجار وما يضاف إلى ذلك للأمير أقسنقر البرسقي شحنة بغداد،

وذلك انه كان ملازماً للسلطان في حروبه ناصحاً له وهو الذي حمل السلطان مسعوداً على طاعة أخيه محمود وأحضره عنده، فلما حضر حيوس بك وزيره عند السلطان محمود من الموصل بقيت بدون أمير، فولى عليها البرسقي سنة خمس عشرة وخمسمائة، وأمره بمجاهدة الفرنج فأقام في إمارتها دهراً هو وبنوه كما يأتي في أخبارهم. ثم بعث الأمير أبو الغازي بن أرتق ابنه حسام الدين تمرتاش شافعاً في دبيس بن صدقة، وأن يضمن الحلة بألف دينار وفرس في كل يوم، ولم يتم ذلك. فلما انصرف عن السلطان أقطع أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين وتسلمها من يد سقمان صاحب خلاد سنة خمس عشرة، وبقيت في يده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة كما يذكر في أخبارهم.

طاعة طغرل لأخيه السلطان محمود

قد تقدم ذكر انتقاض الملك طغرل بساوة وزنجان على أخيه السلطان محمود بمداخلة أتابكة كتبغري، وأن السلطان محموداً المشار إليه أزعجه إلى كنجة، وسار إلى أذربيجان يحاول ملكها. ثم توفي أتابكة كتبغري في شوال سنة خمس عشرة، وكان أقسنقر الأحمد يلي صاحب مراغة فطمع في رتبة كتبغري، وسار إلى طغرل واستدعاه إلى مراغة وقصدوا أردبيل فامتنعت عليهم، فجاؤوا إلى تبريز، وبلغهم أن السلطان أقطع أذربيجان لحيوس بك، وبعثه في العساكر وأنه سبقهم إلى مراغة فعدلوا عنها وكافؤوا صاحب زنجان فأجابهم وسار معهم إلى أبهر، فلم يتم لهم مرادهم، وراسلوا السلطان في الطاعة واستقر حالهم، وأما حيوس بك فوقعت بينه وبين الأمراء من عسكره منافرة، فسعوا به عند السلطان فقتله بتبريز في رمضان من سنته، وكان تركياً من مماليك السلطان محمد، وكان حسن السيرة مضطلعاً بالولاية. ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد قد عاثوا في نواحيها، وأخافوا سبلها فأوقع بهم وحصر قلاعهم، وفتح الكثير منها ببلد الهكارية وبلد الزوزان وبلد النسوية وبلد النحسة، حتى خاف الأكراد واطمأن الناس وأمنت السبل.

أخبار دبيس مع المسترشد

قد ذكرنا مسير العساكر إلى دبيس مع برسق الكركوي سنة أربع عشرة وكيف وقع الاتفاق وبعث دبيس أخاه منصوراً رهينة فجاء برنقش به إلى بغداد سنة ست عشرة، ولم يرض المسترشد ذلك، وكتب إلى السلطان محمود بأن دبيس لا يصلحه شيء لأنه مطالب بثأر أبيه، وأشار بأن يبعث عن البرسقي من الموصل لتشديد دبيس ويكون شحنة ببغداد فبعث إليه السلطان وأنزله شحنة ببغداد، وأمره بقتال دبيس، فأقام عشرين شهراً ودبيس معمل في الخلاف. ثم أمره المسترشد بالمسير إليه وإخراجه من الحلة، فاستقدم البرسقي عساكره من الموصل، وسار إلى الحلة، ولقيه دبيس فهزم عساكره ورجع إلى بغداد في ربيع من سنة ست عشرة، وكان معه في العسكر مضر بن النفيس بن مذهب الدولة أحمد بن أبي الخير عامل البطيحة، فغدا عليه عمه المظفر بن عماد بن أبي الخير فقتله في انهزامهم.

وسار إلى البطيحة فتغلب عليها، وكاتب دبيس في الطاعة، وأرسل دبيس إلى المسترشد بطاعته، وأن يبعث عماله لقرى الخاص يقبضون دَخْلها على أن يقبض المسترشد على وزيره جلال الدين بن علي بن صدقة فتم بينهما ذلك، وقبض المسترشد على وزيره، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضي إلى الموصل، وبلغ الخبر بالهزيمة إلى السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس وحبسه، وأذن دبيس لأصحاب الإقطاع بواسط في المسير إلى اقطاعهم، فمنعهم الأتراك منها، فجهز إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر وأمر مظفر بن أبي الخير عامل البطيحة بمساعدته وبعث البرسقي المدد إلى أهل واسط فلقيهم مهلهل بن أبي المظفر فهزموه وأسروه وجماعة من عسكره واستلحموا كثيراً منهم.

وجاء المظفر أبو الخير على أثره، وأكثر النهب والعيث، وبلغه خبر الهزيمة فرجع وبعث أهل واسط بتذكرة وجدوها مع مهلهل بخط دبيس فأمره بالقبض على المظفر فمال إليهم وانحرف عن دبيس، ثم بلغ دبيس أن السلطان محموداً سمل أخاه منصوراً، فانتقض ونهب ما كان للخليفة بأعماله، وسار أهل واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها أصحاب دبيس. وتقدم المسترشد إلى البرسقي بالمسير لحرب دبيس فسار لذلك كما نذكر. ثم أقطع السلطان محمود مدينة واسط للبرسقي مضافة إلى ولاية الموصل فبعث عماد الدين زنكي بن أقسنقر ولد نور الدين العادل.

نكبة الوزير ابن صدقة وولاية نظام الملك

قد ذكرنا آنفاً أن دبيس اشترط على المسترشد في صلحه معه القبض على وزيره جلال الدين أبي علي بن صدقة، فقبض عليه في جمادى سنة ست عشرة، وأقام في نيابة الوزارة شرف الدين علي بن طراد الزينبي. وهرب جلال الدين أبو الرضي ابن أخي

الوزير إلى الموصل. وبعث السلطان محمود إلى المسترشد في أن يستوزر نظام الدولة أبا نصر أحمد بن نظام الملك، وكان السلطان محمود قد استوزر أخاه شمس الملك عثمان عندما قتل الباطنية بهمذان..... وزيره الكمال أبا طالب السميري فقبل المسترشد إشارته، واستوزر نظام الملك، وقد كان وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة، ثم عزل ولزم داره ببغداد. فلما وزر وعلم ابن صدقة أنه يخرجه طلب من المسترشد أن يسير إلى سليمان بن مهارش بحديثة غانة، فأذن له، فسار ونهب في طريقه وأسر، ثم خلص إلى مأمنه في واقعة عجيبة. ثم قتل السلطان محمود وزيره شمس الملك فعزل المسترشد أخاه نظام الدين أحمد عن وزارته، وأعاد جلال الدين أبا علي بن صدقة إلى مكانه.

واقعة المسترشد مع دبيس

كان دبيس في واقعته مع البرسقي قد أسر عفيفاً الخادم، ثم أطلقه سنة سبع عشرة، وحمله إلى المسترشد رسالة بخروج البرسقي للقتال يتهدده بذلك على ما بلغه من سمل أخيه، وحلف لينهبن بغداد، فاستطار المسترشد غضباً وأمر البرسقي بالمسير لحربه، فسار في رمضان من سنته. ثم تجهز للخليفة وبرز من بغداد واستدعى العساكر فجاءه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في بني عقيل، وقرواش بن مسلم وغيرهما. ونهب دبيس نهر الملك من خاص الخليفة ونودي في بغداد بالنفير فلم يتخلف أحد، وفرقت فيهم الأموال والسلاح وعسكر المسترشد خارج بغداد في عشر ذي الحجة، وبرز لأربع بعدها وعبر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني، ووزيره معه نظام الدين ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم. فنزل بخيمة، وبلغ البرسقي خروجه فعاد بعسكره إليه.

ونزل المسترشد بالحديثة بنهر الملك واستحلف البرسقي والأمراء على المناصحة، وسار فنزل المباركة، وعبى البرسقي أصحابه للحرب ووقف المسترشد وراء العسكر في خاصته، وعبى دبيس أصحابه صفاً واحداً وبين يديهم الإماء تعزف وأصحاب الملاهي، وعسكر الخليفة تتجاذب القراءة والتسبيح مع جنباته، ومع أعلامه كرباوي خراسان وفي الساقة سليمان بن مهارش. وفي ميمنة البرسقي أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البلخية، فحمل عنتر بن أبي العسكر من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فدحرها وقتل ابن أخي أبي بكر. ثم حمل ثانية كذلك فحمل عماد الدين زنكي بن أقسنقر في عسكر واسط على عنتر بن أبي العسكر فأسره ومن معه.

وكان من عسكر المسترشد كمين متوار، فلما التحم الناس خرج الكمين واشتد الحرب وجرد المسترشد سيفه وكبر وتقدم فانهزمت عساكر دبيس، وجيء بالأسرى فقتلوا بين يدي الخليفة وسُبي نساؤهم، ورجع الخليفة إلى بغداد في عاشوراء من سنة سبع عشرة. وذهب دبيس وخفي أثره وقصد غزية من العرب فأبوا من ذلك إيثاراً لرضا المسترشد والسلطان، فسار إلى المشقر من البحرين فأجابوه وسار بهم إلى البصرة فنهبوها وقتلوا أميرها، وتقدم المسترشد للبرسقي بالانحدار إليه بعد أن عنفه على غفلته عنه، وسمع دبيس ففارق البصرة، وبعث البرسقي عليها زنكي بن أقسنقر فأحسن حمايتها وطرد العرب عن نواحيها، ولحق دبيس بالفرنج في جعبر وحاصر معهم حلب فلم يظفروا وأقلعوا عنها سنة ثمان عشرة، فلحق دبيس بطغرل ابن السلطان محمد وأغراه بالمسترشد وبملك العراق كما نذكر.

ولاية برتقش شحنة بغداد

ثم إن المسترشد وقعت بينه وبين البرسقي منافرة فكتب إلى السلطان محمود في عزله عن العراق، وإبعاده إلى الموصل فأجابه إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقي بالمسير إلى الموصل لجهاد الإفرنج، وبعث إليه بابن صغير من أولاده يكون معه وولى على شحنة بغداد برتقش الزكوي، وجاء نائبه إلى بغداد فسلم إليه البرسقي العمل وسار إلى الموصل بابن السلطان، وبعث إلى عماد الدين زنكي أن يلحق به فسار إلى السلطان، وقدم عليه بالموصل فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها.

وصول الملك طغرل ودبيس إلى العراق

قد ذكرنا مسير دبيس بن صدقة من الشام إلى الملك طغرل فأحسن إليه ورتبه في خاص أمرائه، وجعل دبيس يغريه بالعراق ويضمن له ملكه، فسار لذلك سنة تسع عشرة، ووصلوا دقوقاً، فكتب مجاهد الدين مهروز من تكريت إلى المسترشد يخبرهما، فتجهز إلى دفاعهما وسار إليهما. وأمر برتقش الزكوي الشحنة أن يستنفر ويستعد فبلغت عدة العسكر اثني عشر ألفاً سوى أهل بغداد، وبرز خامس صفر سنة تسع عشرة، وسار فنزل الخالص، وعدل طغرل إلى طريق خراسان، وأكثرت عساكره النهب، ونزل رباط جلولاء. وسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في

العساكر، فنزل الدسكرة وجاء المسترشد فنزل معه، وتوجه طغرل ودبيس فنزلا الهارونية، واتفقا أن يقطعا جسر النهروان فيقيم دبيس على المعابر، ويخالفهم طغرل إلى بغداد، ثم عاقتهم جميعاً عوائق المطر وأصابت طغرل الحمى، وجاء دبيس إلى النهروان ليعبر وقد لحقهم الجوع، فصادف أحمالاً من البر، والأطعمة جاءت من بغداد للمسترشد فنهبها، وأرجف في معسكر المسترشد أن دبيس ملك بغداد فأجفلوا من الدسكرة إلى النهروان وتركوا أثقالهم. ولما حلوا بالنهروان وجدوا دبيس وأصحابه نياماً فاستيقظ وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وتذلل فهمّ بصلحه ووصل الوزير ابن صدقة فثناه عن ذلك ثم مد المسترشد الجسر وعبر ودخل بغداد لفتنة خمسة وعشرين يوماً. وسار دبيس إلى طغرل ثم اعتزموا على المسير إلى السلطان سنجر، ومروا بهمذان فعاثوا في أعمالها وصادروا، واتبعهم السلطان فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر شاكين من المسترشد والشحنة برتقش.

الفتنة بين المسترشد والسلطان محمود

ثم وقعت بين برتقش الزكوي وبين نواب المسترشد نبوة فبعث إليه المسترشد يتهدده فخافه على نفسه، وسار إلى السلطان محمود في رجب سنة عشرين فحذر منه، وأنه ثاور العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه، وأشار بمعاجلته قبل أن يستفحل أمره ويمتنع عليه فسار السلطان نحو العراق، فبعث إليه المسترشد بالرجوع عن البلاد لما فيها من الغلاء من فتنة دبيس، وبذل له المال، وأن يسير إلى العراق مرة أخرى، فارتاب السلطان وصدق ما ظنه برتقش وأغذ السير فعبر المسترشد إلى الجانب الغربي مغضباً يظهر الرحيل عن بغداد إذ قصدها السلطان. وصانعه السلطان بالاستعطاف وسؤاله في العود فأبى فغضب السلطان ودخل نحو بغداد.

وأقام المسترشد بالجانب الغربي وبعث عفيفاً الخادم من خواصه في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وكان على البصرة كما ذكرناه، فسار إليه وهزمه وقتل من عسكره، ونجا عفيف إلى المسترشد برأسه فجمع المسترشد السفن وسد أبواب دار الخلافة إلا باب النوبي، ووصل السلطان في عشر ذي الحجة من سنة عشرين، ونزل باب الشماسية، ومنع العسكر عن دور الناس. وراسل المسترشد في العود والصلح فأبى، ونجا جماعة من عسكر السلطان فنهبوا التاج في أول المحرم سنة إحدى وعشرين فضج العامة لذلك واجتمعوا، وخرج المسترشد والشماسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الطبول ونفخ الأبواق، ونادى بأعلى صوته يا لهاشم! ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة. وكان في الدار رجال مختفون في السراديب فخرجوا على العسكر وهم مشتغلون في نهب الدار فأسروا جماعة منهم ونهب العامة دور أصحاب السلطان وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر الخنادق فحفرت ليلاً، ومنعوا بغداد عنهم، واعتزموا على كبس السلطان محمود.

وجاء عماد الدين زنكي من البصرة في حشود عظيمة ملأت البر والبحر فاعتزم السلطان على قتال بغداد، وأذعن المسترشد إلى الصلح فاصطلحوا وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، ومرض فأشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همذان ونظر فيمن يوليه شحنة العراق مضافاً إلى ما بيده، ويثق به في سد تلك الخلة. وحمل إليه الخليفة عند رحيله الهدايا والتحف الألطاف فقبل جميعها. ولما أبعد السلطان عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر النشاباذي لاتهامه بمالأة المسترشد، واستوزر مكانه شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان مقيماً ببغداد فاستدعاه وأهدى إليه الناس حتى الخليفة. وسار من بغداد في شعبان فوصل إلى السلطان بأصبهان وخلع عليه، ثم استعفى لعشرة أشهر وعاد إلى بغداد ولم يزل الوزير أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الري في السنة بعدها فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان.

أخبار دبيس مع السلطان سنجر

لما وصل دبيس إلى السلطان سنجر ومعه طغرل أغرياه بالمسترشد والسلطان محمود، وأنهما عاصيان عليه، وسهلا عليه أمر العراق فسار إلى الري واستدعى السلطان محموداً يختبر طاعته بذلك فبادر للقائه. ولما وصل أمر سنجر العساكر فتلقوه وأجلسه معه على سريره، وأقام عنده مدة وأوصاه بدبيس أن يعيده إلى بلده، ورجع سنجر إلى خراسان منتصف ذي الحجة ورجع محمود إلى همذان ودبيس معه. ثم سار إلى بغداد فقدمها في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين واسترضى المسترشد لدبيس فرضي عنه، على شريطة أن يوليه غير الحلة فبذل في الموصل مائة ألف دينار. وشعر بذلك زنكي فجاء بنفسه إلى السلطان وهجم على الستر متذمماً، وحمل الهدايا وبذل مائة ألف فأعاده السلطان إلى الموصل، وأعاد

بهروز شحنة على بغداد، وجعلت الحلة لنظره.

وسار السلطان إلى همذان في جمادى سنة ثلاث وعشرين، ثم مرض السلطان فلحق دبيس بالعراق، وحشد المسترشد لمدافعته، وهرب بهروز من الحلة فدخلها دبيس في رمضان من سنة ثلاث وعشرين. وبعث السلطان في أثره الأميرين اللذين ضمناه له، وهما كزل والأحمديلي، فلما سمع دبيس بهما أرسل إلى المسترشد يستعطفه، وتردد الرسل وهو يجمع الأموال والرجال حتى بلغ عسكره عشرة آلاف، ووصل الأحمديلي بغداد في شوال وسار في أثر دبيس. ثم جاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بالهدايا وبذل الأموال على الرضى فأبى، ووصل إلى بغداد، ودخل دبيس البرية، وقصد البصرة فأخذ ما كان فيها للخليفة والسلطان، وجاءت العساكر في اتباعه فدخل البرية. انتهى.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ثم منازعته عمومته واستقلال مسعود

ثم توفي السلطان محمود في شوال من سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه، واتفق وزيره أبو القاسم النشاباذي وأتابكة أقسنقر الأحمديلي على ولاية ابنه داود مكانه وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمذان ونواحيها ثم سكنت، فسار الوزير بأمواله إلى الري ليأمن في إيالة السلطان سنجر. ثم إن الملك داود سار في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين من همذان إلى ربكان، وبعث إلى المسترشد ببغداد في الخطبة، وأتاه الخبر بأن عمه مسعوداً سار من جرجان إلى تبريز وملكها فسار إليه وحصره في تبريز إلى سلخ المحرم من سنة ست وعشرين، ثم اصطلحا وأفرج داود عن تبريز، وخرج السلطان مسعود منها، واجتمعت عليه العساكر فانتقض وسار إلى همذان.

وأرسل إلى المسترشد في الخطبة فأجابهم جميعاً بأن الخطبة للسلطان سنجر صاحب خراسان، ويعين بعده من يراه. وبعث إلى سنجر بأن الخطبة إنما ينبغي أن تكون لك وحدك فوقع ذلك منه أحسن موقع، وكاتب السلطان منه أحسن موقع وكاتب السلطان مسعود عماد الدين زنكي صاحب الموصل فأجابه وسار إليه وانتهى إلى المعشوق. وبينما هم في ذلك إذ ثار قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان بالملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد، وكان أتابكة فدخل بغداد في عسكر كبير، ونزل دار السلطان واستخلفه المسترشد لنفسه، ووصل مسعود إلى عباسة فبرزوا للقائه، وجاءهم خبر عماد الدين زنكي فعبر قراجا إلى الجانب الغربي للقائه، وواقعه فهزمه، وسار منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين، فهيأ له الجسر للعبور، وعبر فأمن وسار لوجهه. وجاء السلطان مسعود من العباسة للقاء أخيه سلجوق ومن معه مدلاً بمكان زنكي وعسكره من ورائهم، وبلغه خبر انهزامهم فنكص على عقبه، وراسل المسترشد بأن السلطان سنجر وصل إلي وطلب الاتفاق من المسترشد وأخيه سلجوق شاه قراجا على قتال سنجر، على أن يكون العراق للمسترشد يتصرف فيه نوابه، والسلطنة لمسعود وسلجوق شاه ولي عهده فأجابوه إلى ذلك وجاء إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ست وعشرين، وتعاهدوا على ذلك.

واقعة مسعود مع سنجر وهزيمته وسلطنة طغرل

لما توفي السلطان محمود وولي ابنه داود مكانه، نكر ذلك عمه السلطان سنجر عليهم، وسار إلى بلاد الجبل ومعه طغرل ابن أخيه السلطان محمد، كان عنده منذ وصوله مع دبيس فوصل إلى الري، ثم إلى همذان، وسار السلطان مسعود وأخوه سلجوق وقراجا الساقي أتابك سلجوق للقائه. وكان المسترشد قد عاهدهم على الخروج وألزموه ذلك. ثم إن السلطان سنجر بعث إلى دبيس وأقطعه الحلة وأمره بالمسير إلى بغداد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بولاية شِحْنكيَّة بغداد، والسير إليها فبلغ المسترشد خبر مسيرهما فرجع لمدافعتهما.

وسار السلطان مسعود وأصحابه للقاء السلطان سنجر، ونزل أستراباذ في مائة ألف من العسكر فخاموا عن لقائه، ورجعوا أربع مراحل فأتبعهم سنجر، وتراءى الجمعان عند الدينور ثامن رجب، فاقتتلوا وعلى ميمنة مسعود قراجا الساقي وكُزل، وعلى ميسرته برتقش باردار، ويوسف حاروس فحمل قراجا الساقي في عشرة آلاف على السلطان سنجر، حتى تورط في مصافه فانعطفوا عليه من الجانبين، وأخذ أسيراً بعد جراحات. وانهزم مسعود وأصحابه، وقتل بعضهم، وفيهم يومئذ يوسف حاروس، وأسر آخرون فيهم قراجا فأحضر عند السلطان سنجر فوبخه، ثم أمر بقتله. وجاء السلطان مسعود إليه فأكرمه وعاتبه على مخالفته وأعاده أميراً إلى كنجة. وولى الملك طغرل ابن أخيه محمداً في السلطنة وجعل وزيره أبا القاسم النشاباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان ووصل نيسابور في عاشر رمضان من سنته.

وأما الخليفة فرجع إلى بغداد كما قلناه لمدافعة دبيس

وزنكي، وبلغه الخبر بهزيمة السلطان مسعود، فعبر إلى الجانب الغربي وسار إلى العباسية، ولقيهما بحصن البرامكة آخر رجب. وكان في ميمنته جمال الدولة إقبال، وفي ميسرته مطر الخادم فانهزم إقبال لحملة زنكي، وحمل الخليفة ومطر على دبيس فانهزم، وتبعه زنكي فاستمرت الهزيمة عليهم وافترقوا، ومضى دبيس إلى الحلة وكانت بيد إقبال، وجاءه المدد من بغداد فلقي دبيس وهزمه، ثم تخلص بعد الجهد، وقصد واسط وأطاعه عسكرها إلى أن خلت سنة سبع وعشرين، فجاءهم إقبال وبرتقش باردار، وزحفوا في العساكر براً وبحراً فانهزمت أهل واسط.

ولما استقر طغرل بالسلطنة وعاد عمه سنجر إلى خراسان لخلاف أحمد خان صاحب ما وراء النهر عليه، وكان داود ببلاد أذربيجان وكنجة فانتقض وجمع العساكر وسار إلى همذان وبرز إليه طغرل وفي ميمنته ابن برسق وفي ميسرته كزل وفي مقدمته أقسنقر. وسار إليه داود في ميمنته برتقش الزكوي والتقيا في رمضان سنة ست وعشرين فأمسك برتقش عن القتال، واستراب التركمان منه فنهبوا خيمته، واضطرب عسكر داود لذلك فهرب أتابكة أقسنقر الأحمديلي، واستمرت الهزيمة عليهم وأسر برتقش الزكوي، ومضى داود ثم قدم بغداد ومعه أتابكة أقسنقر الأحمديلي فأنزله الخليفة بدار السلطان وأكرمه.

ولما بلغ السلطان مسعوداً هزيمة داود ووصوله إلى بغداد قدم إليها وخرج داود لتلقيه، وترجل له عن فرسه، ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر سنة سبع وعشرين، وخطب له على منابر بغداد ولداود بعده، واتفقا مع المسترشد بالسير إلى أذربيجان وأن يمدهما، وسارا لذلك، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وحاصر جماعة من الأمراء بأردبيل ثم هزمهم وقتل منهم، وسار إلى همذان وبرز أخو طغرل للقائه فانهزم، واستولى مسعود على همذان وقتل أقسنقر، قتله الباطنية ويقال: بدسيسة السلطان محمود. ولما انهزم طغرل قصد الري وبلغ قم، ثم عاد إلى أصبهان ليمتنع بها وسار أخوه مسعود للحصار فارتاب طغرل بأهل أصبهان، وسار إلى بلاد فارس فاتبعه مسعود، واستأمن إليه بعض أمراء طغرل فارتاب بالباقين، وانهزم إلى الري في رمضان من سنته، واتبعه مسعود فلحقه بالري، وقاتله فانهزم طغرل وأسر جماعة من أمرائه. وعاد مسعود إلى همذان ظافراً، وعندما قصد طغرل الري من فارس قتل في طريقه وزيره أبا القاسم النشاباذي في شوال من سنته لموجدة وجدها عليه.

مسير المسترشد لحصار الموصل

لما انهزم عماد الدين زنكي أمام المسترشد كما قلنا لحق بالموصل، وشغل سلاطين السلجوقية في همذان بالخلف الواقع بينهم، ولجأ من أمراء السلجوقية إلى بغداد فراراً من الفتنة فقوي بهم المسترشد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بعض شيوخ الصوفية من حضرته فأغلظ له في الموعظة فأهانه زنكي وحبسه، فاعتزم المسترشد على حصار الموصل وبعث بذلك إلى السلطان مسعود، وسار من بغداد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين في ثلاثين ألف مقاتل. ولما قارب الموصل فارقها زنكي ونزل بها نائبه نصير الدين حقر، ولحق بسنجر وأقام يقطع المدد والميرة عن عسكر المسترشد حتى ضاقت بهم الأمور، وحاصرها المسترشد ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ورحل عائداً إلى بغداد، فوصل يوم عرفة من سنته. يقال: إن مطراً الخادم جاء من عسكر السلطان مسعود لأنه قاصد العراق فارتحلا لذلك.

مصاف طغرل ومسعود وانهزام مسعود

ولما عاد مسعود إلى همذان بعد انهزام أخيه طغرل، بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحصره ببعض قلاعها، فخالفه طغرل إلى بلاد الجبل، واجتمعت عليه العساكر ففتح كثيراً من البلاد، وقصد مسعوداً وانتهى إلى قزوين فسار مسعود للقائه، وهرب من عسكره جماعة كان طغرل قد داخلهم واستمالهم، فولى مسعود منهزماً آخر رمضان سنة ثمان وعشرين، واستأذن المسترشد في دخول بغداد وكان نائبه بأصبهان البقش السلامي، ومعه أخوه سلجوق شاه، فلما بلغهم خبر الهزيمة لحقوا ببغداد، ونزل سلجوق بدار السلطان، وبعث إليه الخليفة بعشرة آلاف دينار. ثم قدم مسعود بعدهم ولقي في طريقه شدة وأصحابه بين راجلين وركاب فبعث إليهم المسترشد بالمقام والخيام والأموال والثياب والآلات، وقرب إليهم المنازل، ونزل مسعود بدار السلطنة ببغداد منتصف شوال سنة ثمان، وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء السلطان مسعود

ولما وصل مسعود إلى بغداد أكرمه المسترشد، ووعده بالمسير معه لقتال أخيه طغرل، وأزاح علل عسكره واستحثه لذلك، وكان جماعة من أمراء السلجوقية قد ضجروا من الفتنة، ولحقوا بالمسترشد فساروا معه ودس إليهم طغرل بالمواعيد فارتاب

المسترشد ببعضهم، وأطلع على كتاب طغرل إليه، وقبض عليه ونهب ماله، فلحق الباقون بالسلطان، وبعث فيهم المسترشد فمنعهم السلطان فحدثت بينهم الوحشة لذلك، وبعث السلطان إلى الخليفة يلزمه المسير معه، وبينا هما على ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة طغرل، في المحرم من سنة تسع وعشرين، فسار السلطان مسعود إلى همذان وأقبلت إليه العساكر فاستولى عليها، وأطاعه أهل البلاد، واستوزر شرف الدين أنوشروان خالداً، وكان قد سار معه بأهله.

فتنة السلطان مسعود مع المسترشد

لما استولى السلطان مسعود على همذان استوحش منه جماعة من أعيان الأمراء، منهم برتقش وكزل وسنقر والي همذان، وعبد الرحمن بن طغرلبك، ففارقوه ودبيس بن صدقة معهم، واستأمنوا إلى الخليفة ولحقوا بخوزستان وتعاهدوا مع برسق على طاعة المسترشد، وحذر المسترشد من دبيس وبعث شديد الدولة بن الأنباري الأمان للأمراء دون دبيس، ورجع دبيس إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد فأكرمهم المسترشد، واشتدت وحشة السلطان مسعود لذلك، ومنافرته للمسترشد فاعتزم المسترشد على قتاله، وبرز من بغداد في عاشر رجب وأقام بالشفيع وعصي عليه صاحب البصرة فلم يجبه، وأمراء السلجوقية الذين بقوا معه يحرضونه على المسير فبعث مقدمته إلى حلوان.

ثم سار من شعبان واستخلف على العراق إقبالاً خادمه في ثلاث آلاف فارس ولحقه برسق بن برسق فبلغ عسكره سبعة آلاف فارس، وكان أصحاب الأعراب يكاتبون المسترشد بالطاعة فاستصلحهم مسعود، ولحقوا به، وبلغ عسكره خمسة عشر ألفاً، وتسلل إليه كثير من عسكر المسترشد حتى بقي في خمسة آلاف، وبعث إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد الدينور ليلقاه بها بعسكره فجفل للقاء السلطان مسعود، وسار وفي ميمنتا برتقش باردار وكور الدولة سنقر وكزل وبرسق بن برسق، وفي ميسرته جاولي برسقي وسراب سلار وأغلبك الذي كان قبض عليه من أمراء السلجوقية بموافقتهم السلطان وكان ذلك عاشر رمضان سنة تسع وعشرين.

وانحازت ميسرة المسترشد إليه وانطبقت عساكره عليه، وانهزم أصحاب المسترشد وأخذ هو أسيراً بموكبه، وفيهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وقاضي القضاة والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم. وأنزل المسترشد في خيمة، وحبس الباقون بقلعة سرخاب، وعاد السلطان إلى همذان وبعث الأمير بك آي المحمدي إلى بغداد شحنة، فوصل سلخ رمضان، ومعه عميد فقبضوا أملاك الخليفة وأخذوا غلاته، وضج الناس ببغداد وبكوا على خليفتهم، وأعول النساء ثم عمد العامة إلى المنبر فكسروه ومنعوا من الخطبة وتعاقبوا في الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم، وقاتلوا أصحاب الشحنة فأثخن فيهم بالقتل وهرب الوالي والحاجب وعظمت الفتنة، ثم بلغ السلطان في شوال أن داود ابن أخيه محمود عصى عليه بالمراغة، فسار لقتاله والمسترشد معه وتردد الرسل بينهما في الصلح.

مقتل المسترشد وخلافة الراشد

قد ذكرنا مسير المسترشد مع السلطان مسعود إلى مراغة وهو في خيمة موكل به. وترددت الرسل بينهما وتقرر الصلح على أن يحمل مالاً للسلطان ولا يجمع العساكر لحرب ولا فتنة، ولا يخرج من داره فانعقد على ذلك بينهما، وركب المسترشد وحملت الغاشية بين يديه وهو على العود إلى بغداد فوصل الخبر بموافاة رسول من السلطان سنجر فتأخر مسيره لذلك، وركب السلطان مسعود للقاء الرسول، وكانت خيمة المسترشد منفردة العسكر فدخل عليه عشرون رجلاً أو يزيدون من الباطنية فقتلوه وجدعوه وصلبوه، وذلك سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين، لسبع عشرة ونصف من خلافته.

وقتل الرجال الذين قتلوه وبويع ابنه أبو جعفر بعهد أبيه إليه بذلك فجددت له البيعة ببغداد في ملأ من الناس، وكان إقبال خادم المسترشد في بغداد، فلما وقعت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربي وأصعد إلى تكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز. ثم بعد مقتل المسترشد بأيام قتل دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خويّ، أمر السلطان مسعود غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه فضربه، وأسقط رأسه، واجتمع إلى أبيه صدقة بالحلة عساكره ومماليكه واستأمن إليه قطلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك آي شحنة بغداد فأخذ الحلة من يد صدقة فبعث بعض عسكره إلى المدائن، وخام عن لقائه حتى قدم السلطان إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين فقصده وصالحه ولزم بابه.

الفتنة بين الراشد والسلطان مسعود ولحاقه بالموصل وخلعه

وبعد بيعة الراشد واستقراره في الخلافة وصل برتقش الزكوي من عند السلطان محمود يطلب من الراشد ما استقر على أبيه من المال أيام كونه عندهم، وهو أربعمائة ألف دينار فأجابه بأنه لم يخلف شيئاً وأن ماله كان معه فنهب. ثم نمي إلى الراشد أن برتقش تهجم على دار الخلافة وفتش المال فجمع الراشد العساكر وأصلح السور، ثم ركب برتقش ومعه الأمراء البلخية وجاؤوا لهجم الدار، وقاتلهم عسكر الخليفة والعامة فساروا إلى طريق خراسان وانحدر بك آي إلى خراسان، وسار برتقش إلى البند هجين، ونهبت العامة دار السلطان والراشد واشتدت الوحشة بين السلطان والراشد، وانحرف الناس عن طاعة السلطان إلى الخليفة، وسار داود بن السلطان في عسكر أذربيجان إلى بغداد، ونزل بدار السلطان في صفر من سنة ثلاثين.

ووصل عماد الدين زنكي من الموصل، ووصل برتقش باردار صاحب قزوين، والبقش الكبير صاحب أصبهان، وصدقة بن دبيس صاحب الحلة، وابن برسق وابن الأحمديلي وجفل الملك داود برتقش باردار شحنة ببغداد، وقبض الراشد على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهير أستادار، وعلى جمال الدين إقبال. وكان قدم إليه من تكريت فتنكر له أصحابه وخانوه، وشفع زنكي في إقبال الخادم فأطلقه وصار عنده، وخرج الوزير جلال الدين أبو الرضا بن صدقة لتلقي زنكي فأقام عنده. ثم شفع فيه وأعاده إلى وزارته ولحق قاضي القضاة الزينبي بزنكي أيضاً، وسار معه إلى الموصل، ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض بها بك آي ونهب ماله فانحدر زنكي إليه وصالحه ورجع إلى بغداد.

ثم سار السلطان داود نحو طريق خراسان ومعه زنكي لقتال السلطان مسعود، وبرز الراشد أول رمضان وسار إلى طريق خراسان ورجع بعد ثلاث وأرسل إلى داود والأمراء بالعود وقتال مسعود من وراء السور، وراسلهم مسعود بالطاعة والموافقة فأبوا، وتبعهم الخليفة في ذلك. وجاء مسعود فنزل على بغداد وحصرهم فيها، وثار العيارون وكثر الهرج وأقاموا كذلك نيفاً وخمسين، وامتنعوا وأقلع السلطان عنهم. ثم وصله طرنطاي صاحب واسط بالسفن فعاد وعبر إلى الجانب الغربي فاضطرب الراشد وأصحابه، وعاد داود إلى بلاده، وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين، وأمن الناس. واستدعى القضاة والفقهاء والشهود وعرض عليهم يمين الراشد بخطه: إني متى جندت جنداً، وخرجت ولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فافتوا بخلعه. ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب والولايات، واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان لخلعه، وقطعت خطبته ببغداد وسائر البلاد في ذي القعدة من سنة ثلاثين لسنة من خلافته.

خلافة المقتفي

ولما قطعت خطبة الراشد استشار السلطان مسعود أعيان بغداد فيمن يوليه، فأشاروا بمحمد بن المستظهر فقدم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، وذكروا ما ارتكبه من أخذ الأموال ومن الأفعال القادحة في الإمامة، وختموا آخر المحضر بأن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. وحضر القاضي أبو طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك وحكم بخلعه، ونفذه القضاة الآخرون وكان قاضي القضاة غائباً عند زنكي بالموصل، وحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن العسقلاني، وأحضر أبو عبد الله بن المستظهر فدخل إليه السلطان والوزير واستخلفاه. ثم أدخلوا الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء فبايعوه ثامن عشر ذي الحجة ولقبوه المقتفي. واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي وبعث كتاب الحكم بخلع الراشد إلى الآفاق، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين فأعاده إلى منصبه، وكمال الدين حمزة بن طلحة صاحب المخزن كذلك.

فتنة السلطان مسعود مع داود واجتماع داود للراشد للحرب ومقتل الراشد

ولما بويع للمقتفي والسلطان مسعود ببغداد، بعث عساكره يطلب الملك داود فلقيه عند مراغة فانهزم داود وملك قراسنقر أذربيجان. ثم قصد داود خوزستان، واجتمع عليه من عساكر التركمان وغيرهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وحاصر تستر وكان السلطان سلجوق شاه بواسط بعث إلى أخيه مسعود يستنجده فأنجده بالعساكر وسار إلى تستر فقاتله داود وهزمه. وكان السلطان مسعود مقيماً ببغداد مخافة أن يقصد الراشد العراق من الموصل، وكان قد بعث لزنكي فخطب للمقتفي في رجب سنة إحدى وثلاثين، وسار الراشد من الموصل، فلما بلغ خبر مسيره إلى

السلطان مسعود أذن للعسكر في العود إلى بلادهم، وانصرف صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد أن زوجه ابنته.

ثم قدم على السلطان مسعود جماعة الأمراء الذين كانوا مع الملك داود مثل البقش السلامي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر خمارتكين شحنة همذان، فرضي عنهم وولى البقش شحنة ببغداد فظلم الناس وعسفهم. ولما فارق الراشد زنكي من الموصل سار إلى أذربيجان وانتهى إلى مراغة، وكان بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال، والملك وداود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان مسعود فاجتمعوا إلى منكبرس صاحب فارس وتعاهدوا على بيعة داود، وأن يردوا الراشد إلى الخلافة فأجابهم الراشد إلى ذلك، وبلغ الخبر إلى السلطان فسار من بغداد في شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وبلغهم قبل وصوله وصول الراشد إليهم فقاتلهم بخوزستان فانهزموا وأسر منكبرس صاحب فارس فقتله السلطان مسعود صبراً، وافترقت عساكره للنهب وفي طلب المنهزمين، ورآه بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك في فل من الجنود فحملوا عليه، وقتل بوزابة جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس وابن قراسنقر الأتابك صاحب أذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم كان قبض عليهم لأول الهزيمة وأمسكهم عنده، فلما بلغه قتل منكبرس قتلهم جميعاً وانصرف العسكران منهزمين، وقصد مسعود أذربيجان وداود همذان. وجاء إليه الراشد بعد الوقعة وأشار بوزابة وكان كبير القوم بمسيرهم، فسار بهم إلى فارس فملكها وأضافها إلى خوزستان.

وسار سلجوق شاه ابن السلطان مسعود ليملكها فدافعه عنها البقش الشحنة ومطر الخادم أمير الحاج، وثار العيارون أيام تلك الحرب، وعظم الهرج ببغداد، ورحل الناس عنها إلى البلاد. فلما انصرف سلجوق شاه واستقر البقش الشحنة فتك فيهم بالقتل والصلب. ولما قتل صدقة بن دبيس ولى السلطان على الحلة محمداً أخاه وجعل معه مهلهلاً أخا عنتر بن أبي العسكر يدبره. ولما وصل الراشد والملك داود إلى خوزستان مع الأمراء على ما ذكرنا، وملكوا فارس، ساروا إلى العراق ومعهم خوارزم شاه. فلما قاربوا الجزيرة خرج السلطان مسعود لمدافعتهم فافترقوا، ومضى الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده فسار إلى أصبهان فوثب عليه في طريقه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه في القيلولة خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بشهرستان ظاهر أصبهان.

وعظم أمر هذه الفتنة واختلفت الأحوال والمواسم وانقطعت كسوة الكعبة في هذه السنة من دار الخلافة من قبل السلاطين، حتى قام بكسوتها تاجر فارسي من المترددين إلى الهند، أنفق فيها ثمانية عشر ألف دينار مصرية، وكثر الهرج من العيارين حتى ركب زعماؤهم الخيول وجمعوا الجموع، وتستر الوالي ببغداد بلباس ابن أخيه سراويل الفتوة عن زعيمهم ليدخل في جملتهم، وحتى همَّ زعيمهم بنقش اسمه في سكة بانبار فحاول الشحنة والوزير على قتله فقتل، ونسب أمر العيارين إلى البقش الشحنة لما أحدث من الظلم والعسف فقبض عليه السلطان مسعود وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز، ثم أمر بقتله فقتل. ثم قدم السلطان مسعود في ربيع سنة ثلاث وثلاثين في الشتاء، وكان يشتي بالعراق ويصيف بالجبال. فلما قدم أزال المكوس وكتب بذلك في الألواح فنصبت في الأسواق وعلى أبواب الجامع ورفع عن العامة نزول الجند عليهم فكثر الدعاء له والثناء عليه.

وزارة الخليفة

وفي سنة أربع وثلاثين وقع بين المقتفي ووزيره علي بن طراد الزينبي وحشة بما كان يعترض على المقتفي في أمره، فخاف واستجار بالسلطان مسعود فأجاره، وشفع إلى المقتفي في إعادته فامتنع وأسقط اسمه من الكتب، واستناب المقتفي ابن عمه قاضي القضاة والزينبي، ثم عزله واستناب شديد الدولة الأنباري. ثم وصل السلطان إلى بغداد سنة ست وثلاثين فوجد الوزير شرف الدين الزينبي في داره فبعث وزيره إلى المقتفي شفيعاً في إطلاق سبيله إلى بيته فأذن له. انتهى.

الشحنة ببغداد

وفي سنة ست وثلاثين عزل مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، وولى كزل أميراً آخر من مماليك السلطان محمود، فكان على البصرة فأضيف إليه شحنكية بغداد، ولما وصل السلطان مسعود إلى بغداد ورأى تبسط العيارين وفسادهم أعاد بهروز شحنة، ولم ينتفع الناس بذلك لأن العيارين كانوا يتمسكون بالجاه من أهل الدولة فلا يقدر بهروز على منعهم، وكان ابن الوزير وابن قاروت صهر السلطان يقاسمانهم فيما يأخوذن من النهب. واتفق سنة ثمان وثمانين أن السلطان أرسل نائب الشحنكية ووبخه على فساد العيارين فأخبره بشأن صهره وابن وزيره فأقسم ليصلبنه إن لم يصلبهما فأخذ خاتمه على ذلك، وقبض على صهره ابن قاروت فصلبه وهرب ابن الوزير، وقبض على أكثر العيارين وافترقوا وكفى الناس شرهم.

انتقاض الأعياض واستبداد الأمراء على الأمير مسعود وقتله إياهم

وفي سنة أربعين سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، ولقي بوزابة الأمير عباس صاحب الري وتآمرا في الانتقاض على السلطان مسعود، وملكاً كثيراً من بلاده فسار السلطان مسعود عن بغداد، ونزل بها الأمير مهلهل والخادم مطر وجماعة من غلمان بهروز. وسار معه الأمير عبد الرحمن طغرلبك، وكان حاجبه ومتحكماً في دولته، وكان هواه مع ذينك الملكين، فسار السلطان وعبد الرحمن حتى تقارب العسكران، فلقي سليمان شاه أخاه مسعوداً فحنق عليه، وجرى عبد الرحمن في الصلح بين الفريقين، وأضيفت وظيفة أذربيجان وأرمينية إلى ما بيده.

وسار أبو الفتح ابن هزارشب وزير السلطان مسعود ومعه وزير بوزابة فاستبدوا على السلطان وحجروه عن التصرف فيما يريده، وكان بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك خالصة للسلطان بما كان من تربيته فداخلوه واستولوا به على هوى السلطان بكل معنى. وكان صاحب خلخال وبعض أذربيجان، فلما عظم تحكمه أسر السلطان إلى خاص بك بقتل عبد الرحمن، فدس ذلك إلى جماعة من الأمراء وقتلوه في موكبه، ضربه بعضهم بمقرعة حديد فسقط إلى الأرض ميتاً وبلغ إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الري في عسكر أكثر من عسكره فامتعض لذلك فتلطف له السلطان، واستدعاه إلى داره، فلما انفرد عن غلمانه أمر به فقتل. وكان عباس من غلمان السلطان محمود وولي الري، وجاهد الباطنية وحسنت آثاره فيهم. وكان مقتله في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين. ثم حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت، وبلغ مقتل عباس إلى بوزابة فجمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصبهان فحاصرها، ثم سار إلى السلطان مسعود والتقيا بمرج قراتكين فقتل بوزابة قيل: بسهم أصابه وقيل: أخذ أسيراً وقتل صبراً، وانهزمت عساكره إلى همذان وخراسان.

انتقاض الأمراء ثانية على السلطان

ولما قتل السلطان من قتل من أمرائه استخلص الأمير خاص بك وأنفذ كلمته في الدولة، ورفع منزلته فحسده كثير من الأمراء وخافوا غائلته وساروا نحو العراق -وهم أيلدكر المسعودي صاحب كنجة وأرانية، وقيصر والبقش كون صاحب أعمال الجبل- وقتل الحاجب وطرنطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغابرك. ولما بلغوا حلوان خاف الناس بأعمال العراق وعني المقتفي بإصلاح السور، وبعث إليهم بالنهي عن القدوم فلم ينتهوا ووصلوا في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود جلال الشحنة ببغداد إلى تكريت، ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الحلة، ونزل بالجانب الغربي وجند المقتفي أجناداً وقتلوهم مع العامة فكانوا يستطردون للعامة والجند حتى يبعدوا، ثم يكرون عليهم فيثخنوا فيهم. ثم كثر عيثهم ونهبهم. ثم اجتمعوا مقابل التاج وقبلوا الأرض واعتذروا، وترددت الرسل ورحلوا إلى النهروان.

وعاد مسعود جلال الشحنة من تكريت إلى بغداد، وافترق هؤلاء الأمراء وفارقوا العراق، والسلطان مع ذلك مقيم ببلد الجبل. وأرسل عمه سنجر إلى الري سنة أربع وأربعين فبادر إليه مسعود وترضاه فأعتبه وقبل عذره. ثم جاءت سنة أربع وأربعين جماعة أخرى من الأمراء وهم البقش كون والطرنطاي وابن دبيس وملك شاه ابن السلطان محمود فراسلوا المقتفي في الخطبة لملك شاه فلم يجبهم، وجمع العساكر وحصن بغداد وكاتب السلطان مسعوداً بالوصول إلى بغداد فشغله عمه سنجر إلى الري، ولما علم البقش مراسلة المقتفي إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على علي بن دبيس وهرب الطرنطاي إلى النعمانية، ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوال، ورحل البقش كون من النهروان وأطلق ابن دبيس.

وزارة المقتفي

وفي سنة أربع وأربعين استوزر المقتفي يحيى بن هبيرة وكان صاحب ديوان الزمام وظهرت منه كفاية في حصار بغداد فاستوزره المقتفي.

وفاة السلطان مسعود وملك ملك شاه ابن أخيه محمود

ثم توفي السلطان مسعود أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة لإحدى وعشرين سنة من بيعته، وعشرين من عوده بعد

منازعة إخوته. وكان خاص بك بن سلمكري متغلباً على دولته، فبايع لملك شاه ابن أخيه السلطان محمود، وخطب له بالسلطنة في همذان، وكان هذا السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية عن بغداد، وبعث السلطان ملك شاه الأمير شكاركرد في عسكر إلى الحلة فدخلها، وسار إليه مسعود جلال الشحنة، وأظهر له الاتفاق. ثم قبض عليه وغرقه واستبد بالحلة وأظهر المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدولة والدين بن هبيرة فعبر الشحنة إليهم الفرات، وقاتلهم فانهزموا وثار أهل الحلة بدعوة المقتفي ومنعوا الشحنة من الدخول فعاد إلى تكريت.

ودخل ابن هبيرة الحلة وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها، وجاءت عساكر السلطان إلى واسط فغلبوا عليها عسكر المقتفي فتجهز بنفسه، وانتزعها من أيديهم، وسار منها إلى الحلة. ثم عاد إلى بغداد في عشر ذي القعدة. ثم إن خاص بك المتغلب على السلطان ملك شاه استوحش وتنكر وأراد الاستبداد فبعث عن الملك محمد ابن السلطان محمد بخوزستان سنة ثمان وأربعين فبايعه أول صفر وأهدى إليه وهو مضمر الفتك، فسبقه السلطان محمد لذلك وقتله ثاني يوم البيعة إيدغدي التركماني المعروف بشملة من أصحاب خاص بك ونهاه عن دخوله إلى السلطان محمد، فلم يقبل. فلما قتل خاص بك نهب شملة عسكره ولحق بخوزستان وكان خاص بك صبياً من التركمان اتصل بالسلطان مسعود واستخلصه وقدمه على سائر الأمراء.

حروب المقتفي مع أهل الخلاف وحصار البلاد

ثم بعث المقتفي عساكره لحصار تكريت مع ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك من خواصه وغيرهما، ووقع بينه وبين ابن الوزير منافرة خشي لها ترشك على نفسه فصالح الشحنة صاحب تكريت، وقبض على ابن الوزير والأمراء، وحبسهم صاحب تكريت وغرق كثير منهم، وسار ترشك والشحنة إلى طريق خراسان فعاثوا فيها وخرج المقتفي في اتباعهم فهربا بين يديه، ووصل تكريت وحاصرها أياماً. ثم رجع إلى بغداد وبعث سنة تسع وأربعين بتكريت في ابن الوزير وغيره من المأسورين، فقبض على الرسول فبعث إليهم عسكراً فامتنعوا عليه، فسار المقتفي بنفسه في صفر من سنته وملك تكريت، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، ورجع في ربيع. ثم بعث الوزير عون الدين في العساكر لحصارها واستكثر من الآلات وضيق عليها.

ثم بلغه الخبر بأن شحنة مسعود وترشك وصلا في العساكر ومعهم الأمير البقش كون وأنهما استحثا الملك محمداً لقصد العراق، فلم يتهيأ له فبعث هذا العسكر معهم، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فسار المقتفي للقائهم، وبعث الشحنة مسعود عن أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوساً بتكريت فأحضره عنه ليقاتل به المقتفي، والتقوا عند عقر بابل فتنازلوا ثمانية عشر يوماً، ثم تناجزوا آخر رجب فانهزمت ميمنة المقتفي إلى بغداد، ونهبت خزائنه وثبت هو واشتد القتال وانهزمت عساكر العجم وظفر المقتفي بهم، وغنم أموال التركمان وسبى نساءهم وأولادهم. ولحق البقش كون ببلد المحلو وقلعة المهاكين وأرسلان بن طغرل، ورجع المقتفي إلى بغداد أول شعبان.

وقصد مسعود الشحنة وترشك بلد واسط للعيث فيها، فبعث المقتفي الوزير ابن هبيرة في العساكر فهزمهم. ثم عاد فلقيه المقتفي سلطان العراق وأرسلان بن طغرل، وبعث إليه السلطان محمد في إحضاره عنده. ومات البقش في رمضان من سنته وبقي أرسلان مع ابن البقش، وحسن الخازنداد فحملاه إلى الجبل ثم سارا به إلى الركن زوج أمه، وهو أبو البهلوان وأرسلان وطغرل الذي قتله خوارزم شاه، وكان آخر السلجوقية ثلاثتهم أخوة لأم. ثم سار المقتفي سنة خمسين إلى دقوقا فحاصرها أياماً، ثم رجع عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل تجهز لمدافعته عنها فرحل.

استيلاء شملة على خوزستان

قد ذكرنا من قبل شأن شملة وأنه من التركمان واسمه إيدغدي وأنه كان من أصحاب خاص بك التركماني، وهرب يوم قتل السلطان محمد صاحبه خاص بك بعد أن حذره منه فلم يقبل، ونجا من الواقعة فجمع جموعاً وسار يريد خوزستان وصاحبها يومئذ ملك شاه ابن السلطان محمود بن محمد. وبعث المقتفي عساكره لذلك فلقيهم شملة في رجب وهزمهم وأسر وجوههم. ثم أطلقهم وبعث إلى الخليفة يعتذر فقبل عذره، وسار إلى خوزستان فملكها من يد ملك شاه ابن السلطان محمود.

إشارة إلى بعض أخبار السلطان سنجر بخوزستان ومبدأ دولة بني خوارزم شاه

كان السلطان سنجر من ولد السلطان ملك شاه لصلبه، ولما استولى بركيارق بن ملك شاه على خوزستان سنة تسعين

وأربعمائة من يد عمه أرسلان أرغون، كما نذكر في أخبارهم عند تفردها مستوفى، ولى عليها أخاه سنجر، وولى على خوارزم محمد بن أنوش تكين من قبل الأمير داود حبشي بن اليوساق. ثم لما ظهر السلطان محمد ونازع بركيارق وتعاقبا في الملك، وكان سنجر شقيقاً لمحمد فولاه على خراسان، ولم يزل عليها. ولما اختلف أولاد محمد من بعده كان عقيد أمرهم وصاحب شوراهم إذ خلف له ببغداد مقدماً اسمه على اسم سلطان العراق منهم سنة..... ثم خرجت أمم الخطا من الترك من مفازة الصين وملكوا ما وراء النهر من يد الجابية ملوك تركستان سنة ست وثلاثين كما نذكر في أخبارهم.

وسار سنجر لمدافعتهم فهزموه فوهن لذلك فاستعد عليه خوارزم شاه بعض الشيء. وكان الخلفاء لما ملكوا بلاد تركستان أزعجوا الغز عنها إلى خراسان وهم بقية السلجوقية هناك. وأجاز السلجوقية لأول دولتهم إلى خراسان فملكوها، وبقي هؤلاء الغز بنواحي تركستان فأجازوا أمام الخطا إلى خراسان، وأقاموا السلطان بها حتى عتوا ونموا. ثم كثر عيثهم وفسادهم وسار إليهم السلطان سنجر سنة ثمان وأربعين فهزموه واستولوا عليه وأسروه، وملكوا بلاد خراسان وافترق أمراؤه على النواحي. ثم ملكوه وهو أسير في أيديهم ذريعة لنهب البلاد واستولوا به على كثير منها، وهرب من أيديهم سنة إحدى وخمسين ولم يقدر على مدافعتهم. ثم توفي سنة اثنتين وخمسين وافترقت بلاد خراسان على أمرائه كما يذكر في أخبارهم. ثم تغلب بنو خوارزم شاه عليها كلها وعلى أصبهان والري من ورائها وعلى أعمال غزنة من يد بني سبكتكين وشاركهم فيها النور بعض الشيعة وقام بنو خوارزم شاه مقام السلجوقية إلى أن انقرضت دولتهم على يد جنكزخان ملك التتر من أمم الترك في أوائل المائة السابعة كما يذكر ذلك كله في أخبار كل منهم عندما نفردها بالذكر إن شاء الله تعالى.

الخطبة ببغداد لسليمان شاه ابن السلطان محمد وحروبه مع السلطان محمد بن محمود

كان سليمان بن محمد عند عمه سنجر بخراسان منذ أعوام وقد جعله ولي عهده، وخطب له بخراسان فلما غلب الغز على سنجر وأسروه تقدم سليمان شاه على العساكر، ثم غلبتهم الغز فلحق بخورازم شاه فصاهره أولاً بابنة أخيه، ثم تنكر فسار إلى أصبهان فمنعه شحنتها من الدخول فسار إلى قاشان، فبعث إليه السلطان محمد شاه بن محمود فقصد اللحف، ونزل على السيد محسن، وبعث إلى المقتفي ليستأذنه في القدوم، وبعث زوجته وولده رهناً على الطاعة والمناصحة فأذن له، وقدم في خف من العساكر ثلاثمائة أو نحوها، وأخرج الوزير عون الدين بن هبيرة ولده لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقباء، ودخل وعلى رأسه الشمسية، وخلع عليه.

ولما كان المحرم من سنة إحدى وخمسين حضر عند المقتفي بمحضر قاضي القضاة وأعيان العباسيين واستحلفه على الطاعة، وأن لا يتعرض للعراق. ثم خطب له ببغداد وبلقب أبيه السلطان محمد، وبعث عسكراً نحو ثلاثة آلاف واستقدم داود صاحب الحلة فجعل له أمر الحجابة، وسار نحو الجبل في ربيع. وسار المقتفي إلى حلوان وسار إلى ملك شاه بن محمود أخي سليمان صاحب خوزستان فاستحلفه لسليمان شاه وجعله ولي عهده، وأمدهما بالمال والأسلحة، وساروا إلى همذان وأصبهان، وجاءهم المذكر صاحب بلاد أران فكثر جمعهم وبلغ خبرهم السلطان محمد بن محمود فبعث إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ونائبه زين الدين ليستنجدهما فأجاباه، وسار للقاء سليمان شاه وأصحابه فالتقوا في جمادى، وانهزم سليمان شاه وافترقت عساكره. وسار المذكر إلى بلاده، وسار سليمان شاه إلى بغداد وسلك على شهرزور فاعترضه زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين بالموصل، وكان مقطع شهرزور الأمير بران من جهة زين الدين فاعترضاه وأخذاه أسيراً، وحمل زين الدين إلى الموصل فحبسه بقلعتها، وبعث إلى السلطان محمد بالخبر.

حصار السلطان محمد بغداد

كان السلطان محمد قد بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد فامتنع من إجابته، ثم بايع لعمه سليمان وخطب له وكان ما قدمناه من أمره معه. ثم سار السلطان محمد من همذان في العساكر نحو العراق، فقدم في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين، وجاءته عساكر الموصل مدداً من قبل قطب الدين ونائبه زين الدين، واضطربت الناس ببغداد، وأرسل المقتفي عن فضلو بواش صاحب واسط فجاء في عسكره. وملك مهلهل الحلة فاهتم ابن هبيرة بأمر الحصار وجمع السفن تحت الناحي، وقطع الجسر، وأجفل الناس من الجانب الغربي، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، فرّق المقتفي السلاح في الجند والعامة، ومكثوا أياماً يقتتلون، ومد السلطان جسراً على دجلة فعبر على الجانب الشرقي حتى كان القتال في الجانبين.

ونفذت الأقوات في العسكر واشتد القتال والحصار على أهل بغداد لانقطاع الميرة والظهر من عسكر الموصل لأن نور الدين محمود بن زنكي وهو أخو قطب الدين الأكبر بعث إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة. ثم بلغ السلطان محمداً أن أخاه ملك شاه والمذكر صاحب بلاد أران، وأرسلان ابن الملك طغرل بن محمد ساروا إلى همذان وملكوها فارتحل عن بغداد في آخر ربيع سنة اثنتين وخمسين. وسار إلى همذان وعاد زين الدين كوجك إلى الموصل.

ولما قصد السلطان محمد همذان صار ملك شاه والمذكر ومن معهما إلى الري فقاتلهم شحنتها أبنايخ وهزموه، وأمده السلطان محمد بالأمير سقمان بن قيماز فسار لذلك ولقيهما منصرفين عن الري قاصدين بغداد فقاتلهما، وانهزم أمامهما فسار السلطان في أثرهما إلى خوزستان، فلما انتهى إلى حلوان جاءه الخبر بأن المذكر بالدينور وبعث إليه أبنايخ بأنه استولى على همذان وأعاد خطبته فيها، فافترقت جموع ملك شاه والمذكر وفارقهم شملة صاحب خوزستان، فعادوا هاربين إلى بلادهم وعاد السلطان محمد إلى همذان.

حروب المقتفي مع أهل النواحي

كان سنقر الهمذاني صاحب اللحف، وكان في هذه الفتنة قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان، فسار المقتفي لحربه في جمادى سنة ثلاث وخمسين وضمن له الأمير خطلوبرس إصلاحه، فسار إليه خاله على أن يشرك المقتفي معه في بلد اللحف الأمير أزغش المسترشدي فأقطعهما لهما جميعاً ورجع ثم عاد سنقر على أزغش وأخرجه، وانفرد ببلده وخطب للسلطان محمد فسار إليه خطلوبرس من بغداد في العساكر وهزمه، وملك اللحف وسار سنقر إلى قلعة الماهكي للأمير قايماز العميدي ونزلها في أربعمائة ألف فارس.

ثم سار إليه سنقر سنة أربع وخمسين فهزمه ورجع إلى بغداد فخرج المقتفي إلى النعمانية وبعث العساكر مع ترشك فهرب سنقر في الجبال ونهب ترشك مخلفه وحاصر قلعة الماهكي، ثم عاد إلى البندنجين وبعث بالخبر إلى بغداد. ولحق سنقر بملك شاه فأمده بخمسمائة فارس وبعث ترشك إلى المقتفي في المدد فأمده، وبعث إليه سنقر في الإصلاح فحبس رسوله، وسار إليه فهزمه واستباح عسكره ونجا سنقر جريحاً إلى بلاد العجم فأقام بها. ثم جاء بها سنة أربع وخمسين إلى بغداد، وألقى نفسه تحت التاج فرضي عنه المقتفي، وأذن له في دخول دار الخلافة. ثم زحف إلى قايماز السلطان في ناحية بادرايا سنة ثلاث وخمسين فهزمه وقتله وبعث المقتفي عساكره لقتال شملة فلحق بملك شاه.

وفاة السلطان محمد بن محمود وملك عمه سليمان شاه ثم أرسلان بن طغرل

ثم إن السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه لما رجع عن حصار بغداد أصابه مرض السل وطال به، وتوفي بهمذان في ذي الحجة سنة أربع وخمسين لسبع سنين ونصف من ملكه، وكان له ولد فيئس من طاعة الناس له، ودفعه لأقسنقر الأحمديلي وأوصاه عليه فرحل به إلى مراغة. ولما مات السلطان محمد اختلف الأمر فيمن يولونه، ومال الأكثر إلى سليمان شاه عمه، وطائفة إلى ملك شاه أخيه، وطائفة إلى أرسلان بن السلطان طغرل الذي مع الدكز ببلاد أران. وبادر ملكشاه أخوه فسار من خوزستان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس، ورحل إلى أصبهان فأطاعه ابن الخجندي، وأنفق عليه الأموال وبعث إلى عساكر همذان في الطاعة فلم يجيبوه، وأرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في سليمان شاه المحبوس عنده ليولوه عليهم، وذلك أول سنة خمس وخمسين فأطلقه على أن يكون أتابكاً له وجمال الدين وزيره وزيراً وجهزه بجهاز السلطنة وبعث معه نائبه زين الدين علي كوجك في عسكر الموصل. فلما قاربوا بلاد الجبل وأقبلت العساكر من كل جهة على السلطان سليمان ارتاب كوجك لذلك، وعاد إلى الموصل فلم ينتظم أمر سليمان، ودخل همذان وبايعوا له وخطب له ببغداد.

وكثرت جموع ملك شاه بأصبهان وبعث إلى بغداد في الخطبة، وأن يقطع خطبة عمه ويراجع القواعد بالعراق إلى ما كانت فوضع عليه الوزير عون الدين بن هبيرة جارية بعث بها إليه فسمته، فمات سنة خمس وخمسين، فأخرج أهل أصبهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه. وعاد شملة إلى خراسان فملك كل ما كان ملك شاه تغلب عليه منها. واستقر سليمان شاه بتلك البلاد، وشغل باللّهو والسكر ومنادمة الصفاعين، وفوض الأمور إلى شرف الدين دواداره من مشايخ السلجوقية، كان ذا دين وعقل وحسن تربية، فشكا الأمراء إليه فدخل عليه وعذله وهو سكران فأمر الصفاعين بالرد عليه، وخرج مغضباً. وصحا سليمان فاستدرك أمره بالاعتذار فأظهر القبول، واجتنب الحضور عنده وبعث سليمان إلى أبنايخ صاحب الري يستقدمه فاعتذر بالمرض

إلى أن يفيق.

ونمي الخبر إلى كربازه الخادم فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء وقبض عليه وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال من سنة ست وخمسين فقتل وزيره وخواصه وحبسه أياماً.

وخرج أبنايخ صاحب الري ونهب البلاد وحاصر همذان وبعث كردباز إلى الدكز يستدعيه ليبايع لربيبه أرسلان شاه بن طغرل فسار في عشرين ألف فارس، ودخل همذان وخطب لربيبه أرسلان شاه بن طغرل بالسلطنة وجعل الدكز أتابكاً له، وأخاه من أمه البهلول بن الدكز حاجباً. وبعث إلى المقتفي في الخطبة، وأن تعاد الأمور إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فطرد رسوله وعاد إليه على أقبح حالة. وبعث إلى أبنايخ صاحب الري فحالفه على الاتفاق، وصاهره في ابنته على البهلول وجاءت إليه بهمذان وكان الدكز من مماليك السلطان مسعود، وأقطعه أران وبعض أذربيجان ولم يحضر شيئاً من الفتنة، وتزوج أم أرسلان شاه وزوجه طغرل فولدت له محمد البهلوان، وعثمان كزل أرسلان. ثم بعث الدكز إلى أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة في الطاعة لأرسلان شاه ربيبه، فامتنع وهددهم بالبيعة للطفل الذي عنده محمود بن ملك شاه. وقد كان الوزير ابن هبيرة أطمعه في الخطبة لذلك تطفل فيما بينهم، فجهز الدكز العساكر مع ابنه البهلوان وسار إلى مراغة، واستمد أقسنقر ساهرمز صاحب خلاط فأمده بالعساكر، والتقى أقسنقر والبهلوان فانهزم البهلوان وعاد إلى همذان. وعاد أقسنقر إلى مراغة ظافراً.

وكان ملك شاه بن محمود لما مات بأصبهان مسموماً كما ذكرنا لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومعه ابنه محمود، فقبض عليه صاحب فارس زنكي بن دكلا السلفري بقلعة أصطخر، ولما مات بعث الدكز إلى بغداد في الخطبة لربيبه أرسلان وشرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة في التصريف بينهم بعث ابن دكلا وأطمعه في الخطبة لمحمود بن ملك شاه الذي عنده ان ظفر بالدكز فأطلقه ابن دكلا وبايع له، وضرب الطبل على بابه خمس نوب وبعث إلى أبنايخ صاحب الري فوافقه وسار إليه في عشرة آلاف، وبعث إليه أقسنقر الأحمديلي، وجمع الدكز العساكر، وسار إلى أصبهان يريد بلاد فارس، وبعث إلى صاحبها زنكي بن دكلا في الطاعة لربيبه أرسلان فأبى، وقال: إن المقتفي أقطعني بلاده وأنا سائر إليه. واستمد المقتفي وابن هبيرة فواعدوه وكاتبوا الأمراء الذين مع الدكز بالتوبيخ على طاعته والانحراف عنه إلى زنكي بن دكلا صاحب فارس، وأبنايخ صاحب الري، وبدأ الدكز بقصد أبنايخ. ثم بلغه أن زنكي بن دكلا نهب سميرم ونواحيها، فبعث عسكراً نحواً من عشرة آلاف فارس لحفظها فلقيهم زنكي فهزمهم، فبعث الدكز إلى عساكر أذربيجان فجاء بها ابنه كزل أرسلان. وبعث زنكي بن دكلا العساكر إلى أبنايخ ولم يحضر بنفسه خوفاً على بلاد شملة من صاحب خوزستان. ثم التقى الدكز وأبنايخ في شعبان سنة ست وخمسين فانهزم أبنايخ واستبيح عسكره وحاصره الدكز ثم صالحه ورجع إلى همذان.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد وهو أول الخلفاء المستبدين على أمرهم من بني العباس عند تراجع الدولة وضيق نطاقها ما بين الموصل وواسط والبصرة وحلوان

ثم توفي المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم، فحكم على عسكره وأصحابه فيما بقي لمملكتهم من البلدان بعد استبداد الملوك في الأعمال والنواحي. ولما اشتد مرضه تطاول كل من أمُّ ولده إلى ولاية ابنها. وكانت أم المستنجد تخاف عليه، وأم أخيه علي تروم ولاية ابنها، واعتزمت على قتل المستنجد واستدعته لزيارة أبيه وقد جمعت جواريها وآتت كل واحدة منهن سكيناً لقتله وأمسكت هي وابنها سيفين، وبلغ الخبر إلى يوسف المستنجد فأحضر أستاذدار أبيه، وجماعة من الفراشين وأفرغ السلاح ودخل معهم الدار، وثار به الجواري فضرب إحداهن وأمكنها فهربوا وقبض على أخيه علي وأمه فحبسها وقسم الجواري بين القتل والتغريق حتى إذا توفي المقتفي جلس للبيعة فبايعه أقاربه أولهم عمه أبو طالب، ثم الوزير عون الدين بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له. وأقر ابن هبيرة على الوزارة وأصحاب الولايات على ولايتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقرب رئيس الرؤساء، وكان أستاذدار فرفع منزلته عبد الواحد المقتفي، وبعث عن الأمير ترشك سنة ست وخمسين من بلد اللحف وكان مقتطعاً بها فاستدعاه لقتال جمع من التركمان أفسدوا في نواحي البندنجين فامتنع من المجيء وقال: يأتيني العسكر وأنا أقاتل بهم، فبعث المستنجد العساكر مع جماعة من الأمراء فقتلوه وبعثوا برأسه إلى بغداد. ثم استولى بعد ذلك على قلعة الماهكي من يد مولى سنقر الهمذاني ولاه عليها سنقر وضعف عن مقاومة التركمان والأكراد حولها

فاستنزله المستنجد عنها بخمسة عشر ألف دينار، وأقام ببغداد. وكانت هذه القلعة أيام المقتدر بأيدي التركمان والأكراد.

فتنة خفاجة

اجتمعت خفاجة سنة ستة وخمسين إلى الحلة والكوفة، وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر، وكان مقطع الكوفة أرغش وشحنة الحلة قيصر، وهما من مماليك المستنجد فمنعوهما، فعاثوا في تلك البلاد والنواحي فخرجوا إليهم في أثرهم، واتبعوهم إلى الرحبة، فطلبوا الصلح فلم يجبهم أرغش ولا قيصر، فقاتلوهم فانهزمت العساكر. وقتل قيصر وخرج أرغش ودخل الرحبة، فاستأمن له شحنتها وبعثوه إلى بغداد. ومات أكثر الناس عطشاً في البرية وتجهز عون الدين بن هبيرة في العساكر لطلب خفاجة فدخلوا البرية ورجع، وانتهت خفاجة إلى البصرة وبعثوا بالعدو وسألوا الصلح فأجيبوا.

إجلاء بني أسد من العراق

كان في نفس المستنجد باللّه من بني أسد أهل الحلة لفسادهم ومساعدتهم السلطان محمد في الحصار، فأمر يزدن بن قماج بإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح، فجمع العساكر وأرسل إلى ابن معروف فقدم السفن، وهو بأرض البصرة. فجاءه في جموع وحاصرهم وطاولهم، فبعث المستنجد يعاتبه ويتهمه بالتشيع، فجز هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء فاستسلموا، وقتل منهم أربعة آلاف ونودي عليهم بالملا من الحلة فتفرقوا في البلاد، ولم يبق بالعراق منهم أحد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف.

الفتنة بواسط وما جرت إليه

كان مقتطع البصرة منكبرس من موالي المستنجد، وقتله سنة تسع وخمسين، وولى مكانه كمستكين، وكان ابن سنكاه ابن أخي شملة صاحب خوزستان، فانتهز الفرصة في البصرة ونهب قراها، وأمر كمستكين بقتاله فعجز عن إقامة العسكر وأصعد ابن سنكاه إلى واسط ونهب سوادها وكان مقتطعها خلطوبرس فجمع الجموع وخرج لقتاله، واستمال ابن سنكاه الأمراء الذين معه فخذلوه، وانهزم وقتله ابن سنكاه سنة إحدى وستين ثم قصد البصرة سنة اثنتين وستين ونهب جهتها الشرقية وخرج إليه كمستكين وواقعه، وسار ابن سنكاه إلى واسط وخافه الناس ولم يصل إليها.

مسير شملة إلى العراق

سار شملة صاحب خوزستان إلى العراق سنة اثنتين وستين وانتهى إلى قلعة الماهكي وطلب من المستنجد إقطاع البلاد، واشتط في الطلب فبعث المستنجد العساكر لمنعه، وكتب إليه يحذره عاقبة الخلاف فاعتذر بأن الدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ابن ملك شاه بلاده البصرة وواسط والحلة، وعرض للتوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بالثلث منه فأمر المستنجد حينئذ بلعنه، وأنه من الخوارج، وتعبت العساكر إلى أرغمش المسترشدي بالنعمانية وإلى شرف الدين أبي جعفر البلدي ناظر واسط ليجتمعا على قتال شملة، وكان شملة أرسل مليح ابن أخيه في عسكر لقتال بعض الأكراد فركب إليه أرغمش وأسره وبعض أصحابه، وبعث إلى بغداد، وطلب شملة الصلح فلم يجب إليه. ثم مات أرغمش من سقطة سقطها عن فرسه وبقي العسكر مقيماً ورجع شملة إلى بلاده لأربعة أشهر من سفره.

وفاة الوزير يحيى

ثم توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن المظفر بن هبيرة سنة ستين وخمسمائة في جمادى الأولى، وقبض المستنجد على أولاده وأهله وأقامت الوزارة بالنيابة. ثم استوزر المستنجد سنة ثلاث وستين شرف الدين، أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي ناظر واسط وكان عضد الدين أبو الفرج بن دبيس قد تحكم في الدولة فأمره المستنجد بكف يده وأيدي أصحابه، وطالب الوزير أخاه تاج الدين بحساب عمله بنهر الملك من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فخافه العمال وأهل الدولة وحصل بذلك أموالاً جمة.

وفاة المستنجد وخلافة المستضيء

كان الخليفة المستنجد قد غلب على دولته أستاذدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وكان أكبر الأمراء ببغداد، وكان يرادفه قطب الدين قايماز المظفري ولما ولى المستنجد أبا جعفر البلدي على وزارته غض من أستاذدار وعارضه في أحكامه فاستحكمت بينهما العداوة، وتنكر المستنجد لأستاذدار وصاحبه قطب الدين، فكانا يتهمان بأن ذلك بسعاية الوزير. ومرض

المستنجد سنة ست وستين وخمسمائة واشتد مرضه فتحيلا في إهلاكه، يقال: إنهما واضعا عليه الطبيب، وعلم أن هلاكه في الحمام فأشار عليه بدخول فدخله، وأغلقوا عليه بابه فمات. وقيل: كتب المستنجد إلى الوزير ابن البلدي بالقبض على أستاذدار وقايماز وقتلهما، وأطلعهما الوزير على كتابه فاستدعيا يزدن وأخاه يتماش وفاوضهما، وعرضا عليهم كتابه، واتفقوا على قتله فحملوه إلى الحمام وأغلقوا عليه الباب وهو يصيح إلى أن مات تاسع ربيع من سنة ست وستين لإحدى عشرة سنة من خلافته.

ولما أرجف بموته قبل أن يقبض ركب الأمراء والأجناد متسلحين، وغشيتهم العامة واحتفت بهم، وبعث إليه أستاذدار بأنه إنما كان غشياً عرضاً، وقد أفاق أمير المؤمنين وخف ما به، فخشي الوزير من دخول الجند إلى دار الخلافة، فعاد إلى داره وافترق الناس. فعند ذلك أغلق أستاذدار وقايماز أبواب الدار وأحضرا ابن المستنجد أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذدار وقطب الدين قايماز أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بيته البيعة الخاصة. ثم توفي المستنجد وبايعه الناس من الغد في التاج البيعة العامة وأظهر العدل وبذل الأموال وسقط في يد الوزير وندم على ما فرط، واستدعي للبيعة، فلما دخل قتلوه وقبض المستضيء على القاضي ابن مزاحم وكان ظلوماً جائراً واستصفاه ورد الظلامات منه على أربابها، وولى أبا بكر بن نصر بن العطار صاحب المخزن ولقبه ظهير الدين.

انتقاض الدولة العلوية بمصر وعود الدعوة العباسية إليها

ولأول خلافة المستضيء كان انقراض الدولة العلوية بمصر، والخطبة بها للمستضيء من بني العباس في شهر المحرم فاتح سنة سبع وستين وخمسمائة قبل عاشوراء، وكان آخر الخلفاء العبيديين بها العاضد لدين الله من أعقاب الحافظ لدين الله عبد المجيد، وخافوا المستضيء معه ثامن خلفائهم، وكان مغلباً لوزارته. واستولى شاور منهم وثقلت وطأته عليهم فاستقدم ابن شوار من أهل الدولة من الإسكندرية. وفر شاور إلى الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من أقسنقر، وكان من مماليك السلجوقية وأمرائهم المقيمين للدعوة العباسية. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم أيوب بن الكردي.... هو وأبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه في جماعة من الأكراد في خدمة نور الدين محمود بالشام.

فلما جاء شاور مستنجداً بعث معه هؤلاء الأمراء الأيوبية وكبيرهم أسد فأعاده إلى وزارته، وقتل الضرغام، ولم يوف له شاور بما ضمن له عند مسيره من الشام في نجدته. وكان الفرنج قد ملكوا سواحل مصر والشام وزاحموا ما يليها من الأعمال، وضيقوا على مصر والقاهرة إلى أن ملكوا بلبيس وأيلة عند العقبة. واستولوا على الدولة العلوية في الضرائب والطلبات وأصبحوا مأوى لمن ينحني عن الدولة. وداخلهم شاور في مثل ذلك فارتاب به العاضد وبعث عز الدين مستصرخاً به على الفرنج في ظاهر أمره، ويسرحون في ارتعاء من إباة شاور والتمكن منه فوصل لذلك، وولاه العاضد وزارته وقلده ما وراء بابه، فقتل الوزير شاور وحسم داءه وكان مهلكه قريباً من وزارته يقال: لسنة ويقال: لخمسين يوماً فاستوزر العاضد مكانه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين فقام بالأمر وأخذ في إصلاح الأحوال وهو يعد نفسه وعمه من قبله نائباً عن نور الدين محمود بن زنكي الذي بعثه وعمه للقيام بذلك.

ولما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين ضعف أمر العاضد وتحكم صلاح الدين في أموره وأقام خادمه قراقوش للولاية عليه في قصره والتحكم عليه، فبعث إليه نور الدين محمود الملك العادل بالشام أن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للمستضيء ففعل ذلك على توقع النكير من أهل مصر. فلما وقع ذلك ظهر منه الاغتباط وانمحت آثار الدولة العلوية، وتمكنت الدولة العباسية فكان ذلك مبدأ الدولة لبني أيوب بمصر ثم ملكوا من بعدها أعمال نور الدين بالشام واستضافوا اليمن وطرابلس الغرب واتسع ملكهم كما يذكر في أخبارهم. ولما خطب للمستضيء بمصر كتب له نور الدين محمود من دمشق مبشراً بذلك فضربت البشائر ببغداد، وبعث بالخلع إلى نور الدين وصلاح الدين مع عماد الدين صندل من خواص المقتفية، وهو أستاذدار المستضيء فجاء إلى نور الدين بدمشق، وبعث الخلع إلى صلاح الدين وللخطباء بمصر وبإسلام السواد. واستقرت الدعوة العباسية بمصر إلى هذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ثم بعث نور الدين محمود إلى المستضيء رسوله القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري قاضي بلاده يطلب التقليد لما بيده من الأعمال، وهي مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما هو في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم التي لقليج أرسلان وان يقطع صريعين ودرب هارون من بلاد سواد العراق كما كانتا لأبيه، فأكرم الرسول وزاد في الإحسان إليه

وكتب له بذلك.

خبر يزدن من أمراء المستضيء

كان يزدن قد ولاه المستضيء الحلة فكانت في أعماله، وكانت حمايتها لخفاجة وبني حزن منهم فجعلها يزدن لبني كعب منهم، وأمرهم الغضبان فغضب بنو حزن وأغاروا عليهم على السواد، وخرج يزدن في العسكر لقتالهم، ومعه الغضبان وعشيرة بنو كعب فبينما هم ليلة يسيرون رمي الغضبان بسهم فمات، فعادت العساكر إلى بغداد، وأعيدت حفاظة السواد إلى بني حزن. ثم مات يزدن سنة ثمان وستين، وكانت واسط من أقطاعه فاقتطعت لأخيه إيتامش ولقب علاء الدين.

مقتل سنكاه بن أحمد أخي شملة

قد ذكرنا في دولة المستنجد فتنة سنكاه هذا وعمه شملة صاحب خوزستان. ثم جاء ابن سنكاه إلى قلعة الماهكي فبنى بإزائها قلعة ليتمكن بها من تلك الأعمال، فبعث المستضيء العسكر من بغداد لمنعه فقاتلهم واشتد قتاله. ثم انهزم وقتل وعلق رأسه ببغداد وهدمت القلعة.

وفاة قايماز وهربه

قد ذكرنا شأن قطب الدين قايماز وأنه الذي بايع للمستضيء وجعله أمير العسكر وجعله عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وزيراً. ثم استفحل أمر قايماز وغلب على الدولة وحمل المستضيء على عزل عضد الدين أبي الفرج من الوزارة، فلم يمكنه مخالفته، وعزله سنة سبع وستين فأقام معزولاً. وأراد الخليفة سنة تسع وتسعين أن يعيده إلى الوزارة فمنعه قطب الدين من ذلك، وركب فأغلق المستضيء أبواب داره مما يلي بغداد، وبعث إلى قايماز ولاطفه بالرجوع فيما هم به من وزارة عضد الدين فقال: لا بد من إخراجه من بغداد فاستجار برباط شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل فأجاره، واستطال قايماز على الدولة وأصهر على علاء الدين يتامش في أخته فزوجها منه وحملوا الدولة جميعاً.

ثم سخط قايماز ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن وكان خاصاً بالخليفة، وطلبه فهرب فأحرق داره، وجمع الأمراء فاستحلفهم على المظاهرة وأن يقصدوا دار المستضيء ليخرجوا منها ابن العطار، فقصد المستضيء على سطح داره وخدامه يستغيثون، ونادى في العامة بطلب قايماز ونهب داره فهرب من ظهر بيته، ونهبت داره وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال واقتتل العامة على..... ولحق قايماز بالحلة وتبعه الأمراء، وبعث إليه المستضيء شيخ الشيوخ عبد الرحيم ليسير عن الحلة إلى الموصل تخوفاً من عوده إلى بغداد فيعود استيلاؤه لمحبة العامة فيه، وطاعتهم له، فسار إلى الموصل وأصابه ومن معه في الطريق عطش فهلك الكثير منهم، وذلك في ذي الحجة ومن سنة سبعين. وأقام صهره علاء الدين يتامش بالموصل. ثم استأذن الخليفة في القدوم إلى بغداد فقدم وأقام بها عاطلاً بغير إقطاع، وهو الذي حمل قايماز على ما كان منه، وولى الخليفة أستاذداره سنجر المقتفوي، ثم عزله سنة إحدى وسبعين وولى مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن الصاحب.

فتنة صاحب خوزستان

قد ذكرنا أن ملك شاه بن محمود بن السلطان محمد استقر بخوزستان وذكرنا فتنة شملة مع الخلفاء. ثم مات شملة سنة سبعين وملك ابنه مكانه. ثم مات ملك شاه بن محمود وبقي ابنه بخوزستان فجاء سنة اثنتين وسبعين إلى العراق، وخرج إلى البندنجين، وعاث في الناس وخرج الوزير عضد الدين أبو الفرج في العساكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاش تكين أمير الحاج وغز علي، وساروا للقاء العدو وكان معه جموع من التركمان فأجفلوا ونهبتهم عساكر بغداد. ثم ردهم الملك ابن ملك شاه وأوقعوا بالعسكر أياماً ثم مضى الملك إلى مكانه وعادت العساكر إلى بغداد.

مقتل الوزير

قد ذكرنا أخبار الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، كان أبوه أستاذدار المقتفي. ولما مات ولي ابنه مكانه. ولما مات المقتفي أقره المستنجد ورفع قدره، ثم استوزره المستضيء وكان بينه وبين قايماز ما قدمناه، وأعاده المستضيء للوزارة فلما كانت سنة ثلاث وسبعين استأذن المستضيء في الحج فأذن له وعبر دجلة فسافر في موكب عظيم من أرباب المناصب، واعترضه متظلم ينادي بظلامته، ثم طعنه فسقط وجاء ابن المعوذ صاحب الباب ليكشف خبره فطعن الآخر وحملا إلى بيتهما فماتا. وولي

الوزير ظهير الدين أبو منصور بن نصر ويعرف بابن العطار فاستولى على الدولة وتحكم فيها.

وفاة المستضيء وخلافة الناصر

ثم توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد في ذي القعدة سنة خمس وسبعين لتسع سنين ونصف من خلافته، وقام ظهير الدين العطار في البيعة لابنه أبي العباس أحمد ولقبه الناصر لدين الله فقام بخلافته، وقبض على ظهير الدين بن العطار وحبسه واستصفاه. ثم أخرجه من عشر ذي القعدة من محبسه ميتاً وفطن به العامة. فتناوله العامة وبعثوا به، وتحكم في الدولة أستاذدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب، وكان تولى أخذ البيعة للناصر مع ابن العطار، وبعث الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة. وسار صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همذان وأصبهان والري فامتنع من البيعة فأغلظ له صدر الدين في القول. وحرض أصحابه على نقض طاعته إن لم يبايع فاضطر إلى البيعة والخطبة. ثم قبض سنة ثلاث وثمانين على أستاذدار أبي الفضل ابن الصاحب وقتله من أجل تحكمه، وأخذ له أموالاً عظيمة. وكان الساعي فيه عند الناصر عبيد الله بن يونس من أصحابه وصنائعه، فلم يزل يسعى فيه عند الناصر حتى أمر بقتله، واستوزر ابن يونس هذا ولقبه جلال الدين وكنيته أبو المظفر ومشى أرباب الدولة في خدمته حتى قاضي القضاة.

هدم دار السلطنة ببغداد وانقراض ملوك السلجوقية

قد ذكرنا فيما تقدم ملك أرسلان شاه بن طغرل ربيب الدكز، واستيلاء الدكز عليه وحروبه مع أبنايخ صاحب الري. ثم قتله سنة أربع وستين واستولى على الري. ثم توفي الدكز الأتابك بهمذان سنة ثمان وستين، وقام مكانه ابنه محمد البهلوان، وبقي أخوه السلطان أرسلان بن طغرل في كفالته. ثم مات سنة ثلاث وستين ونصب البهلوان مكانه ابنه طغرل. ثم توفي البهلوان سنة اثنتين وثمانين وفي مملكته همذان والري وأصبهان وأذربيجان وأرانيه وغيرها، وفي كفالته السلطان طغرل بن أرسلان. ولما مات البهلوان قام مكانه أخوه كزل أرسلان ويسمى عثمان، فاستبد طغرل وخرج عن الكفالة ولحق به جماعة من الأمراء والجند، واستولى على بعض البلاد ووقعت بينه وبين كزل حروب. ثم قوي أمر طغرل وكثر جمعه وبعث كزل إلى الناصر يحذره من طغرل ويستنجده ويبذل الطاعة على ما يختاره المستضيء رسوله، فأمر بعمارة دار السلطنة ليسكنها.

وكانت ولايتهم ببغداد والعراق قد انقطعت منذ أيام المقتفي فأكرم رسول كزل وعده بالنجدة، وانصرف رسول طغرل بغير حرب وأمر الناصر بهدم دار السلطنة ببغداد فمحى أثرها. ثم بعث الناصر وزيره جلال الدين أبا المظفر عبيد الله بن يونس في العساكر لإنجاد كزل ومدافعة طغرل عن البلاد، فسار لذلك في صفر لسنة أربع وثمانين، واعترضهم طغرل على همذان قبل اجتماعهم بكزل، واقتتلوا ثامن ربيع، وانهزمت عساكر بغداد وأسروا الوزير. ثم استولى كزل على طغرل وحبسه ببعض القلاع، ودانت له البلاد وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس. ثم قتل على فراشه سنة سبع وثمانين ولم يعلم قاتله.

استيلاء الناصر على النواحي

توفي الأمير عيسى صاحب تكريت سنة خمس وثمانين قتله إخوته، فبعث الناصر العساكر فحصروها حتى فتحوها على الأمان وجاؤوا بإخوة عيسى إلى بغداد فسكنوها وأقطع لهم السلطان. ثم بعث سنة خمس وثمانين عساكره إلى مدينة غانة فحاصروها مدة وقاتلوها طويلاً ثم جهدهم الحصار فنزلوا عنها على الأمان وإقطاع عيونها ووفى لهم الناصر بذلك.

نهب العرب البصرة

كانت البصرة في ولاية طغرل لملوك الناصر، كان مقطعها واستناب بها محمد بن إسماعيل، واجتمع بنو عامر بن صعصعة سنة ثمان وثمانين، وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة للنهب والعيث. وخرج إليهم محمد بن إسماعيل في صفر فقاتلهم سائر يومه. ثم ثلموا في الليل ثلماً في السور ودخلوا البلد وعاثوا فيها قتلا ونهباً. ثم بلغ بني عامر أن خفاجة والمشفق ساروا لقتالهم، فرحلوا إليهم وقاتلوهم فهزموهم، وغنموا أموالهم وعادوا إلى البصرة، وقد جمع الأمير أهل السواد فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة فنهبوها ورحلوا عنها.

استيلاء الناصر على خوزستان ثم أصبهان والري وهمذان

كان الناصر قد استناب في الوزاة بعد أسر ابن يونس مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، وكان قد ولي الأعمال في خوزستان وغيرها، وله فيها الأصحاب. ولما توفي صاحبها شملة واختلف أولاده راسله بعضهم في ذلك، فطلب من الناصر أن يرسل معه العساكر ليملكها فأجابه وخرج في العساكر سنة إحدى وتسعين، وحارب أهل خوزستان فملك أولاً مدينة تستر ثم ملك سائر الحصون والقلاع وأخذ بني شملة ملوكها فبعث بهم إلى بغداد، وولى الناصر على خوزستان طاش تكين مجير الدين أمير الحاج.

ثم سار الوزير إلى جهات الري سنة إحدى وتسعين، وجاءه قطلغ أبنايخ بن البهلوان وقد غلبه خوارزم شاه وهزمه عند زنجان، وملك الري من يده. وجاء قطلغ إلى الوزير مؤيد ورحل معه إلى همذان وبها ابن خوارزم شاه في العساكر فأجفل عنها إلى الري، وملك الوزير همذان ورحل في اتباعهم وملك كل بلد مروا بها إلى الري، وأجفل عسكر خوارزم إلى دامغان وبسطام وجرجان. ورجع الوزير إلى الري فأقام بها. ثم انتقض قطلغ بن البهلوان وطمع في الملك فامتنع بالري وحاصره الوزير فخرج عنها إلى مدينة آوة فمنعهم الوزير منها ورحل الوزير في أثرهم من الري إلى همذان، وبلغه أن قطلغ قصد مدينة الكرج فسار إليه وقاتله وهزمه، ورجع إلى همذان فجاءه رسول خوارزم شاه محمد تكش بالنكير على الوزير في أخذ البلاد، ويطلب إعادتها فلم يجبه الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه إلى همذان وقد توفي الوزير ابن القصاب خلال ذلك في شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقاتل العساكر التي كانت معه بهمذان وهزمهم، وملك همذان وترك ولده بأصبهان، وكانوا يبغضون الخوارزمية فبعث صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية إلى الديوان ببغداد يستدعي العساكر لملكها، فجهز الناصر العساكر مع سيف الدين طغرل يقطع بلد اللحف من العراق، وسار فوصل أصبهان، ونزل ظاهر البلد وفارقها عسكر الخوارزمية فملكها طغرل وأقام فيها الناصر وكان من مماليك البهلوان.

ولما رجع خوارزم شاه إلى خراسان، اجتمعوا واستولوا على الري وقدموا عليهم كركجه من أعيانهم، وساروا إلى أصبهان فوجدوا بها عسكر الناصر وقد فارقها عسكر الخوارزمية فملكوا أصبهان، وبعث كركجه إلى بغداد بالطاعة، وأن يكون له الري وساوة وقم وقاشان. ويكون للناصر أصبهان وهمذان وزنجان وقزوين فكتب له بما طلب وقوي أمره.

ثم وصل إلى بغداد أبو الهيجاء السمين من أكابر أمراء بني أيوب وكان في إقطاعه بيت المقدس وأعماله، فلما ملك العزيز والعادل مدينة دمشق من الأفضل بن صلاح الدين عزلوا أبا الهيجاء عن القدس، فسار إلى بغداد فأكرمه الناصر وبعثه بالعساكر إلى همذان سنة ثلاث وتسعين فلقي بها أزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه قطلمش، وقد كاتبوا الناصر بالطاعة فداخل أمير علم وقبض على أزبك وابن قطلمش بموافقته، وأنكر الناصر ذلك على أبي الهيجاء وأمره بإطلاقهم. وبعث إليهم بالخلع فلم يأمنوا، وفارقوا أبا الهيجاء فخشي من الناصر ودخل إلى أربل لأنه كان من أكرادها، ومات قبل وصوله إليها.

وأقام كركجه ببلاد الجبل واصطنع رفيقه إيدغمش، واستخلصه ووثق به فاصطنع إيدغمش المماليك وانتقض عليه آخر المائة السادسة، وحاربه فقتله واستولى على البلاد ونصب أزبك بن البهلوان للملك وكفله. ثم توفي طاش تكين أمير خوزستان سنة اثنتين وستمائة وولى الناصر مكانه صهره سنجر وهو من مواليه، وسار سنجر سنة ثلاث وستمائة إلى جبال تركستان جبال منيعة بين فارس وعمان وأصبهان وخوزستان وكان صاحب هذه الجبال يعرف بأبي طاهر وكان للناصر مولى اسمه قشتمر من أكابر مواليه ساءه وزير الدولة ببعض الأحوال فلحق بأبي طاهر صاحب تركستان فأكرمه وزوجه بابنته.

ثم مات أبو طاهر فأطاع أهل تلك الولاية قشتمر وملك عليهم، وبعث الناصر إلى سنجر صاحب خوزستان يعضده في العساكر فسار إليه وبذل له الطاعة على البعد. فلم يقبل منه فلقيه وقاتله فانهزم سنجر، وقوي قشتمر على أمره وأرسل إلى ابن دكلا صاحب فارس، وإلى إيدغمش صاحب الجبل فاتفق معهما على الامتناع على الناصر واستمر حاله.

عزل الوزير نصير الدين

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت إمارة، وقدم إلى بغداد عندما ملك الوزير ابن القصاب الري فأقبل عليه الخليفة، وجعله نائب الوزارة. ثم استوزره وجعل ابنه صاحب المخزن فتحكم في الدولة، وأساء إلى أكابر موالي الناصر، فلما حج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع سنة ثلاث وستمائة وكان أميراً ففارق الحاج ومضى إلى الشام، وبعث إلى

الناصر أن الوزير ينفي عليك مواليك ويريد أن يدعي الخلافة فعزله الناصر وألزمه بيته. وبعث من كل شيء ملكه، ويطلب الإقامة بالمشهد فأجابه الناصر بالأمان والاتفاق، وان المعزلة لم تكن لذنب وإنما أكثر الأعداء المقالات فوقع ذلك. واحترز لنفسه موضعاً يتنقل إليه موقراً محترماً فاختار أيالة الناصر، خوفاً أن يذهب الأعداء بنفسه.

ولما عزل عاد سنقر أمير الحاج، وعاد أيضاً قشتمر، وأقيم نائباً في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن إسمينا الواسطي، ولم يكن له ذلك التحكم، وقارن ذلك وفاة صاحب المخزن ببغداد أبو فراس نصر بن ناصر بن مكي المدائني فولى مكانه أبو الفتوح المبارك بن عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأعلى محله، وذلك في المحرم سنة خمس وستمائة. ثم عزل آخر السنة لعجزه، ثم عزل في ربيع من سنة ست وستمائة فخر الدين بن إسمينا، ونقل إلى المخزن وولى نيابة الوزارة مكانه مكين الدين محمد بن محمد بن محمد بن بدر القمر كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين.

انتقاض سنجر بخوزستان

قد ذكرنا ولاية سنجر مولى الناصر على خوزستان بعد طاش تكين أمير الحاج ثم استوحش سنة ست وستمائة واستقدمه الناصر فاعتذر فبعث إليه العساكر مع مؤيد الدين نائب الوزارة، وعز الدين بن نجاح الشرابي من خواص الخليفة. فلما قاربته العساكر لحق بصاحب فارس أتابك سعد بن دكلا فأكرمه ومنعه، ووصلت عساكر الخليفة خوزستان في ربيع من سنته وبعثوا إلى سنجر في الرجوع إلى الطاعة فأبى وساروا إلى أرجاز لقصد ابن دكلا بشيراز، والرسل تتردد بينهم. ثم رحلوا في شوال يريدون شيراز فبعث ابن دكلا إلى الوزير والشرابي بالشفاعة في سنجر واقتضاء الأمان له فأجابوه إلى ذلك، وأعادوا سنجر إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة، ودخلوا به مقيداً. وولى الناصر مولاه ياقوتاً أمير الحاج على خوزستان. ثم أطلق الناصر سنجر في صفر من سنة ثمان وستمائة وخلع عليه.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصبهان وهرب إيدغمش ثم مقتله ومقتل منكلي وولاية إغلمش

قد ذكرنا استيلاء إيدغمش من أمراء البهلوانية على بلاد الجبل همذان وأصبهان والري وما إليها فاستفحل فيها وعظم شأنه وتخطى إلى أذربيجان وأرانيه فحاصر صاحبها أزبك بن البهلوان. ثم خرج سنة ثمان وستمائة منكلي من البهلوانية، ونازعه الملك وأطاعه البهلوانية، فاستولى على سائر تلك الأعمال وهرب شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، وأمر الناصر بتلقيه، فكان يوماً مشهوداً وخشي منكلي من اتصاله فأوفد ابنه محمداً في جماعة من العسكر، وتلقاه الناس على طبقاتهم وقد كان الناصر شرع في إمداد إيدغمش، فأمده وسار إلى همذان في جمادى من سنة عشر، ووصل إلى بلاد ابن برجم من التركمان الأيوبية، وكان الناصر عزله عن إمارة قومه وولى أخاه الأصغر، فبعث إلى منكلي يخبر إيدغمش، فبعث العساكر بطلبه فقتلوه وافترق جمعه.

وبعث الناصر إلى أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرانية يغريه به وكان مستوحشاً منه وأرسل أيضاً إلى جلال الدين صاحب قلعة الموت وغيرها من قلاع الإسماعيلية من بلاد العجم بمعاضدة أزبك على أن يقتسموا بلاد الجبل. وجمع الخليفة العساكر من الموصل والجزيرة وبغداد وقدّم على عسكر بغداد مملوكه مظفر الدين وجه السبع واستقدم مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك وهو على أربل وشهرزور وأعمالها، وجعله مقدم العساكر جميعاً وساروا إلى همذان فهرب منكلي إلى جبل قريب من الكرج وأقاموا عليه يحاصرونه ونزل منكلي في بعض الأيام فقاتل أزبك وهزمه إلى مخيمه. ثم جاء من الغد وقد طمع فيهم فاشتدوا في قتاله وهزموه فهرب عن البلاد أجمع، وافترقت عساكره واستولت العساكر على البلاد، وأخذ جلال الدين ملك الإسماعيلية منها ما عينته القسمة وولى أزبك بن البهلوان على بقية البلاد أغلمش مملوك أخيه وعادت العساكر إلى بلادها ومضى منكلي منهزماً إلى مدينة ساوة فقبض عليه الشحنة بها وقتله وبعث أزبك برأسه إلى بغداد وذلك في جمادى سنة اثنتي عشرة.

ولاية حافد الناصر على خوزستان

كان للناصر ولد صغير اسمه علي وكنيته أبو الحسن قد رشحه لولاية العهد وعزل عنها ابنه الأكبر، وكان هذا أحب ولده

إليه فمات في ذي القعدة سنة عشر فتفجع له وحزن عليه حزناً لم يسمع بمثله. وشمل الأسف عليه الخاص والعام. وكان ترك ولدين لقبهما المؤيد والموفق فبعثهما الناصر إلى تستر من خوزستان بالعساكر في المحرم سنة ثلاث عشرة وبعث معهما مؤيد الدين نائب الوزارة، وعزل مؤيد الدين الشرابي فأقاما بها أياماً. ثم أعاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد في شهر ربيع وأقام المؤيد بتستر.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل وطلب الخطبة له ببغداد

كان أغلمش قد استولى على بلاد الجبل كما ذكرناه واستفحل أمره وقوي ملكه فيها. ثم قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة. وكان علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه وارث ملك السلجوقية قد استولى على خراسان وما وراء النهر فطمع في إضافة هذه البلاد إليه فسار في عساكره واعترضه صاحب بلاد فارس أتابك سعد بن دكلا على أصبهان وقد ساقه من الطمع في البلاد مثل الذي ساقه فقاتله وهزمه خوارزم وأخذه أسيراً. ثم سار إلى ساوة فملكها ثم قزوين وزنجان وأبهر، ثم همذان ثم أصبهان وقم وقاشان. وخطب له صاحب أذربيجان وأرانية وكان يبعث في الخطبة إلى بغداد ولا يجاب، فاعتزم الآن على المسير إليها وقدم أميراً في خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فنزلها. ثم أتبعه بأمير آخر، فلما سار عن همذان سقط عليهم الثلج وكادوا يهلكون، وتخطف بقيتهم بنو برجم من التركمان وبنو عكا من الأكراد. واعتزم خوارزم شاه على الرجوع إلى خراسان، وولى على همذان طابسين وجعل إمارة البلاد كلها لابنه ركن الدين وأنزل معه عماد الملك المساوي متولياً أمور دولته، وعاد إلى خراسان سنة خمس عشرة وأزال الخطبة للناصر من جميع أعماله.

إجلاء بني معروف عن البطائح

كان بنو معروف هؤلاء من ربيعة ومقدمهم معلى، وكانت رحالهم غربي الفرات قرب البطائح، فكثر عيثهم وإفسادهم السابلة، وارتفعت شكوى أهل البلاد إلى الديوان منهم، فرسم للشريف سعد متولي واسط وأعمالها أن يسير إلى قتالهم وإجلائهم، فجمع العساكر من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة فهزمهم واستباحهم، وتقسموا بين القتل والأسر والغرق، وحملت الرؤوس إلى بغداد في ذي القعدة سنة عشر.

ظهور التتر

ظهرت هذه الأمة من أجناس الترك سنة ست عشرة وستمائة وكانت جبال طمغاج من أرض الصين بينها وبين بلاد تركستان ما يزيد على ستة أشهر وكان ملكهم يسمى جنكزخان، من قبيلة يعرفون نوحي فسار إلى بلاد تركستان وما وراء النهر وملكها من أيدي الخطا، ثم حارب خوارزم شاه إلى أن غلبه على ما في يده من خراسان وبلاد الجبل، ثم تخطى أرانيه فملكها. ثم ساروا إلى بلاد شروان وبلد اللان واللكز فاستولوا على الأمم المختلفة بتلك الأصقاع. ثم ملكوا بلاد قنجاق وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان فملكوا ذلك كله في سنة أو نحوها، وفعلوا من العيث والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله في غابر الأزمان. وهزموا خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش فلحق بجزيرة في بحر طبرستان فامتنع بها إلى أن مات سنة سبع عشرة وستمائة لاحدى وعشرين سنة من ملكه. ثم هزموا ابنه جلال الدين بغزنة واتبعه جنكزخان إلى نهر السند فعبر إلى بلاد الهند، وخلص منهم وأقام هنالك مدة ثم رجع سنة اثنتين وعشرين إلى خوزستان والعراق. ثم ملك أذربيجان وأرمينية إلى أن قتله المظفر حسبما نذكر ذلك كله مقسماً بين دولتهم ودولة بني خوارزم شاه أو مكرراً فيهما. فهناك تفصيل هذا المجمل من أخبارهم والله الموفق بمنه وكرمه.

وفاة الناصر وخلافة الظاهر ابنه

ثم توفي أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء في آخر شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة لسبع وأربعين سنة من خلافته بعد أن عجز عن الحركة ثلاث سنين من آخر عمره وذهبت إحدى عينيه وضعف بصر الأخرى. وكانت حاله مختلفة في الجد واللعب وكان متفنناً في العلوم وله تآليف في فنون منها متعددة، ويقال: إنه الذي أطمع التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتنة، وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد. وكان له فيها سند إلى زعمائها يقتصه على من يلبسه إياها، وكان ذلك كله دليلاً لى هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم. ولما توفي بويع ابنه أبو نصر

محمد ولقب الظاهر. وكان ولي عهده عهد له أولاً سنة خمس وثمانين وخمسمائة ثم خلعه من العهد وعهد لأخيه الصغير علي لميله إليه. وتوفي سنة اثنتي عشرة فاضطر إلى إعادة هذا، فلما بويع بعد أبيه أظهر من العدل والإحسان ما حمد منه ويقال: إنه فرق في العلماء ليلة الفطر التي بويع فيها مائة ألف دينار.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

ثم توفي الظاهر أبو نصر محمد في منتصف رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة لتسعة أشهر ونصف من ولايته وكانت طريقته مستقيمة وأخباره في العدل مأثورة. ويقال: إنه قبل وفاة كتب بخطه إلى الوزير توقيعاً يقرؤه على أهل الدولة فجاء الرسول به، وقال: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال: برز مرسوم وأنفذ مثال، ثم لا يتبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال.

ثم تناولوا الكتاب وقرؤوه فإذا فيه بعد البسملة: أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا وتقبيح السنة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكاً للأغراض، انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب، تنطقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم، ما طلتم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً وفقركم غنى وبباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقبل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه يخاف الله فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام.

ولما توفي بويع ابنه أبو جعفر المستنصر وسلك مسالك أبيه، إلا أنه وجد الدولة اختلفت والأعمال قد انتقضت والجباية قد انتقصت أو عدمت، فضاقت عن أرزاق الجند وأعطياتهم فأسقط كثيراً من الجند، واختلفت الأحوال. وهو الذي أعاد له محمد بن يوسف بن هود دعوة العباسية بالأندلس آخر دولة الموحدين بالمغرب فولاه عليها، وذلك سنة تسع وعشرين وستمائة كما يذكر في أخبارهم. ولآخر دولته ملك التتر بلاد الروم من يد غياث الدين كنخسرو وآخر ملوك بني قليج أرسلان، ثم تخطوها إلى بلاد أرمينية فملكوها. ثم استأمن إليهم غياث الدين فولوه من قبلهم وفي طاعتهم كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى. انتهى.

وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني العباس ببغداد

لم يزل هذا الخليفة المستنصر ببغداد فالنطاق الذي بقي لهم بعد استبداد أهل النواحي كما قدمنا. ثم انحل أمرهم من هذا النطاق عروة، وتملك التتر سائر البلاد، وتغلبوا على ملوك النواحي ودولهم أجمعين، ثم زاحموهم في هذا النطاق وملكوا أكثره، ثم توفي المستنصر سنة إحدى وأربعين لست عشرة سنة من خلافته، وبويع بالخلافة ابنه عبد الله ولقب المستعصم، وكان فقيهاً محدثاً. وكان وزيره ابن العلقمي رافضياً، وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين مبدأ الأمراء الأول، فلا تتجدد فتنة بين الملوك وأهل الدول، إلا ويحدث فيها بين هؤلاء ما يعني أهل الدولة خاصة زيادة لما يحدث منهم أيام سكون الدول واستقامتها، وضاقت الأحوال على المستعصم فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البياعات والأسواق وفي المعايش، فاضطرب الناس وضاقت الأحوال وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن بين الشيعة وأهل السنة، وكان مسكن الشيعة بالكرخ في الجانب الغربي، وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا بأهل السنة، وأنفذ المستعصم ابنه أبا بكر وركن الدين الدوادار، وأمرهم بنهب بيوتهم بالكرخ، ولم يراع فيه ذمة الوزير فأسفه ذلك، وتربص بالدولة وأسقط معظم الجند يموه بأن يدافع التتر بما يتوفر من أرزاقهم في الدولة.

وزحف هلاكو ملك التتر سنة اثنتين وخمسين إلى العراق وقد فتح الري وأصبهان وهمذان وتتبع قلاع الإسماعيلية، ثم قصد قلعة الموت سنة خمس وخمسين فبلغه في طريقه كتاب ابن الموصلايا صاحب أربل وفيه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم إلى هلاكو يستحثه لقصد بغداد، ويهون عليه أمرها، فرجع عن بلاد الإسماعيلية وسار إلى بغداد واستدعى أمراء التتر فجاءه بنحو مقدم العسكر ببلاد الروم، وقد كانوا ملكوها. ولما قاربوا بغداد برز لقائهم أيبك الدوادار في العساكر فانكشف التتر أولاً ثم تذامروا فانهزم المسلمون واعترضهم دون بغداد أو حال مياه من بثوق انتفثت من دجلة، فتبعهم التتر دونها وقتل الدوادار وأسر